حسن حسني عبد الوهاب

ورقات

عن

الحضارة العربية بافريقية التونسية

القسم الثاني



الناشر
مكتبة المنار - تونس

١٩٦٦

ورقـــــات

عن

الحضارة العربية بافريقية

التونسية

حسن حسني عبد الوهاب



ورقات

عن الحضارة العربية بافريقية التونسية

القسم الثاني

الناشر
مكتبة المنار - تونس
١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً .

(قرآن كريم)

الأهْداءُ

الى الرفيقة التي شاركتني الحياة ، وأشرقت عليها بنور المحبة الصافية ، المنبعثة من روحها الطاهرة الزكيّة .

الى التي زانت بيتي بطلعتها ، وأنارت منزلي ببهجتها ، وساهمتني الاتراح فخفّفت وطئتها ، وشاطرتني الافراح فصيّرت لي الأيام خضرة نضرة ، تستأهل أن تعاش وتحيا .

الى زوجي العزيزة (عَلِيَّة بوشوشة)

أهدي هذا الجزء من تأليفي المتواضع ، كعربون لمحبّتي الصادقة واخلاصي الدائم .

حسن حسني

تصدير (*)

سوسة - ثانية عواصم البلاد - هي المدينة ذات الجمال الرائع، والصيت الذائع، جوهرة الساحل، ودُرّته المضيئة، وثغره الباسم لكل وارد...

مضى على سوسة، منذ الفتح العربي ثلاثة عشر قرنا، وهي هيَ، يتراءى لزائرها من بين جدرانها مظهر عظمة التمدن العربي، ومثال القوة الافريقية، وتمتاز عن بقية المدائن بكثرة معالم عمرانها ومعاهدها التي يرجع تاريخها الى أفخر العصور العربية للقطر التونسي، أي القرن الثالث للهجرة، عصر دولة الاغالبة العتيدة، والعزّة لله وحده!

(*) القيت هذا البحث كمحاضرة في (الندوة الاثرية) المنعقدة بسوسة في أواخر شهر مارس ١٩٦٣، وكان المقصود منها اثبات ما لهذه المدينة — وما حولها من قرى الساحل — من الحياة القومية ومن النظام الاجتماعي في مدة الدولة الاغلبية. وقد جمعت ما استطعت عليه من البيانات التاريخية التي لها علاقة بسوسة منذ أعاد عمرانها بنو الاغلب الى وقت سقوط إمارتهم. على اني لا ادعي الاستقصاء — والكمال غاية لا تدرك — فربما يوجد في غير ما استطعت عليه من الاحداث ما لم أنبه اليه، إلا اني حاولت - بقدر الامكان - ان أثبت ان سوسة كانت ولم تزل أغلبية، غنية بمنشآت لا مثيل لها في قطرنا، وبهذا الاعتبار فانها من جليل أعمال الاغالبة، وحسنة واضحة من حسناتهم الخالدة.

أجل، تحتوي سوسة على جملة مبانٍ جليلة تدعو الى البحث عن تاريخها، والفحص عن أصل منشأها،والغرض الذي أُقيمت من أجله . اما الدراسات الاثرية عن تلك المعالم فتكاد تكون عديمة الوجود، عدا القليل الذي كتبه عنها الاستاذ المصري: (احمد فكري)، ضمن بحثه عن الآثار الاسلامية التونسية [1] أو ما كُتِبَ عن رباطـها بالفرنسية [2] ، وهذا كله غير مستوفٍ للموضوع ، ويحتاج للتنقيح والتصحيح.

وفي الحقيقة ان بحثاً مثل الذي قصدنا يستلزم عناية كاملة للتنقيب الجدّ عن مصادر الاخبار، والتقاط النُتَف المبعثرة هنا وهناك، الواردة في شأن سوسةومبانيها،ولا غرو فان هذهالنتفقليلة ـ وقليلة جداً ـ فيما لدينا من المراجع القديمة الواصلة الينا .

وسنحاول ـ بعون الله ـ في هذه العجالة التعريف بالمعالم الاغلبية، والاغلبية خاصة ـ الموجودة في المدينة ، ورفع اللثـــام عن تأسيسها والمؤسسين لها ، ويكون كلامنا مقصوراً عن الناحية التاريخية دون العمرانية، تاركين البحث في ذلك الى من يوّفقه الله للعناية بذلك الجانب المهمّ حتى يتسنّى إحياء مآثر السلف الصالح ، واظهار مزاياهم للعيان . وقد توسعنا عند ذكر المعالم بنقل الاحداث التاريخية ، أو تراجم بعض الرجال الذين كان لهم صلة بتأسيسها ، قاصدين بذلك زيادة الافـــادة وإرشاد القـــاري ـ من خلال أخبـارهم ـ الى جانب مهمّ من الحيـاة الاجتماعية ومظاهرها في ذلك العصر. على انا لم نتعرض في مقالنا هذا الى ذكر المحارس والرباط التي كانت بالمنستير ـ وهي أعظم معاقل افريقية ـ لإنّا وضعنا بحثاً خاصاً بها في غير هذا،ينشر قريبا بحوله تعالى وطوله.

---

(١) احمد فكري : «آثار تونس الاسلامية ومصادر الفن الاسلامي» طبع تونس ١٩٤٩

(٢) ليزين في كتابه عن رباط سوسة

Lézine ; « le Ribat de Sousse », Tunis 1956

سوسة الأغلبيّة

من مظاهر عظمة تونس في التاريخ

سُوسَة الأغلبيّة

الاسماء المختلفة لسوسة

أول ما يتبادر لذهن كلّ باحث سؤال طالما طرق الفكر وهو : ما سبب تسمية هذه المدينة (سوسة) في العصر الاسلامي بينما كانت لا تُعرف من قديم الزمان إلاّ باسم (حَضْرَمَوْت) ؟ وهي تسمية أطلقها الفينيقيون وأحفادهم القرطاجنيون لنعت هذا المكان الذي اتخذوه مرفأً منيعاً لمراكبهم ومستودعاً لتجارتهم ، واقتدى بهم الرومان عند امتلاكهم للبلاد ، فنطقوا به بصيغة (هَدْرُومات Hadrumete) تحريفاً للاصل الفينيقي ، واقتفى أثرهم في ذلك النطق الوندال ثم الروم البيزنطيون .

وليس من شكّ ان (حضرموت) هو اسم ساميّ الاصل استعمله الفينيقيون ـ وهم من الكنعانيين الوافدين قديما من سواحل جزيرة العرب على أرض فلسطين ـ ويُلاحظ ان هذا التعريف بعينه يتّفق مع اسم الامارة العربية (حضرموت) الواقعة بجنوب الجزيرة .

ثم ان هذا العَلَم يختفي من جغرافية افريقية قبل الفتح الاسلامي

ويُعوّض باسم (سوسة) حينما نرى الغُزاة العرب حافظوا ـ في غالب الاحيان ـ على تسميات الاعلام القديمة على هيئتها المتداولة بين السكّان، سوآء أكانت بربرية الاصل أم فينيقية أم رومانية ؛ فيستغرب حينئذ من شذوذ إسم سوسة عن هذه القاعدة .

واني لأتساءل من جهة أخرى : من أين سرى اسم (سوسة) وحلّ مكان (حضرموت) في العصر العربي ؟ بينما أُقيمت المدينة ـ الاغلبية المتجدّدة في عين المكان الذي كانت تحلّه العاصمة القديمة ، ولم يقع نقلها الى موضع آخر تستحق به تغيير تعريفها ؟

ولا نزاع في ان اسم (سوسة) هو بربري الاصل مثل الكثير من الاعلام الجغرافية المنتشرة في البلاد التونسية ، وكذا في بقية الاقطار المغربية ، ويؤيد هذا الرأي انه يوجد بناحية (درنة) من أقاليم ليبية قرية صغيرة تعرف ايضا (بسوسة) وقد تُنسبُ الى برقة للتفرقة بينها وبين سوسة التونسية ، يضاف الى ذلك ان بلاد (السوس) في المغرب الاقصى هي كذلك تسمية بربرية قريبة اللفظ مما ذكرنا .

والذي يلوح لنا ان اسم (حضرموت) أهمل استعماله من زمان استيلاء الوندال على تونس، فان ثاني ملوكهم وهو (هونوريك Hunuric) أطلق اسمه على سوسة فأصبحت تعرف باسم (هونوريكوبوليس ـ Hunuricopolis) أي مدينة هونوريك ـ في حدود سنة ٤٨٠ للميلاد ـ

ولم تمض الاّ مدة قصيرة بعد ذلك حتي هدّمت المدينة الوندالية فصارت يباباً بلقعاً ـ حدود سنة ٥٢٠ م ـ ثم تدارك أمرها الروم ، فحاول البطريق (سولومون ـ Solomon) والي افريقية البيزنطية إعادة بنائها بما تيسّر ، وقد أسماها (يوستنيوبوليس ـ Gustiniopolis) أي مدينة يوستنيان قيصر الروم المتولى حينذاك . وفي الواقع ان سوسة في عهد البيزنطيين لم تكن الا قرية ضعيفة العمران ، قليلة السكّان ، قد أضاعت منزلتها العمرانية الكبيرة ونزلت الى مستوى المداشر البسيطة لتعاقب الفتن وتتابع المِحن والاضطرابات السياسية والدينية في انحآء البلاد .

فمن المتوقع ان في الفترة التي تفصل بين سقوط حكم الروم وفتح الجنود العربية نسي الأهالي الاصليون الاسم القديم (حضرموت) لما اعترى البلاد من الانقلابات الاجتماعية ، واختلاف اسمآء الاماكن ، فاطلقوا على تلك القرية اسم (سوسة) وهو بربري كما أشرنا اليه ، فلما جاء العرب لم يجدوا متداولاً بين السكّان الا إسم سوسة دون سواه ، فاقروا استعماله ومشوا عليه .

وهذا ما يبدو لنا في اهمال اسم (حضرموت) وتعويضه بسوسة

ولايــة بوزَاقِيَـــة

ويجدر ان نذكّر ان سوسـة كانت قـاعدة لولاية متسعة الاطراف عُرفت في عهد الرومان والوندال والروم باسم (بوزَاقِيَة : Byzacia) وعرّبها العرب الى (مُـزاق) وقال عنها الافرنج (Byzacène)،وهي توافق المنطقـة التي نعرفها اليوم ببـــلاد الساحل . وروى مؤرخـو الرومان ان (بوزاقيـة) تمتدّ على سيف البحـر على مسافة تُقدّر بمأتين وخمسين كيلوميتر تقريباً ، تبتديء من سوسة (حضرموت) وتشمل المنستير (روشبينا قديما) ولمطـة (لَبْطَه) و (تَبْصَة ـ Thapsus) وكانت مدينة جليلة تقع برأس الديماس حذو البقالطة . وتصل الى بُطْرِيَة (أكولا ـ Acholla) في الجنوب من بلد الشابّة ورأس قبودية .

غير ان أولئك المؤرخين لم ينصّوا على مقدار انتشارهذه الولاية من الناحية الوسطى للبلاد التونسية، ويستروَح من شعر قالهعالم القيروان عبد الرحمن بن زياد بن أنعم [1] في أوائل القرن الثاني للهجرة ان مكان القيروان كان يعدّ من توابـع هذه المنطقة ، أعني (مُزَاق) .

(١) راجـع شيئاً من حياته وشعره في تـأليفنـا « المنتخب من الادب التونسي » ط مصر سنة ١٩٤٤ ص ١٣

سـوسـة زمن الفتـــح

أخبار الفتح العربي لإفريقية معروفة على الاجمال،وقد يصعب ضبط أحداثها بتحقيق لقلة المصادر القديمـة المقطوع بصحتها ، غير أنا نعـلم ان الصحابي عبد الله بن أبي سرح بعد ان غزا أواسط البـلاد التونسية وأوقع بجيش الروم ومن انضم اليه من متطوعة البربر بالقرب من مدينة (سبيطلة) رجع بالعرب الى مصر ـ سنـة ٢٧ (٦٤٨ م) وقد صالح الاهلين على مالٍ معـين .

وخَلَفَ ابن أبي سرح في غزوات الفتح القائـد الاموي (معاوية بن حُدَيْج) الذي قدم افريقية ونزل بمن معه من القوات في مكان القيروان او قريباً منه ، وذلك قبل تأسيس المدينـة ، وفي اثنـاء إقامته بلغـه ان بطريقاً من بطارقـة الروم يسمى نِقَـفُور (le Patrice Nicephore) انفذه قيْصر القسنطينية في ثلاثين الف مقاتل ، فنزل بساحل سوسة ، فلم يتوانَ ابن حُديـج في ارسال عبد الله بن الزُّبْير ـ الصحـابي المشهور ـ في جمع كثيف الى ناحية سوسة لملاقاة الروم .

روى البَكْري باسنـاده قـال : « فسار عبد الله بن الزبيْر حتى نزل شَرَفاً عالياً ينظر منه الى البحـــر ، بينه وبـين سوسة اثـنى عشر

ميلا[1] فلما علم نقفور ذلك رجع الى مراكبه وصدر عن ذلك الساحل وقصد سوسة ، فركب عبد الله بن الزبير في جيشه حتى بلغ البحر ونزل على باب سوسة ، وانحطّ عن فرسه وصلّى بالناس صلاة العصر والروم يتعجبون من أمره لقلّة اكتراثه بهم، فأخرجوا جمعاً كثيراً من كُمَاتهم رَجالاً ورُكْبانا ، فزحفوا اليه وهومقبل على صلاته لايروعه ذلك ولا يهوله ، حتى إذا قضى صلاته شدَّ على فرسه فركبه وحمل عليهم بمن معه من الجنــود ، فانكشف الروم عنه وولّوا أدبارهم ، وتمكّنوا من الصعود الى سفائنهم واقلعوا راجعين الى بلادهم » (٢)

وكانت هذه الوقعة في سنة ٣٤ هـ (٦٥٤) ، ولم يصرّح الاخباريون إذا كان ابن الزبير احتل سوسة أو عاد عنها بعد انتصاره ، والمتوقـع انه امتلكها إذ ان الجيش المهاجم من الروم امتطى مراكبه وترك سوسة وشأنها وقفل راجعاً من حيث أتى .

فهذا أول خبر يأتي في المغازي العربيـــة عن ذكر سوســة ، وقد

(١) يحتمل ان يكون هذا الشرف العالي هو احدى الكديتين المعروفتين الان باسم (الرحيات) الواقعتين بين سوسة وشط مارية

(٢) ابوعبيد البكري في المسالك والممالك من تأليفه ، طبع باريس سنة ١٩١١ ص ٣٤

أسلفنا انها كانت وقتئذ في عداد القرى الضعيفة التي لا يؤبـه بها ، وما تمّ لها من المرتبة العمرانية الا في عصر دولة بني الاغلب كما سيأتي بيانه .

وتصرّح المصادر التاريخية البيزنطية بان الاسطول القادم الى ناحية سوسة تحت قيادة البطريق نِقَفور كان أرسله قيصر الروم (قسنطين الثاني ـ Constant II) الذي كان يقيم بمـدينة سِرَقُوسة الواقعـة شرقي جزيرة صقلية التابعـة لممتلكاته ، وان وصول هـذا الاسطول للساحل الافريقي كان في خـلال سنـة ٦٥٤ ميلادية المقابلة الى ٣٤ من الهجرة كما تـقدّم .

وهكذا تتفق المصادر البيزنطية مع الرواية العربية من ان البطريق رئيس الحملة لم يتمكن من النزول بمدينة سوسة بل انه رجع على اعقابه بعد مشـادّة عنيفة بين عساكره ورجال الجيش العربي أمام البـلد ، كما ورد ذكره في النصّ العربي المنقول عنه بالسواء .

العناية بالدفاع عن الساحل

وبعد مضي قرن ونصف عن محاولة الروم البيزنطيـــين لتنزيل قواتهم بساحل سوسة لاسـترجاع حكمها كما مرّبنا ، يرتقي (ابراهيم بن الاغلب) ذروة الامارة الافريقية ـ سنة ١٨٤ (٨٠٠م) ويحقـق لبنيه

وراثة الملك من بعده ، كما يعتني من أول ولايته بشؤون حراسة البلاد فيأمر تابعه (أبا هارون موسى) ببنـــاء حصن في مكان قصر الرباط الحالي بسوسة ، قاصداً الدفــاع عن ذلك الجانب من الساحل ، إذ ان رباط المنستير - المتقدم عنه في السنّ - يبعد بنحو عشرين «كيلو ميتر» منه، فيقيم هناك حصناً حربياً ذي طابق سفلي فقط . وقدوَهَم المسيو لازين[1] إذ جعل الباني له هو الامير حاتم بن يزيد المهلبي الذي تولى أمر إفريقية قبل ولاية (هرثمة بن أعيُن) وقبل الاغالبـة ، بل من المحقق الثابت ان المنشىء الاول لرباط سوسـة هو ابراهـــيم الاول في اواخر القرن الثاني للهجرة

ومن ذلك الحين تتواصل جهود أمرآء بني الاغلب بـدون انقطاع طيلة مائة عام لتمصير سوسة وتعميرهـا بالمعالم والمصالح ما بين عمومية وحربية ودينية لدرجـة أن تصبح أكـبر معقل حربي يذكر في الجانب الغربي من البحر المتوسط .

تعمـــير سوســـة

يعود الفضل الاكـــبر الى الامير زيادة الله بن ابراهيم _ وقدتولى سنة ٢٠١ (٨١٦) - في تمهيد السبيل الى تخصيص سوسة بأن تكون مرفأ

1) Lézine : le Ribat de Sousse p. 21

حربياً ، فانه أول من فكّر في تقريب دار صناعة (Arsenal) لانشاء السُفُن الحربية من مدينة القيروان، إذ أن المراسي المعدّة لذلك الغرض في القطر التونسي كانت تقـع في مكانـيْن بعيدين عن العاصمة الاغلبية: دار الصناعة بمدينة تونس وكان أحدثها الامير حسّان بن النعمان في زمن الفتح _ حدود سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م)، والثانية في مرسى مدينة (نوبة) الكائنة فى الجهة الغربيـة من جزيرة شريك حيث ضريح سيدي داوود النوبي بالوطن القبلي الآن .

وانما جدّ زيادة الله في تنظـــيم الحملات البحرية لاتقآء غائلة الروم البيزنطيين وتثبيط عزائمهم العدوانيـــة ، وكان همهم الكبـير مهاجمة السواحل التونسية ، وتأسير سكانهـا مهما سنحت لهم الفرص بذلـك ، فنرى الامير زيادة الله ، بعد مدّة يســـيرة من استيلائه ، يجهـز جيشاً كثيفاً يحمله على مراكب اسطوله ويخرجه من سوسة الحديثة الانشآء ، فيقصد جزيرة (سردانية) _ وهي تابعة إذ ذاك للبيزنطيين _ فينزل الجيش بها ويغنم من الروم ما يغنم بعـد مشادة عنيفة ، ثم يعود مظفراً الى سوسة ، فيحسن الامير الى ابطالهم ويجازيهـــم ، وذلك في خلال سنة ٢٠٦ (٨٢١ م) (٢)

(٢) البيان المغرب ١ : ٨٩ - والكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢٠٤ طبع مصر ١٣٥٧ هـ

هو ذاك المعلم الشامخ البناء ، الرافع برأسه الى السماء ـ سماء العزّة والفخار ـ ما زالت تتوالى عليه الاحقاب والاحداث ، وهو هو كما وضعه مواليه الاغالبة الاشاوس ، مرّ عليه من العُمر احدى عشرة قرنا لم تزحزح أركانه الحروب والفتن ، ولم تؤثر في عرصاته غوائل الدهر والمحن ، فتبارك الله أحسن الخالقين !

في فجر المائة الثالثة للهجرة وجّه الامير زيادة الله عناية كاملة لإعادة الحصن الذي أقامه أبوه ابراهيم الاكبر في مكان الرباط الحالي ، فيأمر احد فتيانه بتوسيع نطاق الحصن الاول ويجعله على طابقين اسفل وأعلى ويقيم فيه ثلاثين غرفة لسكنى المرابطين ، علاوة على الحمّام والمرحاضات ، وينصب في الطابق العلوي مسجداً جامعاً للصلاة والخطبة ، ويبني المسجد على أقواس متماسكة العقود . وهو أول مسجد يبنى بسوسة ، أي قبل انشاء مسجد فتاتة وقبل الجامع الكبير الاتي ذكرهما . فمن يقطن سوسة وقتئذ كان يقصد الرباط لأدآء صلاة الجمعة والاعياد

وقد جعل زيادة الله في الطابق الاسفل ماجلاً فسيح الارجاء يجتمع فيه مآء المطر للشراب والغسيل ، وربما كان هذا الصهريج من وضع

الامير ابراهيم الاول حينما انشأ الحصن الاول ، لكن يستفاد من خبر أورده ابن ناجي[1] : « ان الماجل الكبير الذي بداخل القصر هو من بنآء أحمد بن الأغلب ـ حدود سنة ٢٤٥ هـ ـ حينما شرع في إقامة المحارس البحرية في سائر البلاد » فان صحّ هذا يكون الماجل الذي أُنشِيء في أيام ابراهيم الاول أو في زمان زيادة الله ، صغير الاتساع فأفسح الامير احمد دائرته على ما يشاهد الآن .

وأبدع بنية في الرباط هو ذلك المنار العالي الذي أمر زيادة الله برفعه وهو مستدير الشكل يقع في الركن القبلي من الطابق العلوي ويلاصق بيت الصلاة ، ويصعد الى اعلاه بمدرج من داخل بنآئه ، وهذا المرصد هو مفخرة من مفاخر الفن المعماري الاغلبي ، ولا شك ان مهندسي الرباط اقتبسوا هندسته من منار رباط المنستير الذي أسسه (هرثمة بن أعين) والي افريقية في عام ١٨٠ (٧٩٦ م) يعني عشرين سنة تقريبا قبل إشادة منار قصر الرباط بسوسة .

وتجدر الملاحظة بان منار قصر سوسة يفوق جمالاً وبهجة منار المنستير لدقّة بنائه وخلوه من الدوائر البارزة التي يتمنطق بها المنار

---

(١) معالم الايمان ٢ : ٩٢

المقـلد ، وهذه الدوائر تنقص شيئا ما من روعتـه الفنية بخلاف ما هو مشاهد في منار سوسـة .

ومن حسن الحظ ان حفظ لنا الدهر اللوحة التذكارية التي تحمل تاريخ بناء هذا المرصد ، ونصّ كتابتها بالخط الكوفي الاغلبي المحفور :

« بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به الامير زيادة الله بن ابراهيم ، أطال الله بقاه،على يدي مسرور الخادم مولاه ، في سنـة ست ومأتين ، اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وانت خير المُنزلين . »

وسيأتي فيما بعـد زيادة تعريف بشخص (مسرور) وكان من مشاهير فتيـان زيادة الله الاول المقرّبين . وقد كلّفه سيده بالاشراف على بنـاء قصر الرباط ، وكان تولى قبـل ذلك النظر الاعلى لدار ضرب المسكوكات في القيروان ، واسمه مرسوم على بعض النقود التي ضربها مولاه ، وكنتُ أهديتُ الى متحف (أسد بن الفرات) بسوسة درهما فريداً من الفضّة يحمل اسمه واسم سيده ، قصداً مني ان يحفـظ التاريخ ذكراه في المَعْلم الذي بناه .

والملاحظ ان التاريخ المرسوم على اللوحة التذكارية ـ أي سنة ٢٠٦ ـ ليس هو ابتدآء البناء كما يفهم منه ، وانما هو تاريخ انتهائه ، وبموجب ذلك يجـوز لنا ان نقـول ان زيادة الله الاول شرع في تعمـير سوسة

واتخاذها مرسى حربياً كان قبل هذا الاوان باربع أو خمس سنوات أي بعد تَوَلِّيه الامارة بقليل ، ويـؤيد ذلك ما أسلفنا من خبر غزوته الى جزيرة سردانية سنة ٢٠٦ وقد خرج اسطوله وجيشه من مرفأ سوسة

وقد غلط مسيو (لازين) فيما كتب عن رباط سوسة [١] في نسبـة بنآء القصر الاول بمكان الرباط الحـالي الى الامير يزيد بن حاتم المهـلبي المتولي أمر افريقية ، من عـام ١٥٥ (٧٧١ م) الى سنـة ١٧٢ (٧٨٨ م) والواقع يخالف ذلك فالحقيقة التي لا مِرآء فيها ان ابراهيم مؤسس الاسرة الاغلبية هو الذي انشأ أول معقل عربي بسوسة ، ويخيّل لي ان عمله هذا ربما كان إشارة منه وإيعـازاً لبنيه من بعده بتمصير سوسة واتخاذها مرسى حربياً لقرب موقعها من القيروان .

كنت وضعت ـ في غير هذا ـ بحثاً مستقلاً عن الرباطات والحصون العربية في البلاد التونسية، بسطتُ القول فيه عن تلك المعاقل وأماكنها والباني لها ، ووصفتُ حياة المرابطين وأشغـالهم اليومية، وفي ذلك البحث قدّرت ان عدد المرابطين النازلين في رباط سوسة لا يتجاوز المـائة ، وأضيف هنا كلمة موجزة عن حيـاة ساكِني قصر الرباط ، فاقول انهم كانوا يتعاطون فنّ الفُروسيّة، ولهـم اعتنآء خـاص بتربية

1) Lézine - le Ribat de Sousse, p. 21 - Tunis

الخيل وترويضها استعـــداداً منهم للحرب ، فكانوا يجتمعون سَحَراً بقصر الرباط ، ثم يتفقدون من منـاره ساحل البحـر ، ثم يُقْبِلُون على التمرين باوضاع الحرب في ضحى كل صباح .

روى المالكي : « ان خلف بن محمد الشرفي اليَحْصُبي كان يخرج من سوسة هو وأبو جعفر احمـد بن سعدون الأُرْبُسي ، وابوبكـر بن أبي عقْبَة في جمـع غفير من الشباب ، فيقفون صفًّا واحداً كأنَّ العـدو بين أيديهم، ويُجْرُونَ خَيْلَهم في ذلك الموضع [1] ـ أي ساحل البحر بسوسة ـ ويعودون عند الظهر الى منازلهم أو الى الحصون القريبة الاخرى .

دار الصـنــاعة

لايخـامرني شكٌّ ان زيادة الله ، عندما أمـر بتشييد ـ أو تجـديد ـ قصر الرباط ، اهتـمّ في آن واحـد باحـداث دار صناعة لانشاء السُّفُن الحربية بسوسة ، وقد تقدّم خبر خروج أسطول منها محمّلاً بالجيوش لغـزو جزيرة (سردانيـة) ورجوعه اليها في عـام ٢٠٦ ، أي في عين السنة التي تمّ فيها بناء قصرالرباط ومناره ، فان دلّ هذا الخبرعلى شيء فانما يدلّ على ما ذهبتُ اليه من إنشاء دار الصناعة في نفس التاريخ الذي أمر فيه ببنآء الرباط .

(١) «رياض النفوس » للمالكي ج ٢ : ١٩١ (مخطوط)

ومن الغريب المؤسف ان يغفل أهـل الاخبار عن ذكر مَن أنشـأ دار الصناعة من الامراء ، وفي يقيـني ان صاحبنا زيادة الله الاول هـو الآمر باتخاذها حينما عزم على جعل سوسة مرفأ حربياً للقيروان عاصمة البـلاد .

اما المكان الذي تقع فيه (دار الصناعة) فهو بلاريب المكان الذي يحـلّه اليوم المرسى التجاري ، فقد قال البكري عند وصفه للمدينة [1] :

« وبها ـ أي سوسة ـ ثمـانية أبواب أحدها كبير جـدا ، شرقي دار تعرف (بدار الصناعة) منها تدخل المراكب وتخرج » . والباب المشار اليه هنـا هو (باب البحر) الذي أدركناه قبل تهديمه ، وبقي مكانه معروفاً من الجميـع .

ومن الطبيعي ان الامراء المتولين بعد زيادة الله بذلوا جهدهم لتوسيع دار الصناعة ببنآءات أخرى أكملوا بها ما كان ينقصها من المصالح والمنافع فامتدت هـذه الملحقات الى ناحية (برج خديجة) كما تثبته آثار المخازن الواسعة الموجودة انقاضها هنـاك ، وهي مستودعات كان يُخزن فيها مهمات الاسطول كالاخشاب الكبيرة المعدّة لصنع السفائن والصواري ،

(١) البكـري ص ٣٤

الجلوبة من جِبال خمير الآن ، ومن جبال كتامة (جبال القبائل) بناحية بجاية من بلاد الجزائر التابعة اذ ذاك للامارة الاغلبية ، وكذلك من جزيرة صقلية بعد فتح ناحية الغابات منها .

ومن حسن الصُّدَف أن نعثر أخيراً على وثيقة تاريخية هامة من ذلك العهد [1] تثبت اعتناء الامراء بقطع اخشاب الاشجار العظيمة من جهة (جرجنت ـ Girgente) بصقلية لاستعمالها في صنع المراكب الحربية في مدة الاغالبة ، وتنصّ الوثيقة على ان المكلّفين بقطع الاخشاب لهذا الغرض هم قدماء المحاربين الذين أقطعتهم الدولة الاغلبية أراضي تلك الناحية للفلح بها بشرط ان يمدّوا الاسطول الافريقي بما يلزم من الاخشاب المقطوعة .

ومستودعات الاسطول المشار اليها ـ وتنعت في الاصطلاح القديم (بخزائن البحر ـ Entrepôts maritimes) ـ كان يخزن بها ايضاً الحِبال والارسان من القنّب، وهو مما كان يزرع باحواز سوسة ويفتل بها ،

---

(١) انظر الفصل الذي نشرناه عن الخراج الافريقي في كتاب « تذكار الاستاذ بروفنسال »

H.H. Abdul-Wahab et F. Dachraoui, « Le Regime foncier en Sicile » dans « Etude dédiées à le mémoire de Lévi - Provençal - Paris 1962 .

وكذلك لفائف قماش الكتّان لقطع الشراعات والقلوع ، والكتّان مما كان تنبته التربة التونسية ، ثم يقصّر ـ أي يُبيّض ـ بسوسة ، والحديد الضروري لصنع أدوات السفائن كان يستخرج من معادن (مَرْمَاجنة) الواقعة بالجهة الغربية من القطر التونسي ويجلب الى سوسة وغيرها ، الى غير ذلك من الادوات اللازمة لتجهيز مراكب الاسطول الحربي .

والذي تحققته ان عدد سفائنه في عنفوان الدولة قد بلغ الى مايقرب من ثلاثمائة قطعة كبيرة ، لكل قطعة مهمّة خاصّة ووظيفة محدودة في وقت المقابلات الحربية .

وبفضل هذه المعدّات الضخمة، والانجازات الجبّارة أتيح لبني الاغلب ان يكون لهم أقوى اسطول حربي في البحر المتوسط لدرجة انه طالما تفوّق على الاساطيل البيزنطية ذات الشهرة الذائعة في القديم ، وقدقمعها واخضد شوكتها غير ما مرّة .

وبواسطة هذا الاسطول العتيد تسنّى للاغالبة ان يفرضوا سلطانهم القاهر على جملة من جزائر البحر وفي مقدّمتها (صقلية) و (مالطة) و (قوْصرة ـ Pantellaria) كما استولوا على جانب كبير من جنوبي ايطاليا مثل مقاطعة (قلورية ـ les Calabres) وارض (أكمبرده ـ les Pouilles) وغيرها .

واني على يقين تام انه لو كتب لدولتهم البقاء لفتحوا القسم الاوفر من ضفّة البحر المتوسط المواجهة للبلاد التونسية،لكن :« تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ! »

ومن المعروف في كل (دار صناعة) ان تقام بها أحواض مقدّرة الاتساع والبناء ، معدّة لتزليق السفائن بعد الانتهاء من اعدادها لخوض عباب المالح ، وهكذا كان الامر في مرسى سوسة الاغلبية . ولا ننس ان آلات السلاح الحربي كالمنجنيقات (Mangonneaux) والدّبابات ، ورؤس الاكباش لهدم الاسوار والابراج ، وكذا الرماح المرنة ، والاقواس ، والسِهام كل ذلك كان يُصنع في نفس المكان ويدّخر في المخازن المذكورة ثم يقع توزيعه على المقاتلين والنوّاتية حين يُعزم على شنّ الغزوات .

وهؤلاء النّواتية والبحريون كانوا يعرفون فى زمن الاغالبة باسم (الاسطوليين) أي العَمَلة في المراكب الحربية، وفي اعتقادي ان هذه المخازن والمستودعات كانت فسيحة الارجاء متسعة الفضاء ليحفظ فيها كل ما سبق ذكره ولكل منها خزنة حافظون ، يفعلون ما يؤمرون .

وأراني أطلت الحديث عن دار الصناعة وعن الاسطول الاغلبي ، ولي العذر في ذلك اذ اني اعتبر العصر المتكلّم عنه أخصب عصور الدولة

العربية في إفريقية ، عصر يعتزّ به ـ ايما اعتزاز ـ تاريخ هذه البلاد ، والعزّة لله جميعا !

الجامع الكبير

لم يمض على تأسيس قصر الرباط أكثر من ثلاثين سنة حتى تكاثرت المنشآت بسوسة ، وقد اتسعت رقعة المدينة بتزايد عدد سكانها من المرابطين ومن الجنود الحربيين والاسطوليين ، فضاقت حينئذ عمن يقطنها ، وتوفّرت ضرورياتهم وتنوعت ، وكان في السكان اذ ذاك ورعٌ وديانة وقوة إيمان ، فعمد الامير أبو العباس محمد بن الاغلب ـ نظراً لتلك الحال ـ الى إنشاء مسجد كبير يكون جامعاً للخطبة ، توسعة للقاطنين الذين كانوا مضطرّين لاداء الصلاة اما بمسجد قصر الرباط او بمسجد (فَتَاتة) على قلة اتساعها. فكلّف الامير تابعه (مُدَام) بمباشرة بناء جامع كبير ، وأراده متوسط الموقع بين قصر الرباط ومدخل دار الصناعة ، وشُرع في العمل فى خلال سنة ٢٣٦ (٨٥٠م) ، وتمّ انجاز الجامع بعد سنة أو نحوها ، أي في عام ٢٣٧ هـ .

ولم تكن العادة المتّبعة حينئذ في المساجد. صغيرة كانت أو كبيرة ـ أن يتّخذ بها مأذنة (صومعة) ، تقليداً لما كان عليه المسجد النبوي

بمدينة الرسول ، بل ان الاذان بالصلاة كان يُقام من أعلى سطح المسجد، ويفيدنا المالكي ان :«في أعلى سطح جامع سوسة توجد قُبّة يؤذن منها، وكانت تشرف على البحر [١] » وهي التي يُصعَد اليها الآن بمدرج من الصحن في الجهة الشمالية الشرقية منه . ولم يشذّ عن هذه القاعدة في العصر الاغلبي سوا جامع عقبة بالقيروان الذي حلّاه زيادة الله الاول بتلك الصومعة العجيبة ، بعد ان مضى ما يقرب من مائة وستين عاماً على تاسيسه الاول ؛ وهكذا كان الشان في جامع الزيتونة بتونس ، وهو اغلبي أيضاً .

وقد أقيمت بيت الصلاة بجامع سوسة على عَرصات لاَ على أعمدة (سواري) ، وهي تحمل العقود (الاقواس) ، ورُسم خارج البيت صحنٌ فسيح ، زخرفت أعلى جدرانه الاربع بكتابة كوفية أغلبية ذات قوة ومتانة وجمال .

اما المأذنة الموجودة الآن في جامع سوسة فهي من المحدثات المتاخرة في الزمان ، ويظهر ان الجامع الكبير الذي وضعه الامير أبو العباس قد ضاق بعد حين على المصلين ، فتقدّم بعض صلحاء المرابطين - وهو أبو الاحوص احمد بن عبد الله - برغبة الى الامير ابراهيم الثاني ان يعتني

(١) رياض النفوس ١ : ٣٩٢

بتوسيعه ، فقبل الامير ما أشير به عليه . قال المالكي : « فزاد في الجامع الثلاثة السقوف العالية التي تلي القُبّة » [١] وحلّاه بقبّة جميلة ثانية. ويلاحظ ان هذه الزيادة الاخيرة التي تمّت في حدود سنة ٢٧٠ (٨٨١ م) لم تخرج عن الهندسة الاولى .

وفي بعض أركان الجامع كان يوجد بيت مخصوص يجلس فيه القاضي وترفع الخصومات لديه هناك، مثلما كان يشاهد بجامع عقبة بالقيروان

ولا يفوتنا ان أجلآء من العلمآء الاقدمين تداولوا التدريس بالجامع الكبير ، منهم : يحي بن عمر الكناني ، وكبير المالكية في عصره الشيخ عبد الله بن ابي زيد القيرواني [٢] وسواهما كثير .

وروى أبو الحسن اللواتي المتعبّد، قال : « كان يحي بن عمر عندنا بسوسة يُسمِع الناس في المسجد الجامع فيمتلي المسجد وما حوله، فسألوه الانتقال منه لما هو أوسع ، فلم يفعل [٣] »

(١) المصدر نفسه

(٢) من أثمن ما وضعت في متحف (أسد بن الفرات) برباط سوسة: ورقة من الرق منسوخة بخط الشيخ عبد الله بن ابي زيد، من تأليفه (النوار والزيادات على المدونة) مكتوبة بخط يده في مدينة سوسة - حين اقامته بها - سنة ٣٨٣ هـ أي بثلاث سنين قبل وفاته

(٣) رياض النفوس ١ : ٣٩٢

وقال ابو بكر الزويْلي : « كان يحي بن عمر يجلس في الجامع ويجلس القارىء على كُرسي ليسمع من بَعُدَ من الناس لكثرة من يحضر مجالسه، وما علمت انه عُمِل ذلك لغيره » ... ثم زاد « وكان يحي من الوقار والسكينة ما يجب لمثله [1] »

ولم يزل هذا الجامع المبارك على شكله وطرازه الاغلبي بالرغم من التغييرات التي أُدخلت عليه ، ولا سيما من التصديع الحاصل له من القذف الجوي في الحرب العالمية الاخيرة ، ومن جملة الاضرار المؤسفة التي لحقته : سقوط جانب مهمّ من الكتابة التذكارية المرسومة على جدران الصحن ، وقد سعيت مجتهداً منذ سنوات لاعادة ما انثلم من حروف الكتابة ، لكن الظروف حالت دون مسعاي، وبقي ذلك النقص المشين باقياً الى يوم الناس هذا

ويا حبّذا لو ان بلدية سوسة الموقرة تلتفت الى تدارك الامر فتعيد ما انخرم من الكتابة الى اصله مع التحري في العمل، وحينئذ تكون قد خدمت التاريخ والفن الوطني معاً خدمة جليلة ، وليس الامر على مقدرتها بعزيز .

ويناسب ان نختم الكلام عن الجامع الكبير بما قاله في شأنه الرحّال

(١) المصدر نفسه و « المدارك » لعياض

التونسي عبد الله التجاني حينما زار سوسة في غضون عام ٧٠٦(١٣٠٦م)

« وبسوسة جامع للخطبة حسن ، كان بناؤه في ولاية أبي العباس محمد بن الاغلب سنة ٢٣٦ على يد خادمه (مُدام)، وبصحن جامعها المذكور بيت قد كُتب فيه بخط قديم نقشاً في الحَجَر « القرآن كلام الله ليس بمخلوق » وكتب مثل ذلك أيضاً في عُمَد الجامع ، وذلك كلّه تنبيه على مذهب أهل السُّنّة،وتثبيت له، بسبب كثرة ما كان بها وبجميع بلاد افريقية في القديم من المذاهب المنحرفة عن المذهب السنّي، ثم ما كان بها منها في زمان مُلك الروافض لها [أي من الملوك الفاطميين] ثم في زمن تغلب الخوارج عليها [1].

وما أشار اليه رحّالتنا من الكتابة لم يزل مرسوماً على بعض أعمدة بيت الصلاة وما عدا ذلك فلا وجود له ، ويخيّل لي انه وقع اشتباه للتجاني لأن مسألة خلق القرآن – وهي من آراء المعتزلة – انما ظهرت في مدة الدولة الاغلبية حتى ان يحي بن عمر فرّ من سوسة واختفى من جرائها بمدينة تونس ، ثم تعطّل تتبّع العلماء ممن لا يقول بخلق القرآن في أواسط القرن الثالث، وعاد يحي الى سكنى سوسة ولم يفارقها بعد[2]

(١) رحلة التجاني ط تونس ١٩٥٨ ص ٢٦

(٢) راجع طبقات الخشني ص ١٣٥

القصبـــة

فى أعلى ركن من المدينة ـ ما بين الجنوب والغرب ـ ترتفع (القَصَبَة) المعقـل الكبير للبـلد، والغاية الاولى من تأسـيسه أن تجتمع فيه الجنود والاسطوليون

ووضعت هذه البناية على هيئة مدينة صغـــيرة ذات أقسام متّسعة وأجنحة فسيحة متّصلة ببعضها أو منفصلة،ويحيط بالجميع جدار متين يلتحق بالسور الخارجي

والمعروف ان تأسيسها كان بـأمر من خامس أمرآء الاغالبة : أبي العباس محمد ، وقد أقيم في أعلى مكان منها ذلك المنار المربّع ، الحارس الساهر على حراسة البلد وأمنه، وهو المنسوب الى الفتى (خَلَف) أحد تُبّاع الامير وصاحب أشغـاله العمرانية ، ويشاهـد منظره من مسافـة بعيدة جداً .فيظهر كالعروس المتجليّة على المدينة واحوازها،وبطلعته يهتدي المسافرون الوافدون ، وكذا صغـار الصيادين في زوارقهم التي لا تبعد عن شاطىء البحر إلاّ قليلا .

وكان المنار يحمل في اعلاه ناظوراً (Fanal) يوقد من أول الليـل الى الفجر ، ليكون هَدَفاً مقصوداً للمسافرين ، وقد عوّض في الزمـان المتاخر بناظور كهربائي يدور دواماً على سائر الجهات لهداية البواخر والسفائن .

ويخيّل لي ان التاريخ المعين لبناء القَصبة والمنار ـ وهو عـام ٢٣٠ (٨٤٤ م) انما هو تاريخ الانتهآء من تشييد المنار ، وليس هو التـاريخ الاول لتاسيس القصبة ، بل الظـاهر ان الامير أبا عِقَـال الاغلب ـ والد أبي العباس محمد ـ كان شرع مدة حياته في وضع أركان القصبة على يدي مملوكه (فَتَاتَة) حينما كلّفه باقامة الجانب القبلي من السور وقد أوصله الى جدار القصبة ، فلما تولى ابنه ابو العباس محمد أتمّ بناء القصبة وزاد فيها المنار المنسوب الى فتاه (خَلَف) كما تقدم

ولا يخفى ان كل هذه الانشآءات غفل الاخباريون عن بيان تفصيلها حسب ترتيب السنين ، كما أهملوا وصف ما احتوت عليه من الاقسام ، وربما يعثر يوماً مَا عن مصنفات أو تقاييد تونسية قديمة ترشدنا بتحقيق الى ما نرغب فيه من البيانات التي نحن في حاجة اكيدة للوقوف عليها، حتى يتيسر لنا معرفة المعالم الجليلة لبلادنا ونسبتها الى من أمر باقامتها، وبذلك يتسنى لنا الإشادة بالامراء الصالحين الذين ساهموا في تعمير القطر التونسي وسعوا في تمدينه

ولنعد الى أخبار القصبة وما اشتملت عليه ، فإنّا نحسب ان الدار التى فيها الآن متحف الآثار الكلاسيكية، ذات الغُرَف والصحن الجميل انما كانت معدّة ـ حين وضعها ـ لسكنى بعض رؤسآء الجنود والموظفين

المكلّفين بالاشراف على المصالح الادارية ، نقول هـذا على سبيل التخمين لا على اليقين ، إذ ليس لدينا ما يُثبت ذلك أو ما ينفيه .

وكان للقصبة أبواب مصفّحة بالحديد السميك ، تحصيناً لهـا من كل مهاجم،وكذا كانت جميع أبواب الاسوار والمعـاقل وحصون الرباطات المحدَثة أيام الاغالبة .

ومن الأسف المؤلم أن جلّ البناآت التي كانت تعمّر داخل القصبة قد أتى عليها الاستعمـــار الاجنبي فغير رسومها الاولية ، وتناولتها معاوله بالتهديم ، فاصبحت أثراً بعد عـين ، ولولا ذلك التخريب لكنّا نجد فيها عمائر أغلبية على هيئتها الاصلية، مما يزيدنا معرفة بالفن المعماري لذلك الزمان .

وعلينا الآن ان نحتفظ بقـدر الاستطاعة على مـا بقي قـائما منهـا ، للدلالة على ما تصبو اليه نفوسنا من إحيآء مآثر الاجداد ، ودراستهـا بما تستحق من العناية ، وعلى الله قصد السبيل .

تمصــير المــدائن

اذا تأملنا من رسم سوسة في الخريطة نلاحظ ان أسوارها تمثّـلُ مربعاً مستطيلا يحيـط بالمدينة من كل جهاتهـا ، وهذا الشكل عينه نراه أيضا

في سور مدينة سفاقس القـائم الذات ، وكلتا المدينتين أغلبيتي التأسيس والتعمير ، وليس من شكّ ان الاسوار الـتي تحيط بالقيروان في العصر الاغلبي كانت على هذا الوضع نفسه ، غير أن القيروان تغيّر رسمها بعد الزحفة الهلالية (سنة ٤٥٠) حيث اختصرت دائرتها وأعيد بنآء سورها في غـير مكانه الاول ، بخـلاف الامر في سوسة وسفاقس ، فقـد بقيت على حالهما الاصلي

ومن الخصائص التي توجب الفات النظر في هذا النظـــام هو ان المدائن الاغلبيـة الاربعـــة ، أي : القـيروان ، وتونس ، وسوسة ، وسفاقـس ، كان يشق داخلهـا طريقـان رئيسيان متقـاطعـان ، يتّجه أحدهما طولاً والاخر عرضاً ، وعنهما تتفرّع الشوارع الثانوية والازقّة التي توصل بين أطراف الارباض والحارات،وما زال هذا الوضع يشاهد في مدينة تونس ، ففيهـا طريق يصعد من باب البحر حيث السـور ، ويشق المدينة طولاً ماراً على السوق الطويـلة ، فسوق النحاس الى ان يبلغ (القَصَبَة) وهي آخر البـلد . والطريق الثـاني القاطع لهـا عرضاً يصدر من باب الجزيرة، سالكا نهج الصّباغين،فسوق البلاط ، وينعرج قليلا عند جامع الزيتونـة ـ صُرّة البـــلد ـ ويقطع سوق العطارين فسوق البلْغَة ، فنهج الباشا الى ان ينتهي الى باب السويْقة حيث يلتقى بسور البلد القديم

ولاإخال مدينة سوسة الاوضعت على هذا النمط لما أحيط بها السور في أول منشأها ، لكن التحويرات التي أُدخلت عليها على مرّ الزمان قلبت أصل رسمها الداخلي وغيّرت بعض وضعه ، وعلى كل حال فقد بقي أحد الطريقين الرئيسيين ، وهو الذي يبتدىء من الباب المعروف الآن (بالباب الجديد) شرقي البلد العربي ، فهو يقطع المدينة في كامل عرضها .

ثم ان النظام الذي اتبعته الدولةالاغلبيةفي سياسة التعمير اقتضى ان الأحيآء الآهلة بالعواصم التي أنشاتها أوجدّدت تمصيرهاتجهّزها بقنوات كبيرة لجريان المياه الوسخة والقذُرات المنزلية وتصريفهاخارج المدينة، أو الى البحر ان كان قريبا ، وهذه القنوات هي التي تعرف اليوم باسم (الخنادق) كل ذلك خوفاً من التعفن ، وتسرّب الامراض الوبائية الى السكان ، وما زالت بقايا تلك القنوات ظاهرة تشاهد في بعض شوارع القيروان وسوسة ، وفي كُتُب التراجم القديمة تجد التنصيص المتكرر على وجودها .

يتّضح مما تقدم ان الدولة الاغلبية كان لها نظام عمراني اتخذته قاعدة أساسية في تعمير المدائن التي أحدثتها في البلاد ، وربما اقتبس الاغالبة هذا الترتيب من الاصول التي اتبعها العرب في وضع المدائن التي

انشأوها بالمشرق مثل : الكوفة ، والبصرة ، وواسط، وبغداد في العراق ، ومدينة الفسطاط في مصر .

العظمة في البساطة

ويحق لنا ان نصرح بان المعالم الاغلبية – على وفرتها بسوسة – لم تكتس بصبغة الزخرف في البنآء كما يشاهد في غيرها من المدائن ، ذلك أن سوسة كانت تعتبر المعقل الحصين لبني الاغلب ، فهي تمثّل قوّتهم العتيدة في الغزوات والحرب لا في تنميق البنآء وزركشته، ولهذا السبب نرى قصر رباطها وجامعها الكبير لم تُرفع أقواسهما على أعمدة الرخام (السواري) على كثرة ما كان يوجد منها فيجميع آثار الناحية، وانما أُقيمت عقودها على عرصات من الحجارة المحكمة القوية، بخلاف ما يرى في جامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس .

وليس من شك عندي ان طريقة البناء المتّبعة في سائر عمارات سوسة كانت عن قصد من الامرآء الاغالبة وبارادة منهم لا ظهار متانة منشآت الدولة ، واثبات صولْتها ، والاشادة بعظمتها الحربية وقوتها البحرية .

سور البلد

يقول البكري : « وسور سوسة صخر منيع،حصين متين البنآء، يضْربُ فيه البحر ،... ويُدْخَل الى دورها من فنَى من الجهة الشرقية» ثم يقول:« وبنيان سوسة كلّها بالصخر المحكم[1]»

والمعروف من قديم أن سور سوسة يحيط بها من سائر نواحيها ، وهو بلا ريب من عمل زيادة الله الاول ، كان أنشأه ما بين سنتي ٢٠١ و٢٠٢هـ أي في آن واحد مع قصر الرباط ودار الصناعة ، ويثبت ذلك ما نقله البكري إذ يقول : «وكان زيادة الله بنى سورها[2]». ومن اول وضعه كان يعلو جدرانه شُرفات مستديرة القِمّة متتابعة الواحدة تلو الاخرى من أوله الى منتهاه ، كما يُرى الى الآن ، وفي أركان السور عدة أبراج مُربّعة هي مأوى متقدِّم للعِسَس ، وقد رُسم بداخله من اعلاه طريق تسايره على كامل امتداده ، محصورة بسِتَارة خفيفة من الناحية الداخلية المشرِفة على دور البلد ، وهذه الطريق أعدّت لمشي عساكر الحراسة على السور بقصد مراقبة مَن يخرج من المدينة ومن يفد عليها

(١) المسالك للبكري ص ٣٤

(٢) الكتاب المذكور ص ٣٥

وتعرف باسم (دائرة العَسّة) .ومن عادة هؤلآء العِسَس من قديم الزمان انهم كانوا يرفعون أصواتهم وقت المطاف ليلاً بالتكبير لله والتهليل ، كأنهم ينبّهون العدو بان العيون ساهرة ترُصد المهاجم . ويذكّرني قيام العِسس بالليل على أسوار بما كان يتمثّل به سحنون :

كل شــيء قد أراه نُكراً ... غير ركز الرُّمح في ظلّ الفَرَس
وقيام في حَنَادِيس الدُّجــي ... حَارِساً للقوم في أقصى الحَرَس

ولّما تولى الامارة احمد بن الاغلب . وهو ذلك البَنّاء الكبير . أقبل على تعمير البلاد بالمحارس والحصون ، ومن جملة اعماله انه : « جدّد سور سوسة والحقها بالمدن » كما يقول التجاني[1] ، ويزيد ذلك شرحاً فيقول : « وكان تجديده لسورها سنة سبع واربعين ومائتين » وهذا وهمٌ ، لأنَّ التجديد وقع في سنة ٢٤٥ (٨٥٩م) على يدي (فتاتة) تابع الامير احمد كما هو مكتوب بالحرف الغليظ البارز على الجهة القبلية من السور

الابواب

ويعرّفنا البكري أيضاً : « ان لسوسة ثمانية أبواب ، أحدها كبيره

(١) رحلة التجاني ص ٣٦

جدا ، شرقي دار الصناعة ، ولها بابان غربيان يقـابلان الملعب ... والخروج من سوسة الى القيروان على الباب القبلي المعروف بباب القيروان »

وإذا ما أردنا تفسير هذه الجملة وتطبيقها على الحاضر ، نجد : ان الباب الكبير جداً هو لا محالة ما يسمّى (باب البحر) وكان يخرج منه الى دار الصناعة الكائنة قبالته كما أسلفنا الكلام عنها . والبابان الغربيان الموجودان في السور الممتدّ من القصبة، ومازال أحدهما يعرف (بالباب الغربي) والآخر غير معروف المكان عندي ، وعلى كل حال فهو غير الباب المشهور الآن (بباب المشنقـة) ويقال له ايضا (باب الفينقـة) وهو حديث البناء

وفيما اعتقد ان الباب المسمّى اليوم (بالجبلي) كان يُنعت من قـديم بهذا التعريف . واما الباب القبلي (باب القيروان فيما مضى) هو الذي كان يخرج منه الى تلك المدينة وهو الكائن قريباً من القصبة ، كان يتّجه منه المسافر فيسلك على قرية (المُـردين) ومنها الى (الكنائس) الى ان يصل الى القيروان ، أمّ القُرى التونسية .

الدِمْنَـة

ومن معالم سوسة الاغلبية التي تهدّمت وتـلاشت (دار الدِمْنَة) ، والدمنة فى الاصطـلاح التونسى القديم هو ما ننعته اليوم بالمستـشفى ،

وهي دار معدّة لإيوآء المصابـين بالامـراض المعضلة الـتي يطول أمر علاجها أو الـتي يخشى منهـا سريان العدوى الى الاصحـاء كالجُـذام « La Lépre » وغيره . وقد أُطلق اسم (الدِمنة) قديماً على المرستانات التي أسسها بنو الاغلب في المدائن التونسية الكبرى كالقيروان، وتونس وسوسة ، وسفاقس ، تقليـداً لإول مستـشفى أقيم بالقيروان في مكان يُعرف (بالدمنة) في حارة المرضى ، خـارج سور المدينـة في جهة ضريـح السيد الصاحب الآن فيما يظهر .

ودمنـة سوسة كانت على غِرار مرستـان القيروان وعلى نظامـه وترتيبه . وها اليك ما كنتُ كتبته في وصف (دمنة القيروان) [١]

« كانت الدمنة بناية في شكل مربع الاضلاع أو مربع مستطيل ، يدخل اليهـا من باب واحد كبـير ، يفتح على سقيفة طويلة معقود سقفها على قوس (أزج) مرتفـع ، ويحف بجانبي السقيفة غرفتـان صغيرتان يسكنهما حارس ـ أو حرّاس ـ الدمنة ، وعلى طول السقيفة يميناً وشمالا مصطبتان قصيرتان ملتصقتان بالجدار الاصلي يجلس عليهما

---

(١) نشر هذا البحث بعنـوان : « الطب العربي في افريقيـةالتونسية » في القسم الاول من كتابنا « ورقات » طبع تونس سنة ١٩٦٥ ص ٢٧٣ ـ ولهذا البحث صلة نـأتى بها ضمن هذا الجزء ـ ان شاء الله ـ

العُوَّاد عند زيارتهم للمرضى،وفي آخر السقيفـة باب ثانٍ أصغر من باب المفتح يُفضي الى صحن متسع غير مسقف ، ويحيط بجـوانب الصحن ثلاثة أو أربعة أروِقَة ـ مجنّبـات ـ معقودة السقوف ، ومن ورائهـا عدة حُجرات صغيرة بسيطة معدة لإقامة المرضى ، وفي وسط الرِواق المواجه للمدخـل مكان مسجد صغير لإقـامة الصلوات من القـاطنين بالدمنـــة .

« ومن جهة أحدى الاروقة يوجد باب مستقل يدخل منه الى دار فسيحة تحتوي على حُجُرات لانـدري عددهـا ، تشبـه لا محالة الغرف المتقدم ذكرها، وهذه الدار الثانية كانت تعرف (بدار الجُذَماء) لا يقيم بها إلّا من كان مصاباً بدآء الجُذَام . [١]

«وفي تقديرنا ان عدد الغُرف المخصّصة للمرضى بدمنة القيروان كان لايتجاوز الثلاثين غرفـة ، يشغل كل واحدة منهـا المريض والمريضان واكثر ، وفي تقديرنا ايضـاً ان مساحة كل غرفة كانت ستة أذرع طولا في أربعة عرضاً أو ما يقرب من ذلك .

« يضاف الى ما تقدّم ان الدمنـــة كان يُشرِف على سيْرها حَفَظَةٌ قيّمون مُهمـتهم السهر على النظام وعلى المقيمـين بها ، ومراقبـة من

(١) معالم الايمان ٢ : ٢٣٥

يزورها من أهل الخارج ، كما نعلم ان نسآء زنجيات كنّ يخدمن المرضى ويقمن بشؤونهم في الغُرف وخارجها [١] » الى آخر ما في هـذا الفصل من البيانات والتفاصيل ، فلـتراجع هناك . ولنعد الى (دِمنة) سوسة وهي المقصودة بالذات هنا .

فيستفاد من خبر أورده المالكي [٢] ان هذه الدمنة كانت تقع قرب (سوق الحنّاطين) ، ولسنا نـدري أين كان مكانه . والمظنـون ان الامير ابا ابراهيم احمد هو الذي انشأها بسوسة عـلى نمط ما كان موجودا بالقيروان ، الاّ ان هذه كانت أقـلّ اتساعاً من أختهـا ، نظـراً لصغر سوسة وقتئذ بالنسبة الى عاصمة أفريقية وكثرة قاطنيها .

ويتّضح من النصوص التاريخيـة ان الامرآء كانت لهم عناية كامـلة بشؤونها ويخصّونها بالزيارة عند مايأتون لتفقّـد مرفاهم الحربي الكبير ، ويوزعون على مرضـاها العطـايا بـين الفينـة والاخرى ، ويمنحونهـم تبرعات من المـال والملابـس والاطعمة ، فهـذا ابراهيم الثـاني بن احمد المتقدم كان لا يتخلىّ عن زيارتها كلما قدم سوسة ، ويسأل مرضاها عن حالهم ، ويصِلُهم بالعطايا المناسبة ،

(١) « رياض النفوس » للمالكي ج ٢ ص ٦٧

(٢) رياض النفوس ١ : ١٣٢ — ومعالم الايمان ٢ : ١٦٩

وقد توصلنا الى معرفة عدد المجذومين بدمنة سوسة وكانوا خمسة عشر مجذوماً في احدى زورات ابراهيم الثاني للدار ، هذا عدا المرضى غير المجذومين ،

ولا ننسى ان أهل الخير والفضل من السكّان كانوا يهتمّون بحال نزلاء الدمنة حتى ان الرجل الصالح : محمد بن حميد المتعبد السوسي ـ وهو من اصحاب سحنون ـ كان يسكن دمنة سوسة ، ويخدم الاضرآء حتى صار ضريراً مثلهم ، اي انه أُبتليَ هو ايضا بالجذام بطريق العدوى ومات منه في سنة ٢٩٣ (٩٠٦) (١)

ومن المحتمل ان هذه (الدمنة) كانت تقع في المحل الذي شغله فيما بعد (المرستان القديم) الذي أعدّ لعموم المرضى في أيام الدولة الحفصية، ثم خصّص في المدة التركية والحسينية للمجانين والمصابين بالامراض العقلية، ومكان هذا المرستان مازال معروفا في حيّ (بين القهاوي)

سكّان المدينة

أسلفنا ان سوسة كانت عند الفتح العربي قرية صغيرة ربما لا يتجاوز عدد قاطنيها بعض المئات من النفوس، وهكذا كان حالها لما عزم الامراء

(٢) رياض النفوس ٢ : ١٣

من بني الاغلب على إعادة تمصيرها وتجهيزها لأن تكون مرساهم الحربي، فانشأوا بها البنآءات الصالحة المطابقة للغرض المطلوب حسبما بيّناه ، وقد استوطنها من ذلك الحين عدد وافر من عملة البنآء المجلوبين اليها ، ومن العساكر البحريين المعروفين بالاسطوليين ، ومن الاعوان المرتّبين بدار الصناعة وبالسفائن الحربية ، ومن الحَرَس الاغلبي المكلف بالعِسس في المعاقل الساحلية وفي ابراج الاسوار ، هذا علاوة على العبّاد المتطوّعين بالمرابطة فى الحصون المخصّصة لسكناهم، ويضاف الى ذلك ان عدداً لايستهان به من الرجال من غير ابنآء البلاد قصدوا سوسة واستقرّوا بها ، قادمين من اطراف العالم الاسلامي ؛ فمنهم من جآء من بَصْرة العراق ـ كابن بسطام ـ ومن مصر ومن المغربَيْن الاوسط ـ كسهل القبرياني ـ والاقصى ـ كابي الاحوص ـ ومن الاندلس ـ كيحي بن عمر وأهل بيته ، وحتى من السودان الغربي ، وقد حملهم على الاقامة بها دون سواها الرغبة منهم في التطوع بالمرابطة في مدينة تعتبر من أعظم المعاقل الاسلامية التي أنشئت في قلب البحر المتوسط ، لاسيا وقد اشتملت دائرتها على محارس دفاعية لا تُعدّ كثرة آوى الى سكناها أفاضل من العبّاد والصالحين ، كانوا على اتصال وثيق بعضهم ببعض. ومن المستدرك الذي الحقناه في آخر هذا البحث لتراجم نخبة من نزلاء سوسة يتبيّن للقاري أصول القادمين عليها من الخارج

وحظهم الكبير في تعميرها وبثهم العلوم الدينية وآدابها في انحاء جهاتها

وغير خفي ان العالم الاسلامي في ذلك الزمان كان يمثّل وحدة ترابية متماسكة ، ينتقل أفرادها من ناحية الى أخرى ويقيمون أينما أرادوا بلا كلفة ولا حرج .

فهذا المجتمع المختلط من الناس حينما استقرّ نهائيا بسوسة تناسل وأعقب سلالة جديدة عدّت نفسها من ابناء المدينة الاصليين ، واشتغل هذا الجيل الجديد بمختلف الحِرَف والصناعات مثل الفلاحة من غراسة وزراعة ، واحترف بعضهم بنسج الاقمشة من مواد مختلفة والبعض الاخر تعاطى مِهَناً عادية ضرورية لحياة كل مدينة من مدائن العالم مثل نجارة الاخشاب ، والحِدادة ، وتهيئة الماكولات كالخبز واللحم وطحن الحبوب ، بالاضافة الى من كان يحترف منهم بتجهيز المراكب بقصد النقل والتجارة البحرية .

وهناك عُنصر آخر لم نتعرض اليه : وهم المسيحيون ممن كان يقطن سوسة قبل الفتح ـ وهم أقلّية ـ استمروا على السكُنى بها بعد أن عمرها الاغالبة ، بدليل انه كان يوجد بداخل المدينة شارع يعرف (بزقاق الروم) غير بعيد من الجامع الكبير ، والمقصود هنا بالروم : ابناء البيزنطيين وبقايا الرومان الذين لم يفارقوا البلاد واختاروا البقاء تحت ذمّة عرب افريقية، نذكر من بينهم العابد المرابط (أبا الغُصن

نفيس) كان أبوه نصرانياً واسلم وكان يرتزق من صنع الغرابيل في سوسة . وهؤلاء الروم الذميّون كانوا يتعاطون التجارة في الحبوب وفي الزيت والخمر مع بلاد الافرنج، اوأنهم يحترفون بصناعات يدوية تقليدية ورثوها عن أسلافهم .

وإذا ما ذكرنا المسيحيين النصارى في سوسة ، فلنقل انه كان يوجد بها أيضا وبسائر مُدُن الساحل وقُراه عدد من اليهود الاهليين، وهم يرجعون بأصولهم الى بعض القبائل البربرية المتهوّدة او الى الجالية الاسرائلية النازحة الى افريقية بعد خراب بيت المقدس في عهد الرومان ـ القرن الثاني من الميلاد ـ وسريعاً ما تعرّبوا بعد الفتح وامتزجوا بأهل البلاد ، وساهموا في التجارة والصناعة ، وربما اختصّوا بصياغة الحُلي، حتى انه كانت لهم بالقيروان سوق معيّنة تعرف (بسوق اليهود) وذلك في القرن الثاني للهجرة [١] ومن أفرادهم من كان يتقبّل مُكوس الاسواق وشتى المِهَن مثل العمل بافران الجير والجبس وتجفيف ماء البحر ليصير ملحاً وغير ذلك[٢]

ولا يخفى ان لفظ (القَبَالة) ـ وقد حرّفها الافرنج الى « Gabella »

---

(١) المالكي ١ : ١٣٩

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٣١

ينطبق على ما كان يستخلص من المكوس والضرائب المفروضة على أصناف المتاجر والصناعات ، فكان المتقبّل يدفع مبلغاً من المال متّفقاً عليه يُسبّقه جملة واحدة الى خزينة الحكومة ، ويتولىّ هو استخلاص تلك الضرائب من أرباب السلع والصناعة،فيحصل له من ذلك ارباح ؛ ونظام القبَالة يقابل ما كان معروفاً في تونس قبل هذا العصر باسم (اللّزْمَة: Fermage) ويُعرف المتقبّل باسم (اللزّام)

ويضاف الى ذلك ان اليهود التونسيين - في زمان الاغالبة وبعده - كانت لهم اتصالات واسعة باخوانهم في مصر والاندلس وفي بلاد الافرنج مما ساعد كثيراً على رواج محصولات البلاد ومقايضتها بغيرها .

وهذا بحث متسع يحتاج الى دراسة مستقلة ليس هذا محلها .

* * *

ويتّضح مما تقدّم انه لم يمض على تمصير سوسة العربية أكثر من نصف قرن حتى أصبحت في صف المدائن التونسية الكبرى، وفي عداد المشهور من المرافي البحرية والموانى التجارية في القسم الغربي من البحر المتوسط .

ودام ازدهار سوسة في نمو مستمر من زمن الاغالبة الى آخر عهد الامرآء الصنهاجيين من بني زيري ، غير أن مكانتها الحربية خاصة

تضآءلت في عصر الملوك الفاطميين بسبب إنشائهم لمدينة (المهدية)التي أحدثوها في أوائل القرن الرابع للهجرة وسكنوها في سنة ٣٠٨(٩٢٠م) وقد زودوها بدار صناعة عظيمة الشان زاحمت مثيلتها السوسية من الناحية الحربية لا غير .

ومن ذلك الحين تراجعت وظيفة سوسة كمرفأ للمراكب الحربية، لكنها بالرغم من ذلك حافظت شيئاً ما على مكانتها الصناعية ، واستمر سكّانها على التوسع في وسائل نقل الرُّكّاب والابحار ببضائع مدينتهم المتقدمة بالمنتوجات المحلية الى سائر سواحل البحر المواجهة لها من الضفّة الافرنجية، وكذا الى بلاد المشرق العربي وغربيّه بادخال الاندلس

وليس من السهل ان نحاول تحديد عدد القاطنين في سوسة في مدة الاغالبة، وغاية ما يقال انها كانت في المرتبة الثانية بالنسبة الى القيروان وتونس، وفيما عدا ذلك فانها كانت قطعيًّا أكثر سكانا وأغزر عمراناً من بقية المدائن الاخرى كسفاقس وقابس وقفصة وباجة . ولا أدل على ذلك من تفرّدها برئاسة الساحل الادارية من العصر الاغلبي الى يوم الناس هذا .

وكان والي المدينة من لدن الحكومة الاغلبية يُنعتُ (بصاحب

المدينة) ، ومن وظيفته الاشراف على المصالح الادارية العليا [1] بمثابة ما كان يقوم به (العامل أو الوالي) من العصور الموالية لذلك العهد.

* * *

اتفقت كلمة المؤرخين على ان أهل سوسة كانوا معروفين من قديم بعزة النفس وإبـاء الضيم ، ويؤيده ما حكاه عنهم التجـاني في الثـورة الشعواء التي قام بها (أبو يزيد مخلد بن كيداد البربري) في البلاد التونسية أوائل الدولة الفاطمية ، نأتي به اختصاراً . قال : [2]

« ولم تزل سوسة معروفة بالامتنـاع عمن رامها بالسوء ، وأهلهـا يوصفون بالبأس والنجدة،وحسبكَ من امتناعها ونجدتهم ان أبا يزيد لما تملّكها وفعل فيها ـ متطوعو البربر ـ الافاعيل الشنيعة من قتل الرجال ، وسبي النسآء ، وقطع الاعضاء ، وبقر البطون ، خالف أهل سوسة عليه وأغلقوا ابواب مدينتهم ، فرجع ابو يزيد اليهـا بنفسه ـ سنة ٣٣٣ (٩٤٥) وحاصرها حصاراً شديداً ، وكان ما اخـذه التحصيل من جند أبي يزيد مائة الف خصّ ، يسكن الخصّ الواحد الثـلاثة والاربعة فصاعداً ، فكان أبو يزيد يقاتل سوسة كل يوم فمرّة له ومرّة عليه الى ان

(١) المالكي ٢ : ٦٦

(٢) رحلة التجاني ص ٢٧

اضطرّ في آخر الامر الى رفع الحصار، ورحل عنها في جيشه الكثيف بغير طائل ، وفي ذلك يقول (احمد بن أفلح) من قدمآء شعرائها :

مدينَةُ سوسة بالغرب ثَغْرٌ ... تَدِينُ له المدائِنُ والثُّغورُ

لقد لُعِنَ الذين بَغَوْا عليها ... كما لُعِنَتْ قُرَيْضَةُ والنَّضيرُ

أتاها الخارجون ليملِكوها ... فكان من الإلَهِ لها نصيرُ

ولولا نصره لَدَهَتْ دواهٍ ... يشيبُ لهو لها الطِّفلُ الصغيرُ

سيبلُغُ ذكرُ سوسة كل أرضٍ ... ويَغشى أرْضَها الجَمُّ الغفيرُ

* * *

قصر الامـرآء

إذا ذكر في كتاب ما قصـور الاغالبة ينصرف الفكر بسرعة الى مدينة القيروان والاحواز القريبة منها ، والحقيقة ان هـؤلاء الامرآء اتخذوا منازل لهم في دائرة القـيروان وفي غيرها من المـدائن التونسية الكبرى مثل تونس وسوسة ، ولا سيا في هذه الاخـيرة إذ كانت من أخص مؤسساتهم،وبها انشأوا دار صناعتهم فصارت من يومئذ مرساهم الكبير ومعقل جيوشهم المرابطة لشنّ غزواتهم البحرية .

وإذا كانت سوسة بهذه المثابة لديهم فلا غرابة ان تتّجه عنايتهم الى وسائل تعميرها واسباب تحضيرها واتخاذ منازل لسكناهم بها حينا كان

الامرآء منهم يقيمون بها الاشهر المتوالية للوقوف بانفسهم على انشاء السفائن المتنوعة الوضع والشكل ، وللسهر أيضاً على تعبئة الاساطيل، وعلى حشد المقاتلين والاسطوليين ، وتهيئة المعدّات ، وتجهيز المراكب بالاسلحة والاقوات .

يفيدنا الاخباريون ان بني الاغلب كانوا يقصدون سوسة ويقيمون بها المدة الطويلة ، مثلما فعل زيادة الله الاول حينما غزا سردانية ـ سنة ٢٠٦ ـ ثم لما جهز الحملة على جزيرة صقلية ـ سنة ٢١٢ ـ وكذا فعل الامير احمد بن محمد لما سيّر اسطوله لفتح جزيرة (اقريطش ـ La Crête) ـ سنة ٢٤٤ (٨٥٨م) ، ومحمد الثاني لما امتلك بصفة نهائية (مالطة) و (قَوْصَرة : بنطلاريّة) سنة ٢٥٥ (٢٦٩) ثم ابراهيم الثاني عندما أعدّ حملته الجهادية الكبرى التي بلغت إمارات ايطاليا الجنوبية ، وكانت غايته امتلاك مدينة رومة لوما باغته الاجل المحتوم ـ سنة ٢٨٩ (٩٠٦)

وفي خبر ساقه المؤرخ القيرواني المشهور بالتُجيبي [1]: « ان الامير احمد بن الاغلب أمر ببناء (دار الملك) بسوسة » من جملة المعالم التي

(١) هو مؤلف كتاب « الافتخار » في تاريخ القيروان ، وعنه نقل هذا الخبر ابن الشباط التوزري في شرحه للقصيدة الشقراطسية ، مخطوط) وكذا ابن ناجي في « معالم الايمان » ج ٢ ص ٩٧

اقامها قبيل عام ٢٤٩ (٨٦٣) وهي سنة وفاته ، ومن ناحية اخرى يحدثنا المالكي « ان الامير ابراهيم الثاني لما كان يوماً في قصره بسوسة اظهر تابعوه وحشمه شيئاً من اللهو والعزف بآلات الطرب ، ولم تمض سويعات حتى تقدّم جماعة من مُرابطي البلد وصلحائه مطالبين بابطال تلك الملاهي المنافية لآداب اهل البلد المنقطعين للمرابطة في الحصون . قال المالكي [1] : « وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شيء من المنكر ، لا خمر ولا لهو ولا عزف، وانما كان اهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات [2] »

خرج هؤلاء المرابطون بعد ان اجتمعوا بالجامع ، وهم سبعون رجلاً ، فتوجّهوا الى قصر الامير ابراهيم ، فملؤا الفضاء الذي بين يدي القصر مع مَن تبعهم ، فوجدوا الامر الذي يكرهونه قائماً من اللهو والعَزف ،

فقيل لهم ما تريدون ؟ قالوا : ـ نريد الامير نجتمع به ـ فقيل لهم : ـ الامير في شغل، لن تصلوا اليه في يومكم ـ فقالوا : ـ عرّفوه إنا لا نبرح من هنا حتى نجتمع به ـ فدخل الحاجب الى الامير واعلمه ان

(١) رياض النفوس ١ : ٣٩٣

(٢) المصدر المذكور ١ : ٣٩٤

شيوخ سوسة كلّهم بالباب يطلبون الاجتماع بك ـ فقال له الامير : ـ أخرج اليهم فانظر ماطلبوه فنفّذه لهم ـ فخرج الحاجب اليهم وقال: ـ ان الامير أمر بتنفيذ ما تحبّوه ـ فقالوا : ـ انما جئنا الى هذه المدينة وسَكَنّاها لله خالصا، وأحدثت علينا هذه الامور من اللهو والعزف، فإما ان يقطع عنا هذا الامر وإلاّ نخرج عنه وأرض الله واسعة ! » فعاد الحاجب الى الامير وأخبره بحديثهم، فقال الامير : ـ أرجع اليهم وقُل لهم: لن تروا ما انكرتموه بعد هذا » فانصرفوا ـ وخرج الامير ابراهيم الى (قُبّة الرَّمل) فكان يخلو فيها بما يحبّ ، فاذا قضى وطره رجع ليلاً الى القصر . »

والذي يهمّنا من الخبر المتقدم انه كان للامرآء بسوسة قصر لنزولهم بعيالهم وحشمهم ورجال دولتهم ، وان هذا القصر كان داخل سور البلد غير بعيد عن دور السكان ، وكان يوجد أمامه (ميْدان) فسيح تجتمع فيه الخلائق وفيه يقع عرض العساكر البحريين، كما جرت عادة الدولة الاغلبية ان تجعل ميدانا متسعاً أمام قصور الامارة فى كل المدائن التي أحدثتها مثل « العباسية » و « رقّادة » وكذا بتونس .

ولا ندري عن قصر سوسة شيئاً آخر من ناحية شكل بنائه ولاعن محتوياته ، وعلى سبيل التخمين نقدّر ان مكانه كان فيما سُميَ بعد « بدريبة دار العمل » في أعالي المدينة، فقد توجد هناك الانقاض القديمة

تنبيء على ان القصر كان مقاماً على أطلالها، فوجب التنبيه عليه عسى ان يُعنى بعض هُواة الآثار بتحقيق مقره الدارس .

قُبّـــة الرمل

ونستخلص أيضاً من الخبر السالف ان (قُبّة الرّمل) المشار اليها كانت تقع على شاطىء البلد الممتد من شرقيها فى الحي المسمّى اليوم « أبو جعفر » مصطاف سوسة الجميل ، ويؤيد ما ذهبنا اليه الخبر الذي نقله المالكي في ترجمة ـ ابي جعفر الأُرْبُسي ـ احد كبار تلاميذ يحي بن عمر الكِناني .

يقول المالكي[1]: « وفى سنة ٣٢٣ (٩٣٥) توفي أبو جعفر احمد بن سعدون الأُربسي ودفن بسوسة عند (قُبّة الرَّمل) « ثم يحدثنا عن ابي جعفر القمودي العابد ويقول انه توفى سنة ٣٢٤ وانه دفن الى جنب ابي جعفر الأُربُسي المتقدم ، وكان من أخصّ أصدقائه .

وفي مكان آخر يزيدنا المالكي تفصيلا، فيقول[2]: ... « ومضى [فلان] الى قبور الشهدآء الذين عند قبّة (الرَّمل) .. »

(١) رياض النفوس ٢ : ٩٤ قفا

(٢) وص ٩٦ وجه (مخطوط)

فيتبيّن مما سبق ان (قبّة الرمل) كانت على ساحل البحر وكان حذوها مقبرة يُدفن فيها شهدآء المحاربين ، والمرابطون الصالحون كابي جعفر الاربسي وأبي جعفر القمودي وغيرهما كثير ، ولذا قلنا فيما تقدم ان المكان الذي كان يعرف بناحية (قبة الرمل) في القرن الثالث والرابع للهجرة هو ما يسمَّى الآن بشاطىء (ابوجعفر) نسبة الى ذلك الرجل الاربسي الصالح .

ولا نزاع ان مقصود الامرآء من بناء (قبَّة الرمل) هو الخروج اليها في شدة القيظ للاستراحة من هجير الصيف والتمتع مع آل بيتهم وحاشيتهم بالعوم فى البحر ، بعيدين عن انظار السكّان ، يدّل عليه انتقال ابراهيم الثاني الى تلك القبّة عند ما تضايق أهل البلد من غوغاء القصر في المدينة .

اما طراز هذه القبة وتاريخ بنائها فلم نقف عليه ، والظن الغالب ان الامير أبي العباس احمد هو الآمر بانشائها حينما أسس قصر الامارة بسوسة .

السُّفــــرة

من المصانع النافعة التي أنشأتها الدولة الاغلبية في سوسة : الخَزَّان العظيم الذي أعدّته لتموين المدينة بالمآء الصالح للشراب، وهو المعروف الآن باسم (السُّفْرَة) الكائن في وسط البلد،وكان قبل تأسيسه دواميس ضخمة مُقامة على أقواس يرجع عهد بنائها الى زمن الرومان فيما أظن، وكان اتخذها الامرآء الاغالبة - فى أول عنايتهم بسوسة - سجناً للثوّار والمجرمين من أهل الجهة .

يفيدنا المؤرخون ان الامير ابراهيم الثاني،في احدى زياراته للمدينة لتفقد أشغال البنآء واكمال الزيادات التي عزم عليها لتوسيع المرسى ، تقدّم اليه أحد كبار المرابطين ، وهو : (أبو الاحوص احمد بن عبد الله) وكان الامير يجلّهويعظّم قدره ويخصه بزياراته ، لما اشتهر به هذا الرجل الصالح من الديانة الصادقة والامانة والانقطاع للمرابطة ، فخاطب أبو الاحوص الاميرَ بهذه الكلمات :

- « قد علمتَ ان البلدَ [اي سوسة] قد عُمِّر الآن ، وهو ثَغرٌ للمسلمين على الدوام ، فإلَيْهِ مقصدُهم وقت الشدّة،وهو رباطهم الحامي حماهم ، والقَرَوِيون - أي أهل القُرى - يقصدونه في كل ليلة جمعة

يرابطون به ، فاحِبُّ ان تجري الى هذه الدواميس الاوليـة ساقيةَ من بَرًّا المدينة ، وتوصل اليها ماء السماء ، لينتفـع بذلك النـاس والارامل والايْتام ، ويجدُ فيه أهل الموسم من الغُربـاء والمرابطين المنقطعين الى ربّ العـالمين مرغوبهم ، لِحـلّه وقِـدَم أجله ، وأرجو ان تخرج الذين حبستهم في الدواميس . » (١)

وسرعان ما أجابه الامير الى جميع ذلك،فقد اطلق سراح المحبوسين من السجن ، ثم بـادر الى ترميم الدواميس بمـا يناسب لما خُصِّصت له ، وهيـأها لأنْ تكون خزاناً عظيما يستفيد السكّان من مائـه في زمن الشدّة ، ـ وان كان لكل منزل بالمدينة ماجل خصوصي ـ وقد أقيم في جنب المـدخل مَدْرَج يُنْزَلُ بواسطته الى اسفل الخزّان ؛ ومن ناحيـة اخرى اختار الامير مكاناً فسيحاً على مسافة قليلة من البلد بجوار قرية (المُرْدين) بنى فيها فسقية ضخمة ذات حوضيْن ـ كبير وصغير ـ يجتمع فيها مآء المطر، وساق منها قنـاةً ـ ساقية ينسرب فيها المـآء باستمرار

---

(١) رياض النفوس ١ ص ٣٩٢

(٢) المردين ، وربما ضبط هذا الاسم بصيغة (المريدين) قرية صغيرة قديمة الوضع تقع قبلي سوسة وعلى مقربة منها ، راجع شيئاً عنها في (رياض النفوس) ٢ : ١٩١

الى الخزّان المشار اليه،وهكذا جهز ابراهيم الثاني مدينة سوسة بصهريج عظيم ، دائم النفع على مـــرّ الايام ، وهو المنعوت اليوم (بالسُّفرة) المعروفة المكان بالبلد ، وكان هذا الانشاء في حدود سنة ٢٧٠(٨٨٣م)

وفي المدة الاخيرة اعتنت بلدية سوسة بترميم ما انثـلم من (فسقية المردين) وتعرف ايضاً باسم ـ المـــاجل الازرق ـ واصلحت جوانبها اصلاحاً قـيّماً فاعادت اليها جمالها الاصلي ورونقها القديم .

اما صهريج (السُفرة) بداخل البلد فـلم يزل على حاله وجلاله ، وان كان أستغنيَ عنه بعد ما جُلِب الى المدينة من المـآء الكافي بواسطة قناة عصرية تأتي به من ناحية القيروان .

ومهما يكن من أمر فان خزّان (السفرة) ـ وان لم نقف على تسميته القديمة ـ هو من المآثر الفخرية لدولة الاغالبـة التي حرصت طيلة مدّتها على تعمير البلاد، وتجهيزها بالمعالم ذات النفع العمومي وخصوصاً بمصانع المياه وخزنها في جميع جهات إمارتهم .

مسجد بوفتاتة

هذا المسجد أسسه الامير ابو عِقال الاغلب بن ابراهيم الاول في سنة ٢٢٣ (٨٣٨م)أي قبل بنـآء الجامع الكبير بعشرين عاما ، مما يـدّل على ان

المدينة لم تبلغ وقتئذ شأواً كبيراً من التعمير ، وانما حصل ذلك بعدُ ، عندما أقيم الجامع لاتساع العمران وتوفر عدد السكّان .

وكان بنآء هذا المسجد على يدي (فَتَـاتَة) مولى الامير أبي عقال المذكور ، وهو المُشرف ايضاً على إقامة الجانب القبلي من سور البلد كما مرّ بيانه ، ولهذا السبب نُسب (المسجد) اليه فعرف باسمه الى الآن مع زيادة واضحة للفظ (بو)

والمسجد بسيط العمارة ، ترتكز عقود سقفه على عرصات من الحجارة المتينة ، كما هو الشان في جميع معالم سوسة الاغلبية ، ولم يُعْتَنَ بزخرفته الداخلية لانه واقع فى مدينة حربية الوضع،لكنّه تَحلّىً بكتابة كوفية تذكارية جميلة رائعة، تحيط بجدرانه الخارجية من جهاته الاربع

وقد أُدخل عليه في العصر الاخير بعض التغيير بصبغ العرصات والحيطان بالدهن الزيتي ، لكن ذلك لم يمس بجوهره الاصلي ، والحمدلله .

كما ان جانباً من الكتابة التذكارية البارزة طُمِسَ قسم منها في ايام الفاطميين فيما اظن كما سبقت الاشارة اليه .

ومهما يكن فان الشكل المعماري لمسجد (بوفتاتة) يشبه كثيرا طراز الجامع الكبير في طريقة بنآء أقواسه وفي شكل عرصاته

مسجد يحي بن عمر

هذا المسجد من توابع دار فقيه سوسة الكبير يحي بن عمر الكناني، وهو الباني له ، اتخذه ملاصقاً لبيت سكناه لتسهل عليه الصلوات المفروضة من غير ان ينتقل كثيراً،فكان يحي يُسمِعُ تلاميذه مروياته في الحديث أو يملي عليهم بعض تآليفه في مسجده هذا . وفي القديم كان حذوه حمّام يُعرف (بحمّام النُعمان) .

وبقي المسجد قائم الذات الى ان أُصيبت سوسة بالقذف الجوي الامريكاني في الحرب الاخيرة - سنة ١٩٤٣ - فانهدم من جرآء ذلك مع جملة المساكن التي كانت حوله ، وقد زُرته قبل سقوطه، وهو واقع على مقربة من (جبّانة الغرباء) بالناحية القبلية من البلد حذو القبة التي تعرف (بسيدي بوفاتح) ، وبنآؤه مقام على عرصات في غاية البساطة،ومساحته غير متسعة،وفاتني في ذلك الوقت ان أقيسه أو ان آخذ له رسماً اعتبارياً إذ لم يخطر بالبال تهدّمه بعد قليل .

ويفيدنا أصحاب التراجم [١] ان من عادة يحي بن عمر انه كان يخرج من داره الى الجامع الكبير لادآء صلاة الجمعة ، فكان يمرّ في

---

(١) راجع طبقات ابي العرب،والخشني،ورياض النفوس للمالكي؟ : ٤٠١

طريقه على (زُقاق الروم) ، وعلى جانبي هذا الزقاق يوجد دكاكين للحريريين ، وهم أصحاب الانوال لنسج اقمشة الحرير [١]، وقد اعتاد هؤلاء النساجين رَفع أصواتهم بالتكبير خصوصاً في أيام العَشر[٢] فكان يحي ينهاهم عن هذا الفعل لانه يراه (بدْعة) في نظر الشرع .

وكان يحي بن عمر من أشد العلمآء مقاومة للبدَع المخالفة لاصول السُّنَّة ، وقد الّف ـ رضي الله عنه ـ كتاباً خاصاً لدرء البدع، واستهدف بذلك للانتقادِ ممّن كان يرى جواز بعضها .

الاسواق والحركة الاقتصادية

في جميع مدائن العالم العربي كانت الحياة الاقتصادية تدور حول الاسواق والمصانع ، وتقع الاسواق غالبا بالقرب من منطقة الجامع

(١) الحرير الخام كان يأتي قديما من مدينة قابس الى سائر البلاد التي على البحر المتوسط ،وبغابة قابس كان يوجد الكثير من شجر التوت لتربية دودة القز لصناعة سلوك الحرير . قال البكري : « حريرها أطيب حرير وأدقه ، وليس في عمل افريقية حرير إلا في قابس » (المسالك والممالك ص ١٧)

(٢) (أيام العشر) هي المعروفة في تونس (بالعواشر) يعني شهر رجب وشعبان .

الكبير للمدينة،وينطبق هذا النظام على ما كان يشاهد بالقيروان في عصر غزارة عمرانها.

وجدير بالذكر أن أول من نظر في تنظيم أسواق التجارة والصناعة في المدائن الاسلامية الكبرى وأمر بترتيبها على ما وصفنا هو الخليفة الاموي (هشام بن عبد الملك)،ومن ضمن هذه المدائن : القيروان عاصمة افريقية .

يقول البكري [١] : « وكان السِمَاط ـ وهو سوق القيروان ـ متّصلاً ـ أي أن دكاكينه متلاصقة ـ فيه جميع المتاجر والصناعات ، وكان أمر بترتيبه هكذا : هشام بن عبد الملك.» وذلك في حدود سنة ١٢٠هـ (٧٣٨)

وفي مدة الخلافة العباسية نرى الامير (يزيد بن حاتم المهلّبي) وقدتولّى إمارة افريقية سنة ١٥٦ ، ٧٧٣) « قد مهّد أمور البلاد ، ورتّب أسواق القيروان ، وأفرد لكل صناعة مكاناً [٢] »

من ذلك الحين ، وعلى أساس النظامَيْن المتقدميْن وُضعت أسواق المدائن التونسية التي أحدثها العرب فى البلاد ، ولا سيا الدولة الاغلبية.

(١) المسالك للبكري ص ٢٥

(٢) البيان المغرب لابن العذاري ١ : ٦٨

وإذا ما بحثنا عن الحركة الاقتصادية وأصول الثروة بسوسة في المدة التي تهمّنا نرى الرّحال (ابن حَوْقل) التاجر البغدادي عند وصفه لبلاد افريقية - في القرن الرابع - يقول :

« اما سوسة فمدينة طيبة ، رَفِهَة خصبة ، على نحر البحر ، ولها سور حصين ، وماؤها معين ، وبها مواجل قليلة ، وأعمال صالحة نبيلة ، وأهلها موقّرون ، عقولهم وافرة ، ومعاملتهم حسنة، والغالب عليهم السلامة ، ولها اسواق حسنة ، وفنادق وحمّامات طيبة ، ولها ضِيَاع جمّة ، ووجوه من الجبايات غزيرة ، وغلاّت واسعة ، ورباطات كثيرة . »

ويصفها الرّحال الاخر (ابن رستَه المقدسي) - وهو أيضا ممن زار البلاد أثناء المائة الرابعة للهجرة ، فيقول :

« وبسوسة دار صناعة تُعمل فيها المراكب ، وتردها المراكب التجارية . وأهل سوسة أخلاطٌ من الناس ... وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العبّاد والمرابطون »

ويقول البكري - وهو من اكبر جغرافي المغرب :

« وبسوسة أسواق كثيرة، وهي مخصوصة بكثرة الامتعة والثمر، ولحم سوسة أطيب اللحوم ، وهي رخيصة الاسعار والفواكه ، كثيرة

الخير ... والحِياكة بسوسة كثيرة ، ويغزل بها غزل يُبَاع زِنة المثقال منه بمثقالَيْن من ذهب ، وبها تقصّرت ثياب القيروان الرفيعة »(١)

والاسواق تنقسم بطبيعة الامر الى قسمين : معامل للصناعات اليدوية يشتغل فيها أربابها بتحويل المواد الاولية الى منسوجات صناعية، وأهمها في سوسة حِياكة الاقمشة المنسوجة من الصوف ، والحرير ، والقُطن ، والكتّان وما الى ذلك .

والقسم الثاني يشمل أسواق البيع المعدّة لعرض المصنوعات المحلية أو المجلوبة من القطر ومن الخارج ، ويتركب هذا القسم من دكاكين متلاصقة ومتقابلة يفصل بينها مَرٌّ معقود السقف بالآجر او بالحجارة الخفيفة ، وأمام صفّ الدكاكين توجد مصطبة قصيرة تمتدّ على كامل ناحيتيْ السوق ، يجلس عليها الشاري ، حسبما هو مشاهد الى الآن في (الرَّبع) داخل مدينة سوسة . وفيما نعتقد ان هذه السوق لم تتغير عن مكانها منذ تاسيسها الاول ، وترتيبها الحالى يقتضي ذلك .

ودكاكين القسم الاول المخصّصة للتصنيع هي أفسح رقعة من دكاكين البيع ، لأنَّ الشغل فيها يتطلَّب التوسعة لنصب أنوال النسج ونشر

---

(١) المسالك للبكري . ٣٤ و ٣٦

المواد الاولية بعد صبغها بقصد تجفيفها ، ومن جهة أخرى فان عدد العاملين في الصناعة يكون دائما أوفر منه في التجارة التي ربما يقوم بها الفرد الواحد .

القيْصريات

وهناك قسم آخر من الاسواق معدّ للصناعة،وكان متعارفاً منتشراً في جميع مدائن المشرق والمغرب العربيين،وهو المعروف (بالقَيْصَرِيَّة) اقتبسه الاسلام من النظام البيزنطي،وهي دكاكين تقوم الحكومة ببنآئها على نفقتها في محل مربّع الشكل يحيط به سور من كل الجهات،ويدخل اليه من باب واحد ، فينتصب فيه أرباب الصناعة ، ويؤدون مقابل ذلك كرآء مناسباً للحكومة في كل شهر أو في السنة حسب الاتفاق .

وأول من ابتدع هذا الترتيب في الاسواق هي حكومة قَيَاصِرة القسنطينية،ولذلك اشتهرت باسم (القيصرية) ، والمعروف ان الخليفة (هشام بن عبد الملك) هو الذي أدخل نظامه في المدائن العربية وتمّ العمل به منذ ذلك العهد ، وكان المقصود الاصلي من اتخاذ هذا الترتيب هو مراقبة أصحاب الصناعات مباشرة تحت رعاية أُمنآء مشرفين على سيْر الاعمال ، ومنع تسرّب الغِش للمصنوعات ، ومن جانب آخر فان

هذا النظام يسمح بمورد جِبائى مهمّ للحكومة ، إذ انه لا يرخص لغير الحاكم إقامة مثل هذه القيصريات .

ويوجد لحد الآن داخل مدينة سوسة مكان يُعرف (بالقيصرية) وليس من شك انها كانت في مبتدأ أمرها على النعت الموصوف آنفا[1]، ويظهر انها كانت مخصّصة بتحضير الكتان المعدّ للنسج،وقد دام الانتفاع لِمَا وضعت له الى زمان غير بعيد كما افادنا بعض الشيوخ المسنين، وكان الكتّان يُزرع في الاحواز القريبة من المدينةوخصوصاً في الارض المنعوتة اليوم باسم (خَزَامَة) فيما بين سوسة والحمّام ، وانما أطلق عليها هذا التعريف لأنّ نبت الكتان حين نموّه تعلوه زهرة بنفسجية اللون ، فعرف الكتان بها على العموم ؛ ومازالت فدادين تلك الارض مجهّزة بأبار للمآء الضروري لتنقيع الكتان، وكان يرفع من هناك الى مصانع سوسة وبالاخصّ الى القيصرية ، فيهيّئ حينئذ للنسج على الانوال ، ثم يُعنى بتقصيره وهو تبييضه ،فيخرج من المصنع في هيئة مقاطع ومِلَفّات، وتفصّل منها الاثواب والاقمصة وغيرها ، أو انها تباع على حالة قماش يرتفع الى مختلف الجهات .

---

(١) والملاحظ انه يوجد في مدينة تونس - بسوق القماش - وكذا في سفاقس وغيرهما محلات تعرف الى اليوم باسم (القيصرية) يشتغل بهاأصحاب الصنائع ولا سيما أرباب أنوال النسيج .

على ان تصنيع الكتّان من غزل ونسج ، وكذلك الصوف والقطن لم يكن محصورا في الاسواق وفي القيصرية ، فكثيرا ما كان يتعاطاه النساء في بيوتهن للارتزاق منه ، فقد حكى المالكي [١] عن الشيخ العابد ابراهيم بن محمد الضبّي وكان فقير الحال: « انه كان يعيش من كدّ امرأته ، وكانت تشتري الكتّان وتغزله وتغزل منه أبداناً فتبيعها في السوق، فما كان فيها من فضل تقوّتا به واشتريا برأس المال كتّاناً آخر ، فمن هذا كان عيشهما » .

وباختصار فان سوسة كانت تمتاز بين المدائن التونسية في القرن الثالث بتجارة حيّة ونشيطة ، وبصناعة رائجة يرغب فيها القاصي والداني مما اكسب ساكنيها ثروة واسعة ورفاهية مرموقة وجلب الى مدينتهم سمعة طيّبة وصيتا بعيدا

* * *

وما دمنا نتكلم عن الحركة الاقتصادية ، فلا يفوتنا ان نشير الى ان الدولة الاغلبية كانت تستجلب كميات وافرة من التّبر ـ وهو الذهب الابريز الخالص ـ من بلاد السودان ـ توزعها فى شتى مصاريفها، منها بناء المعالم التي تقيمها وفي نفقات الاساطيل وجرايات الجنود ،

(١) رياض النفوس ٢ : ٢٦

وفي غير ذلك من الوجوه ، وكانت القوافل التجارية في تلك المدّة تقطع مفاوز الصحراء الكبرى الى ان تصل الى السودان الغربي فتجوب آفاقه ، مثقّلة بالبضائع التونسية من منسوجات متنوعة ما بين قطنية وصوفية وحريرية ، وباصناف المصنوعات كالسروج واللّبود وأقفال الحديد والمفاتيح وخصوصاً الملح لقلته في السودان ، ثم انها تعود الى القيروان محمّلة بالتبر والعاج وغيره ومصحوبة بالرقيق الاسود الكثير ؛ وقد مرّ بنا ان الحرَس الخاص للأُسرة الاغلبية كان معظمه من العبيد المجلوبين من السودان ، وقد بلغ عددهم في مدة ابراهيم الثاني الى ما يفوق العشرة الآف زنجي ، كما نصّ عليه قدماء المؤرخين [١]

أوردنا فيما اسلفنا بعض الاوجه للحركة الاقتصادية في تلك المدة ، وفيما نعتقد ـ وهو ما تثبته الاحداث التاريخية ـ ان تراجع حياة الاقتصاد فى جميع جهات الساحل ـ وخاصة فى سوسة ـ وتدهور ازدهارها انما ابتدأ من حين تعطّل النظام المالي والصناعي الذي تمّ على عهد الاغالبة من تجهيز المدينة وما حولها بالوسائل العمرانية والتراتيب التي تقدم ذكر البعض منها ، ولم يعد الرفه المطلوب اليها الاّ بصفة نسبية بعد مدة طويلة من الزمان ـ ولله في خلقه شؤون !

(١) المصدر نفسه ج ٢ (مخطوط)

المدرسة الزّقّاقية

بقربة من قصر الرباط توجـد الآن مدرسة اشتهرت (بالزّقّاقية) تحتوي على عدة غُرَف صغيرة معدة لسكنى طلبة العلم،وعلى مسجد كان يُدرس به مبادي العلوم الشرعية واللغـة العربية الى زمان غير بعيد ، وللمسجد صومعة جميلة الشكل بديعة البنيان ، تمتاز على غيرها من مآذن البـلد

وقد سألت بعض مشائـخ سوسة عن نسبة هذه المدرسة ، فـاجابني بانها تنسب الى فقيه مغربي يُعرف بالزّقّاق (١)

وقد استربت هـذا الخبر ، واستغربت الامر ، لأن الفقيه الفاسي المشار اليه لم تكن بينه وبين سوسة أية علاقة حتى تنسب اليه ، وبعـد مدة وقفتُ في كتاب « رياض النفوس (٢) » على ذكر أحـد كبار علمـآء سوسة من أصحـاب أبي جعفر الأُربسي وابي جعفر القمـودي ، وهو

(١) يقصد بالفقيه المغربي : (علي بن قاسم الزقاق المتوفى بمدينة فاس سنة ٩١٢ (١٥٠٦ م) وهو واضع القصيدة اللامية في الاحكام على مذهب مالك ، المشهورة باسمه (لامية الزقاق)

(٢) المالكي ٢ : ١٠٢

(ابو جعفر احمد الزّقّاق) وكان يعيش في أواخر القرن الثالث للهجرة أي في العصر الاغلبي الذي يهمّنا .

ومن المؤسف ان مؤلف «رياض النفوس» لم يترجم له في كتابه بتفصيل، وخطر ببالي ان تلك المدرسة انما نسبت في الحقيقة الى هذا السوسي لا لغيره ، بيْد ان اهل البلد في الازمنة المتاخرة قد نسوا أصل نسبتها الى احد علمائها المتقدمين لعدم الاهتمام بتحقيق تراجم الاعيان ،فتوهموا ان المدرسة تنسب الى من يلقّب (بالزقاق) وظنوا انه الفقيه المغربي المتقدم، ووجه الشبه ظاهر .

ويخيّـل لي ان مكان المدرسـة كان في اول الامر دار سكنى العـالم السوسي المذكور ، ثم حوّلها بعض الرؤساء الحفصيين ـ في القرن الثامن او التـاسع ـ الى مدرسة للعلوم وسكنى الطلبة كما جرت به العـادة في ذلك الاوان .

وفيما نعلم ان المدارس على الصفة التي نعرفهـا في سائر مدائن قطرنا انمـا ظهرت للمـرة الاولى في أيام (ابي زكرياء الاكبر) مؤسـس الدولة الحفصية ، فهو الذي أسس (المـدرسة الشمّاعيـة) الـتي بحضرة تونس مُقلّدًا في ذلك ما كان جارياً في أقطار المشرق العربي .

ولا يخفى ان أول مدرسة تعليمية في الاسلام على النسق المتعارف هي

(المدرسة النِّظاميّة) ـ نسبة الى الوزير السلجوقي نِظام الملك ،وكان انشاؤها في بغداد سنة ٤٥٧(١٠٦٥) ، ثم اقتدت المدائن الاسلامية الكبرى بعمل نظام الملك فاحدثوا مثلها في عواصم العراق والشام ومصر الى ان وصلت النوبة الى تونس في مبتدأ الدولة الحفصية كما تقدَّم .

اما في البلاد التونسية فقد اقتفى أثر ابي زكرياء الاول في انشاء المدارس للتعليم ولسكنى الطلبة جملة من الامرآء الحفصيين الى آخر عهدهم ، ثم جاء من بعدهم الاتراك ثم المراديون ثم الحسينيون فتزاحم أمراؤهم و كبراؤهم على احداث مثل تلك المعاهد،وانتشر اتخاذ المدارس في الحضرة وفي غيرها من المدائن التونسية ، ولله در من قال:

وواضع حجراً في أُس مدرسة   أبقى على قومه من شاهق الهرم !

الطرقات والجسور

من مزايا الدولة الاغلبية التي تذكر فتشكر ، انها حافظت بكل اهتمام على ما كان يوجد في البلاد من المنشآت القديمة النافعة للصالح العام، فمن ذلك ان أولئك الامراء اعتنوا بصفة ملحوظة بالطرقات الرئيسية المعبّدة من العصر الروماني،بل انهم أضافوا اليها مسالك جديدة جعلوها تربط بين العاصمة القيروانية وبين المدائن التي أحدثوها هم أو الولاة

العرب السابقون ، مثل تونس ، وسوسة ، وسفاقس علاوة على المدائن القديمة كقابس ، وقفصة ، وباجة،والأُربس وسواها . كما وجه الاغالبة عناية خاصة الى تلك الطرقات بالاصلاح الدائم والتفقّد المستمر ، وعيّنوا موظفين لحراسة المسالك وترميمها ، انتخبوهم من بين أنجب فتيانهم .

ومن الواضح ان المحافظة على سلامة تلك الطرقات كانت ضربة لازب وضرورة حتمية على دولة تستعمل العَجَلات (أي العَربَات : les chars) التي تجرها الخيل والبغال لنقل اثقال الجيوش والاجهزة الحربية بسرعة ، أو مَوَاد البناء اللازمة للاشغال البعيدة .

ولدينا كثير من النصوص المعتمدة التي تثبتُ استخدام بني الاغلب والفاطميين بعدهم ـ للعجلات في جميع مدة ولايتهم ، ثم تنعدم هذه الوسيلة في أيام الدولة الصنهاجية بسبب قلّة الاعتناء بالطرقات ولم يبق لاستخدام العجلات ذكر في التاريخ

ولا نزاع ان وجود الطرقات الممهّدة في ايام بني الاغلب كانت تفرض عليهم وجود الجسور والقناطر لعبور الانهار والاودية العارضة في المسالك ، ولذا نرى الادارة الاغلبية تعتني بانشاء جسور وقناطر لا تقلُ اتقانا ومتانة مما كانت تصنعه الدولة الرومانية في افريقية

وقد احصيتُ نحو العشرة من القناطر التي أحدثها الاغالبة ، منها التي كانت خارج مدينة القيروان وتعرف بقنطرة (باب أبي الربيع) وهي من محدثات زيادة الله الاول ، وكان مُعجباً بها لعظمتها وجمال هندستها ، وقد جدّد بناءها الامير أبو ابراهيم احمد

ويسرّني أن أذكر هنا القنطرة البديعة القائمة الذات حتى اليوم ، الموجودة على عشرة كيلو ميتر من شمالي سوسة ، ما بين (شطّ مَارَيّة) و(هرقلة). وقد بُنيت لتسهيل مرور الماء على السدّ المُنْسَرب هناك الى البحر . وهي مُقامة على ست عشرة حِنْيَة (قوس) على الشكل المعماري المعروف في البلاد التونسية باسم ظهر حمار (أي ان بناءها يصعد بالتدريج الى نصف القنطرة ثم ينحدر نازلاً الى منتهاها) ويحفّ بمسلكها من جانبيْها حائط حاجز يمنع المارّة من السقوط، وعرض الجادة السالكة عليها يقرب من سبعة أمتار ونصف الميتر ؛ وانما قُدِّرتْ هذه المساحة ليسهل مرور العَجَلات عليها من غير تضييق على العابرين ، وكنت زُرتها وتأمّلت من طرازها منذ زمان بعيد فاعجبت بها كل الاعجاب

وانما ذكرتُ هذه القنطرة بالخصوص لانها من مشمولات دائرة سوسة ، ولانها كانت على الجادّة الموصلة منها الى هرقلة ، والظن الغالب انها من مؤسسات الامير ابى ابراهيم احمد . وبهرقلة يوجد حتى الآن

(رباط) جليل هو أيضاً من منشآت الامير المذكور ، وسيأتي الكلام عن هرقلة وعن بعض معالمها الاغلبية .

مسجد أبي الغُصن

وهناك مسجد آخر كان داخل سوسة ولا ندري الآن أين كان يقع من المدينة ، وهو منسوب الى رجل عالم صالح ، هو (أبو الغُصْن نفيس) السوسي ، كان أبوه نصرانياً وأسلم ، ونشأ ولده على الدراسة وطاعة الله ، وشبّ على طلب العلم ، وقرأ على الامام سحنون وغيره من مشائخ القيروان ، ثم رحل الى مصر فاخذ عن جماعة من كبار فقهائها المالكيين، ثم عاد الى سوسة مسقط رأسه، واحترف كابيه بصناعة الغرابيل يعيش منها، واشتهر بالعلم الوافر والتواضع والنصح لعباد الله، حاول الامير ابراهيم الثاني مراتٍ عديدة على أن يوليه قضاء المدينة لما يعلم من دينه وصيانته ، فابى عليه وامتنع من ذلك الى آخر عمره .

حُكي عنه انه كان يسكن بجواره شابّ ظريف منغمس في الملاهي، فاقيمت الصلاة يوماً في مسجد (أبي الغُصن) وكان ذلك الشاب حاضراً، فالتفت أبو الغصن الى الشاب وقال له : ـ تقدّم فَصَلِّ بنا ، فامتنع الفتى وأراد الخروج من المسجد ، فعزم أبو الغصن عليه ، فتقدّم وصلّى بن

حضر، ولما انقضت الصلاة عاد الشاب الى بيته وفكّر ساعة في أمره، ثم قام وكسّر كل ما في بيتــه من آلات المـلاهي ، وأهرق أدوات المسكر التي كانت عنده ، وتـــاب توبة نصوحاً عمّا كان فيه ، ونزع من يومئذ الى العمل الصالح ، ونفعه الله بهداية ابي الغصن ورأفته به [1] »

وكانت وفاة ابي الغصن في خلال سنة ٣٠٧هـ(٩١٩م) ودفن بسوسة، ولا علم لنا الآن بمكان مسجده ولا بالمقبرة التي دفن فيها .

قصر طـــارق

ومن منازل سوسة التي نالت شُهرة ذائعـة في ذلك العصر وبعـده (قصر طارِق) ، وهو من صِغار الرباطات التي تحيط بالبلد ، يقع على ساحل البحر بقربة من المدينة بحيث يشاهد بناؤه منها، وله برج عال يرى من مسافة بعيدة في البحر ، وكان تأسيسه على يـدي رجل سخي مليّ يعرف (بطارِق) وانفق عليه من ماله الخاص، كما بنى في غربيّه منزلا يسكنه مع أُسرته [2] وكان ذلك في آخر القرن الثالث ، وليس لدينا ما يشير الى هيئـة هندسته ومحتوياته سوى ما ذُكر من اعتلاء مناره المشرف على البحر .

(١) رياض النفوس « للمالكي »

(٢) رياض النفوس للمالكي ج ٢ ص ١١٠

ولهـذا القصر صدى كبير في أشعار أدبـاء سوسة المتقدمين، فقـد تشوّق الى رؤياه (محمد بن عبدون) الشاعر السوسي البليغ ، من أدباء القرن الخامس للهجرة، فانه قال من قصيدة انشدها لما كان في الاغتراب بجزيرة صقلية ، وفي هذا القريض حنين شديد الى معاهد مسقط رأسه وخصوصاً الى قصر طارق ، وطالع القصيد [1] :

بالله يا جبـــلَ المُعسكر دَع   ريحَ الجنوب لعلّها تسري [2]

كَـيْماَ أسائلهـــا فَتُخْـبرني   ما فعلَ الجيرانُ بالقَصْـرِ

يا قصر طارِق الذى طَـرَقتْ   أحْشَايَ فيه بَلاَبِلُ الصَّـدر

والله مَا قصّرتُ عن قَلَـق   لكنّـني قصّرتُ بالقَسْر

فَسَقاكَ منهلُ الحيا وسَقَى   عَصْراً تَقَضَّى فيكَ من عصر

أُعطِي عهود الله صفقة مَن   أعْطَى العهودَ بجانب الحِجْـرِ

لَوْ استطيعُ سبَحتُ من طَرَبٍ   شوْقاً اليك سَوَادَ ذَا البحر

(١) رحلة التجاني ص ٣٨ و ٣٩ نقلا عن ك « انموذج الزمان في شعراء القيروان» لابن رشيق القيرواني .

(٢) قوله : « جبل المعسكر » كأنه يقصد به الكدية التي يرتفع عليها « منار خلف الفتى » وبفنائها كان ينزل عسكر الاغالبة في الخيام . ومن هذه القصيدة يظهر أن منزل الشاعر كان قريباً من قصر طارق .

حتىّ أقبِّلَ جانبيْـــكَ كما ‏ ‏ ‏ ‏ قَبّلْتُ فيك مراشِفَ البدر
وأفيضُ أجفـاني لديْـك كما ‏ ‏ ‏ ‏ فاضتْ عليك وما بها تَـدْري

وقوله من أخرى في المعنى :

يا قَصْرَ طارِقِ همي فيك مَقْصورُ ‏ ‏ ‏ ‏ شوقي طليقٌ وَخطْوي عنك ماسور
إن نَامَ جارُك إنّي سَاهرٌ ابداً ‏ ‏ ‏ ‏ أبكي عليك وبَاكي البيْنِ معذور
عندي من الوجد مالو فاضَ من كبِدِي ‏ ‏ ‏ ‏ اليكَ لاحترقتْ من حوْلِك الدور

فانت ترى ما في هذا الكلام من الانسجام التام ومن تلّهف الشاعر السوسي على معالم وطنه في وقت الغربة .

منـازل الساحـل

في القرن الرابع للهجرة ، يقول الجغرافي الكبير (ابن رستة الشهاري) عند وصفه للساحل التونسي: [(١)]

«والساحل كثير السواد من الزيتون والشجر والكروم ، وفيه قرًى كثيرة متّصلة بعضها ببعض»

والواقع ان الساحل أغزر عمرانا ، وأوفر سكّانا ، وأكثر مدائن

---

(١) كتاب « الاعلاق النفيسة » طبع ليدن سنة ١٨٩١ ص ٣٤٨

وقرى من بقية جهات القطر التونسي بسبب امتداده على سيف البحر ، وربّما يعلّل هذا بان أهل الشواطئ أيسر معيشة من قاطني البراري ، لأن البحر مورد عظيم لاسباب الحياة ، فمنه يصطاد على طول السنة السمك الذي هو غذاء غنيّ سهل التناول رخيص الثمن، ثم ان ساحل البحر يتمتّع بمنافع أخرى ، منها ورود السفائن عليه من انحاء مختلفة ، وقد تاتي بالاقوات والمرافق التي يحتاجها الانسان ، وبموجب هذه الاسباب تعدّدت المنازل والقُرى في الساحل التونسي حتي كادت تتصل مزروعاتها وغروسها بعضها ببعض

وجدير بالقول ان هذه القُرى والمنازل هي موجودة هناك من أقدم ظهور العمران في البلاد ، وكلّنا يعلم ان كثيراً من قُراه يرجع تاريخ انشائها الى ثلاثة آلاف عام وربما أزيد من ذلك ، وها هي مازالت باقية في أماكنها الاولية ولم تتحول منذ نشاتها ، كما انها لم تفارق أسماءها الاصلية ، بربرية كانت أم فنيقية ، فهي تنعت بما عُرفتْ به منذ ذلك العهد المتقادم ، عدا ما انضاف اليها في العصر الاغلبي أو في مدة الدولة الحفصية كالقلعتين ـ الكبيرة والصغيرة ـ ومثل بلد مساكن وجمّال وسواهما

واذا ما أشرنا الى القرى الساحلية القديمة فلننقل ان السكّان

اصطلحوا من العهد الاغلبي على تعيين القرية باسم (المَنْزل) فاذا قال أحدهم : ـ اني ذاهب الى منزلي ، أو : اني خرجت من منزلي » فانما يقصد القرية التي يسكنها ولا يعني البيت الذي يقطنه ، وما زالت لحدّ الآن بعض القرى الساحلية تحمل اسم المنزل ، مثل : (منزل حرب) و (منزل خير) و (منزل كامل) .

وهذا الاصطلاح لم يكن مقصوراً على الساحل الاعتباري ـ أي الذي قاعدته سوسة ـ فحسب بل كان متعارفاً في سائر الشطوط التونسية ، فيوجد في الوطن القبلي ـ جزيرة شريك في القديم ـ (منزل تميم) و (منزل حُرّ) و (منزل باشو) ـ وفي ناحية بنزرت ـ وطن سطفورة ـ (منزل جميل) و(منزل عبد الرحمان) وهلمّ جرّا ، ويقابل اسم المنزل في الفرنسية لفظ (Hammeau) وهو مجموع صغير لبيوت في الريف

فالمنزل حينئذ أقلّ أهمّية من القرية ، وربما لا يتجاوز عدد دوره الثلاثين فما دون ، وفي غالب الاحيان كان يضاف الى منزل اسم أول من نزله وبنى به داراً ، مثل (حرب) و (كامل) و (تميم) و (جميل) و (عبد الرحمن) وستأتي زدياة بيان عن ذلك في (منزل صقلاب)

ـ دام هذا الاصطلاح في البلاد التونسية من لدن العصر الاغلبي

أو من زمن الولّاة ، ويقابله الاصطلاح الجارى الى الآن بين سكّان جزيرة (مالطة) فانهم يطلقون اسم (الرّحل) على المنزل ، فعندهم (رحل الزبّوج) و (رحل الزيتون) و (رحل التُرشان) وغير ذلك ، ويسمّى عندهم الرجل الذي يسكنه (رَحْليّ وجمعه رُحولَة) بمعنى الرجل القروي والفلّاح

وكذا وقع في صقلية في مدة الاستيلاء العربي الافريقي عليها،فانهم ينعتون القرية الصغيرة باسم (قَلْعَة : Calta) وعندهم تعاريف كثيرة بهذه الصيغة ، مثل (قلعة البَلّوط)و(قلعة ابي ثور : Caltavutoro) و(قلعة الجيران : Caltagirone) وغيرها كثير ، والسبب في اختيار لفظة القلعة هو ان غالب القرى تقع في مرتفع من الارض لكثرة الجبال بجزيرة صقلية

نبّهنا على ذلك لئلا يحصل التباس في فهم بعض النصوص التاريخية القديمة التي تذكر المنزل ، فربما يتبادر للذهن انها تقصد الدور وبيوت السكنى

نضيف الى ما تقدم ان الناظر فى شؤون المنزل الادارية في العصر الاغلبى كان يلقّب (بوكيل المنزل) وهو ما نسميه اليوم(بشيخ القرية)

وفي دائرة سوسة الاغلبية كان يوجد عدة منازل غير بعيدة عنها ، حفظ التاريخ اسماء البعض منها كما سنراه في محله

معالم اغلبية خارج سوسة

قصر الطــوب

بعد أن عدّدنا الانجازات الاغلبية داخل سوسة ، فلننتقل الى الى المعالم التي كانت خارجها ، ونقتصر على المشهور منها ، مما أمكننا الوقوف على ذكره وتاريخه ، فمنها : (قصر الطوب) ومكانه معروف الآن على خمسة كيلو ميتر منها تقريباً ، في الناحية التي تسمّى اليوم (سيدي عبد الحميد) ؛ وهو عبارة عن رباط صغير به جملة غُرفٍ كانت معدة لنزول العبّاد والصالحين ، وكان به مسجد للصلاة ، وبُرجٌ مرتفع يكشف على البحر ـ وقد سقط في الزمان الحاضر ـ وفي وسط الصحن أو قريبا منه ماجل لخزن ماء المطر ؛ ويعود بناء هذا الرباط الى عهد الامير ابي العباس محمد بن الاغلب ، على يدي خادمه الفتى (خَلَف) المنسوب اليه منار القصبة المتقدم ، والراجح عندي ان تأسيسه كان بعد الانتهاء من بناء حصن القصبة بقليل ، أي في حدود سنة ٢٤٠ (٨٥٤) . وكان للقصر باب مجلّد بالحديد والمسامير البارزة ،

لا يفتح الاّ بعد طلوع الشمس ، وهي عادة متّبعة في جميع الحصون والرباطات ، وقد رابط فيه جماعة من كبار العلماء والصالحين وماتوا به فدفنوا بالمقبرة الملاصقة له .

وهذه الجبّانة استمر بعد ذلك دفن الكثير من أعيان أهل سوسة بها ، تبّركا بمجاورة من كان يقطن القصر من الفضلاء والصلحاء ، من بينهم عالم سوسة في زمانه. (عبد الحميد بن محمد الصائغ) المتوفى سنة ٤٨٦ (١٠٩٣ م) وهو احد شيوخ الامام المازري دفين المنستير، ومن ذلك الحين اشتهر الحصن والمكان باسمه ، ورغب اهل الفضل والدين في الدفن بجواره .

ويناسب أن ناتي هنا على حكاية طريفة لها علاقة بهذا القصر ، فقد روى أبو القاسم اللبيدي ـ من علماء القيروان ـ قال : « خرج محمد بن سحنون من القيروان يريد (قصر الطوب) للعبادة والحرس على المسلمين ، قال : فنزل قُطّاع من سفائن الروم ، ولم يكن مع محمد بن سحنون الاّ بغلٌ ، فخاف ان يبعث الى سوسة في طلب فَرَسٍ قبل ان ينال الروم من المسلمين بُغيَتهم ، فتقلّد بسيفه وأخذ رُمحاً وركب ذلك البغل الذي كان معه، واجتمع اليه الناس في جماعة من المرابطين ومَن يقرب من القصر من أهل البوادي ، ، وتمادى محمد بن معه الى

الروم ، فوجدهم قد اشرفوا على نهب الاموال وسبي الحريم فكبّر هو ومن معه ، وقد ناشبهم القتال ، فهزمهم الله على يديه ، وقتل منهم ، واتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هاربين ، فحلف محمد بن سحنون بعد ذلك انه لا يخرج الى المرابطة والحَرَس الّا بفَرَس»[١]

وكانت وفاة محمد بن سحنون كما لا يخفى في سنة ٢٥٦ (٨٧٠ م) وحصلت هذه الوقعة قبل ذلك بخمس او ست سنين .

ولا نزاع ان الرباطات والحصون الممتدّة على ساحل البحر كانت من الاهمية بمكان لحراسة السكّان ودفع غارات (القُرْصان) عن الوطن ، فان تلك الهجمات كان يجهّزها الروم البيزنطيون والافرنج ضدّ السواحل التونسية للنيْل من أهلها ونهب أموالهم ، واغتصاب ما يمكنهم من المتاع والكراع، وتأسير الصغار والكبار لبيعهم عبيداً أرقآء في الاسواق الافرنجية مثل (نابُلي) و (جنوة) وغيرهما .

وهجمات القُرصان هذه أكثر ما كانت تقع بغتةً وعلى حين غفلة من الاهلين كما تشير اليه الحكاية السالفة ، فهذه الغارات المتجددة باستمرار هي التي حدَتْ بامرآء الاغالبة، وبغيرهم من أهل الخير والغيْرة

---

(١) رياض النفوس للمالكي ١ : ٣٤٨

الى انشآء ذلك العدد الوافر من المحارس والمعاقل والحصون على سائر الشطوط التونسية لطرد العدو المباغت ورد هجمات المتوثبين من جانب العُدْوة المقابلة للبلاد .

* * *

قصر سهل

وفي الجهة القبلية من سوسة كان يوجد رباط صغير اخر يقع قبالة قصر الطوب ، بينه وبين المدينة نحو ثلاثة أميال ، هو (قصر سَهْل) بناه أحد اعيان القيروان من اصحاب سحنون المعروفين بالثراء الواسع وفعل الخير، المشهورين بالعلم والورع (سَهْل بن عبد الله بن سهل، أبو زيد) .

حكى أصحاب الطبقات[١] ان موضع هذا الرباط كان كدية رمل كبيرة ، وكان محمد بن سحنون يجلس عليها بعد العصر مع اصحابه للحراسة والنظر للبحر حينما كان يرابط بقصر الطوب ، فقال ابن سحنون يوما : « وددتُ لو بُنيَ هنا قصر للمرابطة ، فقال له سهل : ـ أنا أبنيه » فبناه ، وكان قوم من الافاضل أرادوا إعانته على النفقة ، فلم يرضَ سهل وانفق عليه من ماله الخاص نحو الالف مثقال

---

(١) راجع المالكي ٢ : ٩٠ ـ والمدارك لعياض ٢ : ٢٤ (قفا) وابن ناجي ٢ : ١٣٠

ذهبا (١) وقد احتاج في وقت ما من بنآئه الى شيء من المال لاتمام عمله، فباع في ذلك حلي زوجه وبناته ، واتمّه على أحسن حال ، ولم يشاركه أحد في النفقة . وتوفي الباني ابو زيد سهل في ذي القعدة من عام ٢٨٢ (يناير ٨٩٥ م) فيكون بنآء القصر في منتصف القرن الثالث ، وربما أطلق عليه اسم (القصر الجديد) لحداثته بالنسبة الى سالفه قصر الطوب، وقد نزل به جماعة من العلمآء والعباد منهم مؤسسه المتقدم ومحمد بن سحنون ، والمرابط ابو الفضل يوسف بن مسرور اللخمي المتوفى سنة ٣٢٤ (٩٣٥) ودفن بجانب القصر وغيرهم كثير من أهل الدين والتقوى .

وبكل أسف لم يبق لهذا القصر أثر يشاهد فيما علمنا ، وعسى ان يعتني بعض الشباب بالتنقيب على مكانه حتى يضاف الى قائمة آثار سوسة الاغلبية ،

وعلى كل فاني أحسبه على طراز سابقه وجاره (قصر الطوب) وعلى شكل بنيانه وهندامه .

---

(١) المثقال المذكور هنا هو الدينار الذهب ، فيكون جملة ماصرف على بنآء القصر ما يقرب من خمسة الاف دينار تونسية حالية

قرية الساحلين

هي من القرى القريبة من قصريْ (الطوب) و (سهل) وما زالت معروفة باسمها العربي القديم (الساحلين)ولا ندري وجه تسميتها (بالساحليّين)، وفيما مضى كان كثيراً ما يطرقها قُرْصان الروم بقصد نهبها واسترقاق أهلها لقربها من ساحل البحر وخلوها من سور يحصنها، فكان كلما هاجمها الخطر تسارع مرابطو المنستير وغيرهم الى نجدتها بالمدد الوافر ، فيبعدون المهاجمين عنها . وقد أسلفنا كيف نازلها القُرصان مرةً حينما كان محمد بن سحنون وصحبه يرابطون بقصر الطوب وكيف دافعوا عنها حتى أجلوا عنها العدو إلى البحر .

* * *

خنيس

لم نهتدِ كيف نضبطها ، هل هي : (خَنِيس) أم (خُنَيْس) ولم نقف على تحقيق النطق بها ، إذ لا يوجد لها ضبط في المعاجم الجغرافية العربية القديمة ولا في كتب التاريخ والوفيات ، فهل هي (كَنِيس) وغيّرها العرب بعد الفتح بقلب كافها الى خاء ، او انها كانت تعرف بخُنَيْس ثم حولها النطق المحلي الى (خَنِيس) كما يلفظ بها الآن اهل الساحل ؟

وعلى كل فهي قرية صغيرة على مقربـــة من المنستير ، وكان بها قديماً جامع للصلاة وكتّاب أو إثنان لتعليم الصبيان، وسكانها فلاحون من أصحاب الزياتين ، وقد ورد ذكرها من القرن الثالث للهجرة ، واشتهر من ابنائها قديماً (أبو ابراهيم اسحاق المعروف بالخنيسي) ولا نعلم من اسمه اكثر من ذلك .

كان اسحاق هذا من اهل اللغة والنحو والادب ، قرأ بالقيروان على كبار نُحاتها في العصر الأغلبي ، ومهر في العلوم اللسانية بمخالطة علمائها اللغويين ومجالستهم ، وكانوا في وقت تعلمه يعدّون بالعشرات أمثال أبي سعيد بن فورك، وأبي الوليد المهري وسواهما[1] . ثم حصلت له مع أبي محمد المكفوف السُرتي النحوي وحشة أدّت الى المقاطعة بينهما مما حمل اسحاق على مهاجاته ، وأطلق كل منهما لسانه بالشتيمة في صاحبه

فقال اسحاق الخنيسي في هجاء ابي محمد المكفوف[2]

أَلَا لُعِنَتْ سُرْتٌ وماجاءمنسُرْتِ فقد حلَّ من اكنافها جَبَلُ المَقْتِ

(١) راجع الفصول المخصصة للتعريف بكبار رواة اللغة والادب في القسم الاول من كتابنا « ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية » طبع تونس ١٩٦٥ ص ١٣١ الى ١٦٣

(٢) راجع « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي ، ط مصر ص ٢٥٤ و ٢٥٨ – وكذلك « إنباه الرواة » للقفطي ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة مصر

في شعر طويل لم يُرْوَ لنا منه غير طالعه المتقدم

واجابه عبد الله المكفوف :

إنَّ الخُنَيْسي يهجوني لِأَرْفَعَه أَخسأ خُنيس فإني غيرها جيكَا

لم تبقَ مَثْلَبَةٌ تُحصَى إذا جُمِعتْ من المثالب إلاّ كلّها فيــكَا

وكانت وفاة أبي ابراهيم اسحاق الخنيسي أواخر المائة الثالثة ودُفن في قريته خنيس .

قصر ابن حَبشي

في الناحية الشمالية من سوسة كان يوجد (قصر ابن حبَشي) نسبة الى بانيه احد ابناء الامراء الاغالبة ، وهو : (ابراهيم بن حَبَشي بن عمر بن الاغلب) الذي عاش في القرن الثالث للهجرة . وكان عالماً تقياً من اهل الجود والمعروف ، ويظهر انه اختار الاعتكاف والتباعد عن أسرته المالكة ، فانعزل عن سُكنى (العباسية) و (رقّادة) وابتنى لنفسه قصره هذا على البحر شمالي سوسة وبالقرب منها ، واستقرّ به مع أهله . وهناك كان العلماء والصلحاء يزورونه فيرحّب بهم ويُكرم مثواهم .

يحكى ان الرجل الصالح : محمد بن عمرو بن خيرون الاندلسي ـ احد أيمة القرآءات بالقيروان ـ كان قد أصيب في تجارة عظيمة له

جلبها من الاندلس بقصد بيعها في افريقية ، فغرق المركب الحامل لها في عرض البحر قبل وصوله ، فاغتم صاحبها لما لحقه من الخسارة . فاتى ابن خيرون الى ابراهيم بن حبشي في قصره وكلّمه وذكر اغتمامه وما رُزِئَ به ، فأخذ ابن حبشي يلاطفه ويهوّن عليه الامر ، ثم انه أخرج اليه كيساً فيه الف دينار ذهباً ، وقال له : - يا ابا عبد الله قد علمتَ ما بيننا من المودة والاخاء في ذات الله، وما يجب بين الاخوان من الحقوق، وقد احببتُ أن تسرّني بقبول هذه الدنانير وتصرفها في بعض حاجاتك - فاجابه ابن خيرون : - أحسن الله مجازاتك وأوجب حقّك ،فالله أعطانا والله أخذ منا، والخلف بيده . وهو المحمود على السراء والضراء ،وقد أبقى علينا من نِعَمه ما لنا فيه الكفاية - فقال ابن حبشي: «قد علمتُ ذلك ولكنّي أحببتُ أن تشركني في ثوابك، ولا تبخل عليّ بما سالتك - فقال خيرون: - لك ثواب حسن نيتك - أعزّك الله - ولا سبيل الى أخذ المال - فقال ابن حبشي : - فخذه مني سَلَفاً ولا تردّه في وجهي - والحّ عليه وجهد جهده في قبوله منه ، فأبَى عليه ولم ياخذ منه شيئاً .

«قال الراوي الناقل لهذا الحديث : « فلا أدري - والله ! - ممن أعجب ? من الذي بذل الف دينار من غير مسالة ، أم من هذا الذي لم يأخذها تعففاً ونزاهة ! (١) »

(١) المالكي ٢ : ٦٥

وبكل أسف لم نقف على تاريخ وفاة (ابراهيم بن حبشي) أما محمد ابن خيرون فانه مات سنة ٣٠٣ (٩٤٥م) وانما سقنا هذه الحكاية - لنبيّن فضل مؤسس هذا القصر ومكارم اخلاقه .

وبعد البحث لم نوفّق الى تعيين مكان هذا القصر بالتحقيق، وربما كان في المسافة الممتدة ما بين سوسة (وشط مَارية) .على ان البكري في مسالكه ذكره واسماه (قصر ابن عمر الاغلبي) بقربة من سوسة ولم يصفه باكثر من ذلك .

الكنائس

في الجهة القبلية - أي في الجنوب الشرقي من سوسة - تجيء قرية (الكنائس) بعد المُرْدين ، كانت ولم تزل قرية صغيرة على طريق المتوجه الى القيروان «ولم نقف لها على ذكر يخصّها » غير ان تسميتها (بالكنائس) تدّل على انه كان يوجد بذلك المكان آثار لمعابد رومانية أو وندالية أو بيزنطية فعرّفها العرب بعد الفتح بهذا الاسم واستمرت تحمله الى الآن

* * *

منزل أبي سعد

وبالقرب من القرية المتقدمة يقع في جهة المُردين (منزل أبي سعد)

كان يسكنه قلّة من الناس الفلاحين (١) وهو منسوب الى رجل ميسور يُدعَى « بأبي سعد » ولا نعلم من حياته شيئاً سوى انه من رجال القرن الثالث للهجرة

* * *

سيدي سهلون

في القريب من أحواز سوسة توجد أرض ومغروسات تُعرف (بسيدي سهلول) وهو بلا شك تحريف عن (سَهْلُون) أي من الاعلام العربية التي آخرها ـ واو ونون ـ وهي صيغة يمنية تَرد في كثير من اسمآء الرجال ، على ان إبدال النون باللّام كثير جداً في اللهجة التونسية

ومن المرجح ان هذا العَلَم ينطبق على فقيهٍ من مشاهير النسّاك الذين كانوا يعيشون ـ في القرن الثالث ـ بناحية سوسة ، وهو : (حمّود بن سهلون) من أصحاب محمد بن عبدوس القيرواني قريب سحنون وتلميذه

وقد أخذ عن ابن سهلون جماعة من الافاضل من بينهم،(أبو اسحاق الجبنياني (٢)) قال أبو القاسم اللّبيدي : « كان أكثر دراسة أبي اسحاق

(١) المالكي : ١ ـ ١٥٥

(٢) توفي الشيخ الصالح ابو اسحاق ابراهيم الجبنياني في بلدته سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) ـ حسبما ذلك في مناقبه التي حررها اللبيدي

الجبنياني بالساحل على ابي عبد الله حمود بن سهلون الفقيه الزاهد (١) »

وكانت وفاة ابن سهلون في خلال سنة ٣٢٧ (٩٢٨م)

* * *

منزل صقلاب

هذا المنزل يقع فيما أظن في ناحية القلعتيْن الكبيرة والصغيرة الآن، حيث توجد غروس الزيتون التي يملكها بعض أهل القيروان من قديم الازمنة . ولم نهتد الى وجه نعت هذا المنزل باسم (صَقْلاَب) غير انا نعرف عالماً من محدثي افريقية المتقدمين ، ممن أخذ عن الامام مالك بن أنس مباشرةً يسمى (صقلاب بن زياد الهمداني) أي ان اصله من عرب اليَمَن ، قال أبو العرب (٢) : وكان من أهل الفضل والاجتهاد في العبادة » وقال المالكي (٣) : « كان إماماً من الائمّة المسلمين ، ماموناً على ما سمع » ومن الحكم الماثورة عنه قوله : « نحن الى قليل من الادب أحوج الى كثير من العلم » . وكانت وفاة صقلاب في خلال سنة ١٩٣

(١) رياض النفوس للمالكي ٢ : ١٢٥

(٢) طبقات ابي العرب : ٦٢ والمالكي ١ : ١٥٥

(٣) المالكي ١ : ٢٥٩

(٨٠٩ م) فيحتمل ان هذا المنزل نسب اليه ، وربما كان اول من سكنه وبنى فيه،ولذا عُرف به ـ وتخميننا هنا مبني على قلة شيوع اسم صقلاب بين الطبقات ولذا فكرنا في انتساب المنزل اليه ، والله تعالى أعلم .

حول هذا المنزل كانت أملاك الامام سحنون، وهي اثني عشر الف عود زيتون. ويخبرنا فُرَات العَبْدي « ان غلة زيتون سحنون كانت خمسمائة دينار في السنة » ويضيف الى ذلك : « وما تنقضي السَنةُ الاّ والديون عليه ، لكثرة صدقاته ومعروفه »[1].

ومن عادة سحنون انه كان يقصد المنزل في كثير من أوقاته قبل ولايته القضاء العام،ويقيم هناك الشهور لتفقد زياتينه ومباشرة خدمتها بنفسه مع بعض غلمانه [2]

وبمنزل صقلاب كان يوجد مسجد صغير مناسب للمكان، وفيه كان سحنون يقرىء العلم على من يقصده من الطلبة ما بين إفريقيين وأندلسيين،وهناك تلقّى يحي بن عمر الكناني دروسه عن الامام سحنون قال يحي : « لما قدمت من المشرق الى القيروان سالت عن سحنون ، فقيل لي : خرج الى البادية ، فمضيت اليه واجتمعت به ، فرأيت

(١) المدارك لعياض ١ : ٢٠٧

(٢) المالكي ١ : ٢٦٥

رجلاً أشقر عليه جُبّة صوف ومنديل ، وهو يتولى حرث ضيعته وأسبابها ، فاستقللته وقلت في نفسي : ـ إنّا لله وإنا اليه راجعون ! جئت من المشرق وخلّفت به العلماء ، وجئت الى هذا الرجل وما أراه يحفظ من العلم شيئاً ولا معه شيء ! » فانزلني ورحّب بي ، فلما كلّمته وسالته في العلم رأيتُ بحراً لا تدركه الدلاء، والله العظيم ما رأيت مثله قط ، كأن العلم جُمع بين عينيه وصدره [1] »

وحدّث عبد الجبّار بن خالد ـ من علماء افريقية ـ قال : « كنا نسمع من سحنون بمنزله فى الساحل فصلّى يوماً الصبح، ثم دخل بيته وخرج علينا وعلى كتفه المحراث ، وبين يديه زوج بقر مقرون ، فقال لنا : « ان الغلام قد حُمَّ ، فانا أريد أن أذهب لاحرث مكانه، ثم أرجع اليكم اذا فرغتُ أسمعكم » قال عبد الجبار فقلت له : أنا أذهب أحرث لك ، وأجلس أنت تُسمِع أصحابنا ، فاذا رجعتُ قرأتُ عليك ما فاتني به أصحابي » قال : فدفع اليّ المحراث،فذهبتُ فحرثتُ،فلما عدتُ أدخلت البقر الدار ، ثم قرأت عليه ما فاتني [2]

فانت ترى من خلال هذه الحكاية البسيطة كيف كان حرص طلبة

(١) رياض النفوس ١ : ٣٤٨

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧

العلم في ذلك العصر على مزاولة الدروس والصبر عليها ، وكيف كان برورهم بشيوخهم - ثم أنظر - يا رعاك الله - الى تواضع علمــــآء السلف الصالح على جلالة قدرهم في مباشرة شؤونهم بايديهم ، وعدم الاستنكاف من الاشغال التي ربما يراها بعضهم مشينة، وبفضل هذه الشمائل الكريمة والاخلاق العالية تسنىّ للامة العربية اذ ذاك أن تفوق غيرها من الامم بحضارة لم يحلم الدهر بمثلها ، وفي ذلك بلاغ .

مسجد عيسى

قرية معروفة كائنة بالقرب من المنستير ، اشتهرت بهذا الاسم لانتمائها الى العالم الصالح (عيسى بن مسكين) ، وأصل هذا الفاضل من من عجم البلاد المقيمين بالساحل ، وكان جدّه الاعلى يُدعى (جُريج الافريقي) ولا نعلم ما كان اسم القرية قبل ذلك .

اما عيسى بن مسكين فانه ولد سنة ٢١٤ (٨٢٩ م) بالقرية المذكورة وقرأ بالقيروان على سحنون وعلى ابنه محمد وغيرهما ، ثم رحل في طلب العلم الى مصر فسمع الحديث من الحارث بن مسكين،ومحمد بن الموّاز ، ومحمد بن عبد الحكم ، وسمع ايضا بالشام ، ثم عاد الى وطنه ،وروى عنه الحديث أفريقيون كثيرون . وقد أطال أصحاب التراجم تعداد فضائله وخصائله .

قال أبو العرب : [١] « كان عيسى من اهل الفضل البارع ، والورع الصحيح ، والصمت الطويل ، ثقة مأموناً صالحا ، ذا سمت وخشوع ، كثير الكتب في الحديث والفقه ، وكان يشبه سحنوناً في هيئته » .

وقال المؤرخ القيرواني أبو علي بن الوكيل : « لو أفردنا كتاباً في ذكر مناقبه ومحاسنه وزهده وورعه وعدله ما انتهينا الى وصفه ، وكان مع ذلك عالماً باللّغة ، قائلا للشعر » [٢]

وقد أجبره الامير ابراهيم الثاني على ولاية قضاء الجماعة برقّادة ، إرضآء للفكر العام،فقبلها عيسى مُكرهاً واشترط شروطا مجحفة على الامير ولم يخالفها .

وتروى عنه حكايات لا تحصى في عدله وخوفه من ربّه ، وأقام تسع سنين في خطة القضاء « ولم يرتزق منها فِلساً واحداً »

ولما تخلّى ابراهيم الثاني عن الامارة لابنه ، واستعد للجهادفي العُدوة الافرنجية، استعفاه عيسى من القضاء ورجع الى قريته المشار اليها.ومن سيرته بعد ذلك انه كان إذا أصبح قرأ حزبه من القرءان ، ثم جلس

---

(١) طبقات علمآء افريقية ص ١٤٢ و١٤٣

(٢) المدارك ، ج ٢ (مخطوط) والديباج : ١٧٩

للطَّلَبَة يروُون عنه الى وقت الظهر ،فاذا كان بعد ذلك دَعَا بنته وبنات أخيه يعلِّمهن القرآن والعلم ـ ،حكى بعض معاصريه . قال : ـ جئت الى عيسى بن مسكين فوجدته جالساً على دُكّانة في المعصرة ، وخادم له يردّ حبّ الزيتون ، والدابّة تطحن ، وهو يقرأ الحديث من صدره ،فقيل له في ذلك فقال : ـ أعرض حديثي لئلَا انساه »

ومن شعر عيسى وقد كبر سِنّه ولازمه المرض :

لما كبرتُ أتتني كل داهية   وكل ما كان مني زائداً نَقُصَا
أُصافح الارضَ ان رمت القيام وان   مَشيتُ تصحبني ذات اليمين عصا

ومن قوله في المعنى :

أصاب الدهر منّي عظيم ساقٍ   به قد كنتُ مَشّاءً جَلِيدَا
الى العلماء أنقلها وأطوي   بها للحاجةِ البلد البعيدا
إذا رجل الفتى منه أُصيبتْ   وطال سقامه أَلِفَ القعودَا
وَصَارَ لبيْتِهِ حلفًا وأمسى   من الاخوان منفردًا وحيدا

ومناقبه كثيرة جداً،وكذا أقواله الحكمية نظماً ونثراً مما يدلّ على مكانته المكينة في اللغة والادب بالاضافة الى الحديث والفقه .

وكانت وفاته في خلال سنة ٢٩٥ (٩٠٨ م) أي قبل سقوط الدولة بعام واحد ، ودفن في منزله بقريته التي تنسب الى المسجد الذي أقامه بها.

وكان لعيسى أخ أصغر منه بثلاث سنين ، هو (محمد) كان لايقلّ عن مرتبة أخيه في الامانة العلمية ، وكان أيضا فصيحاً يصنع الشعر ويجيده ، وتوفي محمد هذا سنة ٢٩٧ (٩١٥ م) بمنزلهم المتقدم .

ومن الاتفاق انه يوجد في دائرة جبنيانة قُبَّة ـ زاوية ـ مشهورة تُدعى (بسيدي عيسى بن مسكين) ويَزعم جميع أهل الجهة أنها تحوي تحتها قبر عيسى بن مسكين،وقد أسلفنا ان أصحاب التراجم المتقدّمين متّفقون كلهم على انه دُفِنَ في قريته المعروفة به (مسجد عيسى) حيث يشاهد ضريحه . ولم نهتدِ من هو دفين القبة التي بناحية جبنيانة ، فنبّهنا على ذلك عسى أن يوفق غيرنا لحلّ هذا المشكل .

قصر لمطة

قصر لمطة يدخل في جملة الرباطات المعتبرة التي أُحدثت في القرن الثالث ، ومعلوم ان لمطة هي تلك البليدة الجميلة من دائرة سوسة ، وهي المشهورة في الساحل بمنسوجاتها القطنية ذات الالوان اللامعة البديعة.

ويرجع تأسيس البلدة الى العصر القرطاجني ، أي الى ما يقرب من الفيْن وخمسمائة سنة ، ويدلّ على ذلك اسمها القديم (لبطة : Lepta) وقد قُلِبت لامها مِيماً في العصر الاسلامي ، فصارت تلفظ (لَمْطة)

وكثيراً ما تذكر في تاريخ تونس القديم ، أي في المدة الرومانية،وكانت تعرف باسم (لبطَـة الصغـرى : Lepti - minus) للتفرقة بينهـا وبين (لبطة الكبرى : Lepti major) وتُنعت اليوم (بِلَبْدَة) بليدة في ناحية برقة من المملكة الليبية .

ومهما يكن فان (لَمْطَـة) التونسية اشتهرت في العصر الاغلبي برباطها المعروف (بقصر لمطة) الذي أمر ببنائه الامير أبو ابراهيم احمد قبيل منتصف القرن الثالث ـ حوالي سنة ٢٤٥ (٨٥٩ م) ، وربما كان المشرف على تشييده هو خادمه (فَتَاتَة) الذي اسلفنا خبره .

ورابط بقصر لمطة جماعة من العلماء والعبّاد ، منهم (أبو هـارون الاندلسي) فانه أقام فيه دهراً طويلا منقطعاً للحراسة والاعتـكاف . ومن اخباره انه كان يحبّ أكل الحوت المعروف منقديم باسم (القَلّقط) وهو مما يصطاد بالمنستير ، فكان المرابط يرسل من يأتيه بشيء منه ، وهذا النوع من السمك مازال يعرف باسمه في البلاد التونسية الى اليوم. وابو هارون المتقدم من رجال القرن الثالث [١] .

ولم تزل بقايا (قصر لمطـة) قائمـة الذات ، يحيط بها سور مربّـع الاضلاع ، بداخله عدّة حُجرات لمأوى العبّاد على طراز رباط سوسة،

(١) راجع رياض النفوس ١ : ٤٢٢

غير ان انقاضه في الحالة الراهنة اعتراها الوهن والسقوط ، وتصدّعت أركانها ، وأقيم في جنباته بيوت لمصالح اهل البلد ، ولم يبق منه سوى أحد أبراج زواياه الابع ، وهذا البرج في غاية الحصانة ومتانة البناء، مما يدلّ على ضخامة المنشآت الاغلبية .

وقد حاولت فى وقت ما إصلاح ما فضل من انقاضه بإعانة بعض أفاضل البلد ، فلم تسمح الظروف بذلك ، واني لأرجو ان يُعنَى به فيما هو آت من الزمان ويتمّ ترميمه كما يجب ، لروعة هذا الرباط الذي قام بمهمّته الحربية أحسن قيام ، ودافع امداً طويلا عن سواحل الوطن، بالاضافة الى جمال هندامه وبديع هندسته المعمارية ،

* * *

هـرقــلة

هي من مـدائن الساحل التي يعود نظرهـا الى سوسة ، وبينـهما مسافة يسيرة ـ ١٨ كيلو ميتر تقريباً ـ وكان اسمها يُكتب (أهريقلية) لان تعريفها قبـل الاسلام كان (Horrea Caelia) ومعنـاه : هُرَى الحبوب التي تملكها أُسرة (كيلية) الرومانية . وفى رواية أخرى انها تنسب الى هِـرَقـل (Heraclius) قيصر القسطنطينية مثلمـا تنسب (هِرَقْلية : Heraclée) المدينة الموجودة بآسيا الصغرى ، وقد يسميها الاتراك اليوم (Eragli) .

مرّ عليها التجاني في رحلته فقال : « هي قرية كبيرة على سفح جبل على البحر وأهلها يزعمون انهم من العرب »[١] .

ويوجد بها جامع عتيق يلاصقه رباط غير متسع ، وكلاهما مبني بالحجارة القوية ، والظنّ الغالب انها من مؤسسات الامرآء الاغالبة ، كسائر الحصون والمحارس التي على البحر ، وتقدّم لنا ذكر القنطرة الواقعةعلى الطريق الموصلة الى سوسة ، وهى بلا شك من محدثات بني الاغلب .

ومن مشاهير من يُنسب اليها : (أبو زكرياء الهِرَقْلي) ولا نعرف من اسمه اكثر من ذلك « كان فى صغره يصاحب سحنوناً لا يفارقه جلوساً وحديثا ، فلما وُلِيَ سحنون القضاء ترك ابو زكرياء صحبته وَصدّ عنه تورُعاً منه » والتحق بسكنى رباط بلده ، وربما عالج شيئاً من فلح الارض للقيام بنفقته وشؤون نفسه .

يُحكَى ان سعدون الصوّاف - وهو ايضا من العباد الناسكين -كان شريكا له في زراعة الشعير ، فلما حُصِدَ الزرْع وصار في الاندر أقبل سعدون مرة للمزرعة فرأى حماره مقيّداً بجنب الاندر يتناول علفه منه ، ورأى حمار شريكه ابي زكرياء مبعداً عنه ، فعاتب سعدون أبا زكريا في ذلك . فقال له : - اني اختبرت - أكْلَ حماري وحمارك،فوجدت حماري آكل من حمارك.فقال

(١) رحلة التجاني ص ٢٤

سعدون: « إذن يحلّل بعضنا بعضاً ! »ثم قسَما ماحصداه من الزرع بينهما[١]

وهنا تأتي الاشارة الى حادث من الاهمية بمكان،فقد روى المالكي[٢] باسناده ان أبا زكرياء الهرقلي ممن غزا مدينة (رومة) مع صاحبه المرابط ابي ابراهيم الُخرَاساني، وانهما شاركا في الحملة التي سنقص خبرها، فقيل ان بعض المرابطين كانوا يحرسون نواحي العاصمة المسيحية الكبرى إذ خرج عليهم عِقْدٌ من الروم فدفعوا دفعة واحدة برماحهم فقتلوا ابا ابرهيم الخراساني ، فجعل ابو زكرياء الهِرَقلي يقول : « يارَبّ ! خرجت أنا وصاحبى في حاجة (يعني : الاستشهاد) فقضيتَ حاجتَه وتركتَ حاجتي ! » فحملت عليه فرقة من عساكر الروم فقتلوه بعد صاحبه » وحكى من حضر الوقعة ، قال : - نظرتُ اليه والى أبي ابراهيم ووجه هذا الى وجه هذا[٣] »

(١) طبقات ابى العرب

(٢) رياض النفوس للمالكى ١ : ٣٢٣

(٣) علق صديقنا الاستاذ حسين مؤنس ، ناشر « رياض النفوس » على هذا الخبر ، فظن ان الوقعة التى استشهد فيها أبو زكرياء ورفيقه ربما كانت في (روطة) اسم نهر كبير يمر بالقرب من (بلرم) قاعدة صقلية ، إلا ان نص المالكي يسمي المكان (رومة) وكأن الاستاذ الناشر لم يقف على خبر غزوة الاغالبة لعاصمة المسيحية الكبرى ولذا حول اسم مكان الحرب الى (روطة) - فان صح ما ذهبت اليه من انها (رومة) كما رسمها المالكي ، فيكون هذا خبر اشير فيه الى تلك الغزوة التي غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، حسبما نبينه بعد في محله ،

زَرْمَدِين

هي من القُرَى الآهلة بالقرب من جمّال ، كان بها حِصن اسفله مبني بالحجارة واعلاه بالطين ، ياوي اليه السكّان عند الشدّة وهجوم قُرصان الافرنج على الساحل .

قال التجاني [1] : « وبخارج القرية مقبرة الشيخ أبي محمد عبد السيد الزرمديني من اهلها ، يذكر عنه صلاح وفضل كثير » . وليس لدينا من المصادر ما يثبت أن زرمدين كانت موجودة في ايام الاغالبة ولا ما ينفيه ، ولو نبّه التجاني على تاريخ وفاة الشيخ عبد السيد لكنا نتبيّن قِدَم القرية .

* * *

الوردانين

ومن منازل الساحل المذكورة في العصر الاغلبي قرية (الوَرْدَانين) وكان بها قديماً مسجدٌ جامعٌ وكتاتيب وحمّام وسوق أسبوعية ،

(١) رحلة التجاني ص ٥٥ و٥٦

واشتهر من سكانها الشيخ (يونس بن محمد الورداني) قرأ بالقيروان على كبار تلاميذ سحنون، واتقن العلوم الشرعية واللسانية، فلما امتلك عبيد الله الفاطمي أمر افريقية اخذ يطالب اهل الفضل والدين بتقليد مذهبه الشيعي ، فخاف الشيخ يُونس على نفسه من الفتنة فتحوّل الى اهله بالوردانين ، وعزم على الاختفاء وإخمال ذكره ، فصار يرعى البقر ، فاذا أصبح اخذ مصحفه وجعله في مخلاة وتقلد بها وساق البقر الى ان يبعد عن العمارة ، وأقبل على تلاوة القرآن ومراجعة الدواوين العلمية التي تلقّى سماعها عن شيوخه ، فراجعها النهار أجمع ، فاذا أمسى واختلط الظلام أقبل بالبقر على منزله . كان هذا دأبه حتى توفي ـ رحمه الله ـ في خلال سنة ٢٩٧ (٩١٠ م) وما زال قبره معروفاً يزار بالوردانين [1] .

السيادة البحرية

ان فتح الاغالبة لجزيرة صقلية يعدّ من أجلّ غزوات الافريقيين، ومن أعظم الحوادث في التاريخ العربي عموماً ، إذ باستيلائهم على تلك الجزيرة أصبحت مقاليد الجانب الغربي من البحر المتوسط في تصرفهم

(١) المالكي ٢ : ٢٨ ـ والمدارك لعياض ٢ : ٣١ (مخطوط)

ولم يبقَ مَن يسيطر عليهم فيه ، وصارت الهيمنة الكاملة لسفائنهم على هذا البحر مع ما يتبعه من المخانق والمجازات ، وبذلك تسنّى للاغالبة مدّ سلطانهم على بحر (تيرينيا) مع مـا يلتحق به من المقاطعات الشاسعة مثل (قلورية ـ Calabria) و (أكُمْبَرده Lombardia)

ولا خفاء ان هذه الفتوح المتوالية سمحت للدولة الاغلبية بالتدخّل الفعلي في الخلافات القائمة بين رؤساء تلك الامارات المسيحية ، وحسم النزاعات التي تحدث بينهم، وبالفعل كان زُعَماؤهم يلتجئون الى الامير الاغلبي لفضّ مشاغباتهم بصفته الحكم الفَصْل الذي يصدر أحكامه ويرضى بها الخصوم عن طيب نفس وطواعية (١)

وما هذا الا مظهر واضح من عظمة بني الاغلب وانتشار نفوذهم وحسن تدبيرهم لسياسة الملك .

على ان نشاط الاسطول الاغلبي العتيد لم يقف عند ذلك الحدّ بل انه أخضع غالب سواحل خليج البَنَادِقَة (البحر الادرياتي) ايضا، وتمكّن من الاستيلاء على مدينة (باري : Bari) في سنة ٢٢٥ (٨٤٠) في ولاية أبي عقال الاغلب بن ابراهيم الاكبر ، وقد اتخذ هذه المدينة قاعدة حربية ومرسى لسفائنه في تلك الجهة لمدة طويلة .

---

(١) راجع « تاريخ العرب » لفيليب حتى ص ٦٠٤

اما الناحية الغربية من بلاد ايطاليا فقد سيْطر عليها الاسطول الافريقي عندما استنجد سكّان مدينة نَابُل (نابولي : Napoli) بالقوات الاغلبية ضد جيرانهم الافرنج المعادين لهم في سنة ٢٢٢ (٨٣٧م) في ايام زيادة الله الاول ، فبقيت المدينة في ايدي الافريقيين دهراً طويلا .

ولم تزل الغزوات الاغلبية تتوالى على شواطيء ايطاليا وتتداول بكرة وعشية الى ان كانت الحملة الكبيرة على مدينة (رومة Roma) كما سنذكره.

ونقف هنا لحظة قصيرة لنؤيد نظرية ابن خلدون (١) من ان سلطان العرب كان سائداً ومهيمناً على ضفاف البحر المتوسط ما دامت الشعوب العربية متجهة باهتمام الى شأن الاساطيل واعدادها وتعبيتها بالرجال الانجاد والسلاح مثلما شاهدنا في مدة الدولة الاغلبية ، وان العرب ما فقدوا السيادة والسيّطرة إلاّ من يوم استهانوا بوظيفة السفائن القوية، وتدريب بَحَّارتهم على ركوبها وتسييرها، وبالجملة بممارسة شؤون البحر،

مَوَاخرُ في طامي العُبَاب كأنها   بِنَاءٌ على غير العَرَاءِ مَشيدُ

فادَّى بهم هذا الاغفال ـ بل الاهمال ـ الى تيقّظ غيرهم من الامم الافرنجية المصاقبة لعُدْوَتهم الافريقية، واجتهاد تلك الامم المتتابع لانشاء مراكب ذات العـدَّة والعدد ، فلما تمَّ لهم أمرها واشتدت شوكتهم أزهصوا

---

(١) راجع فصل : (قيادة الاساطيل) في المقدمة

بواسطتها قوة الشعوب العربية وزحزحوهم عن تفردهم بالسيطرة البحرية ، وافتكّوا منهم سيادتها قهراً ، وحملوا بعد ذلك على المشرق بالحروب الصليبية المشهورة،وعلى المغرب العربي بالاستيلاء على جانب كبير من سواحله .

ولا ريب عندي انه لو استمرت عناية الممالك العربية في المغرب بشأن الاساطيل وشؤون البحر على الصفة التي شبّت عليها من أول أمرها لسادت على غالب القارة الاروبية ، ولما كان يستحيل عليها اكتشاف القارة الامريكانية بمئات من السنين قبل وصول (كُلُومبوس) اليها في آخر القرن الخامس عشر للميلاد . لكن للاقدار حساب غير الذي يودّه الانسان ويرجاه .

* * *

غزوة رومة

وهل أذكّركم بالغزوة البحرية التي امر الامير ابو العباس محمد بن الاغلب بتجهيزها ضدّ مدينة (رومة) عاصمة المسيحية الكبرى ، فانه عبّأ جيشا قوياً حمله على اسطوله ، واخرجه من سوسة في خلال سنة

٢٣٢ (٨٤٦م) ، وبعد ان قطع البحر أرسى بجنوده على مَصَبّ نهر (تيبري : Tivere, le Tibre) الواصل الى رومة ، وقد انظمت الى هذا العسكر قُوّات بريّة وبحرية اخرى هيأها والي صقلية الاغلبي باذن من الامير ، وارسلها نجدة له ، فالتحقت به ، ومن مدخل النهر انتشر الجيش الافريقي في ضواحي العاصمة واحتلّ الحصون المحيطة بها الواحد تلو الآخر الى ان بلغ أسوار المدينة فاقتحمها عنوةً بعد مشادّات شاقّة ومقاومة عنيفة ، وهاجم الكنيسة الكبرى المنسوبة الى القدّيسَيْن (بطرس وبولس - Eglise de St Pierre et St Paul) وحاز ما فيها من الذخائر والتُحف والاعلاق النفيسة ، فكانت من اعظم الغنائم في التاريخ الافريقي .

وظل الجيش الاغلبي يتردد بين المدينة واحوازها نحواً من شهرين كاملين ، وفي خلال تلك المدة أقام الافريقيون رباطا حربياً صغيراً على مصب نهر (تيبري) لمراقبة الصادر من العاصمة الكبرى والوارد عليها ، ومازالت بقايا هذا الحصن تشاهد هناك. ثم توافدت النجدات المسيحية من جميع الامم الافرنجية باستدعاء من البابا، فاضطرّ الجيش الاغلبي واسطوله الى مغادرة البلاد والعودة الى وطنه ، وحلّ بسوسة واعلامه تخفق بالنصر ، فتلقاه الامير ورجال الدولة وأعيان الناس في حفل بهيج .

وفي الواقع ان هذه الحملة ما كانت الاَّ ردَّ فعل للمهاجمة الشنيعة التي دبّرها سكّان أواسط البلاد الايطالية ضد الساحل التونسي - بسنة أو سنتين قبل هذا التاريخ،فقد باغتوا شواطىء الساحل ليلاً واحاطوا بالسكّان في منازلهم المتفرقة عن بعضها واسّروا منهم عدداً كبيراً ساقوهم عبيداً أرقاء الى بلادهم وباعوا جانباً وافراً في اسواقهم ؛ علاوة على ما نهبوا من الارزاق والمرافق والاقوات ؛ ولما بلغ الخبر الى الامير محمد ثارت ثائرته وعزم على اخذ ثار الافريقيين بتجهيز حملته المتقدمة.

ولا خفاء ان هذه أول مرة فى التاريخ تحتلّ فيها (رومة) المدينة الأزلية كا تنعت عند الافرنج ، وتبقى فى حوزة الافريقيين مدة من الزمن ، ولم يتسنّ لأمة من الامم - قبل الاغالبة - الاستيلاء عليها وذلك منذ انتصاب المسيحية بها ، لا فيا مضى ولا بعد .

وهكذا تتتابع الغزوات البحرية في مَدٍّ وجزر بين طَرفي العدوتيْن المتقابلتين ، يعني افريقية وايطاليا وماجاورها من الناحية الشمالية ، ولهذا السبب نفسه نرى العناية الزائدة التي اظهرها بنو الاغلب لتحصين أرض إمارتهم بإقامة المحارس والرباطات للدفاع عن كيَّان البلاد ومقاومة نوايا الروم والافرنج الهجومية .

وانى لأعجب كل العجب كيف يُهمل مؤرخونا القدامى ذكر هذه

الغزوة مع ما تكتسيه من الاهمية ومن الصدى البعيد في اخبار تونس فاني لم ار مَن تعرَّض لها ولو باشارة بسيطة ، ولولا المصادر الافرنجية القديمة لما كنا لنهتدي لها [1] اللهم الّا ماروى المالكي [2] من استشهاد المرابطيْن أبي زكرياء الهرقلي وأبي ابراهيم الخراساني في حرب رومة ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على هرقلة .

ويقيني ان الاعمال الجليلة الصادرة عن الدولة الاغلبية قد أحيط بها غشاوة كثيفة من الاغفال المقصود من جانب الملوك الفاطميين المتولّين بعدها ، وكذا من طرف الاخباريين المتشيعين لهم لطمس اعمال من سلفهم حتى لا تبقى مزيّة في التاريخ الّا لساداتهم ومخدوميهم ، ويكفينا شاهداً على ذلك ما أمر به المهدي عبيد الله الفاطمي من إزالة اسماء الاغالبة وغيرهم من المعالم التي انشأوها ، وتعويض ذلك باسماء المهدي والقابه،لكن الابحاث الاثرية تابى - ويأبى الله - إلَّا ان ينكشف هذا العمل السخيف ويرجع الفضل الى ذويه .

---

(١) راجع البحث المخصص لهذه الغزوة وما قيل فيها فيما نشره :
PH. Lasser - le Poème de la destruction de Rome - Mélanges de l'Ecole de Rome ,vol XIX 1899, p.p. 307 et suiv.

(٢) المالكي ١ : ٣٢٣

الفتيان المَوالي

نود ان نختم هذه العُجالة بكلمة موجزة عن أعوان الاغالبة ، وعن الدور الكبير الذي قاموا به في مدّتهم ، فقد كان للدولة عدد لا يستهان به من اتبـاع يُنْعتون (بالفتيان) وهم مماليك يشتريهم الامراء من الصقالبة ـ من الجنس الجرماني أو الروسي ـ أو من الصقليين ، سكّان جزيرة صقلية ، ويدخلونهم صغـاراً الى قصورهم ، ويستخدمونهم في شؤونهم الخصوصية ، ويدرّبونهم من زمان الطفولة على أشغال قصورهم ومنازلهم ، وبالتدريج يقرّبون اليهم مَن ينبغ منهم فيرقّونهم الى مباشرة بعض الشؤون الادارية،فمتى ظهـر النشاط على بعضهم وتمحّض إخلاصهم فيما يُناط بعهدتهم ، يقرّب الامراء منزلتهم ، ويستكفون بهم فى مهـمّات الامـور ما عدا ماله علاقـــة بقيادة الجيوش فانه كان من خصائص ابناء الأُسرة المالكة أو بعض أقـاربهم التميميين ، وفـيما سوى الاعمال العسكرية فـان الامراء كانوا يختـارون اولئك الفتيان لادارة بناءاتهم وانشاءاتهم .

والسّر في التجائهم الى مماليكهم دون سواهم من الاتـباع في القيام بصالح الدولة : هو ان اولئك المماليك الفتيان لم يكن لهم اتصال بأهل البلد ، لانهم غرباء عنه ، لا نسب يربطهم بالسكّان ، فلا يخشى اولو الامر غائلتهم او التآمر مع الاهليين ضد الحكومة القائمة .

وكان الامراء يجتهدون في تعليم الفتيان منذ انخراطهم في حاشيتهم ويهتمّون بتهذيبهم ، ويكلّفون من يلقّنهم تعاليم الدين،فينشأ الفتى على محبَّة الدولة ، والصدق في خدمتها، والدفاع عن كيّانها اذ كانت المحسنة اليه والحاضنة له

ولم يكن بنو الاغلب مبتدعين لهذا السلوك ، بل ان جميع الدول القديمة كانت تتبع هذا المنهج الذي استعمله قدماء المصريين ،والرومان، والبيزنطيون ، ومن دول الاسـلام بنو أميّـة في الشام وفي الاندلس، وكذا بنو العبّاس في العراق وسائر الممالك الاسلامية المتقدمة والمتأخرة

ويسوقنا الحديث هنا الى ذكر بعض المشاهير من بين الفتيان الذين شاركوا مشاركة فعلية في مساعدة الامراء على انجاز الكبير من الاشغال الهامّة التي قامت بها دولة بني الاغلب .

ففي مدة ابراهيم الاكبر كان وكيله في المهات « أبو عمران موسى » و « مسرور » في ايام زيادة الله الاول ـ و « خَلَف » و « مُدَام » في مدة ابي العباس محمد وابنه احمد ـ و « فَتَاتة » ايام ابي عقال الاغلب ـ و« حَسَن» في دولة ابي الغرانيق محمد بن احمد ـ وكل من « بَلَّاغ » و « شُكر » و «خضر» فى ولاية ابراهيم الثاني ـ و« خطّاب » و « فتوح » على عهد زيادة الله الثالث آخر الاغالبة . وهناك غيرهم كثير أغفلنا تسميتهم خوف الاطالة .

وما من واحد من هؤلآء الفتيان الموالي الّا وقد تولّى الاشراف على الاشغال البنائية على اختلاف اجناسها وانواعها مما أمر به الاغالبة ، وقد تولى اعيان من الفتيان النظر الأعلى على دار ضرب المسكوكات، الى غير ذلك من مهمّات أُمور الدولة ولم يستثنَ عن نشاط اعمالهم سوى رئاسة الجيوش كما قدّمنا .

والملاحظ ان جلّ هؤلاء الفتيان قد حافظ على لغة قومه الاصلية ، وهي في الغالب اللاطينية المتأخرة الزمان (le bas latin) فكثيراً ما كان الامراء الاغالبة يشاركونهم في التكلّم بها ، وقد لقنوها عنهم او عن غيرهم حينما كانوا يقيمون بصقلية فمن الامراء المتولين: ابراهيم الثاني وابنه عبد الله ، وحفيده زيادة الله الاخير ، فإذا ما اراد الامير ابداء سِرٍّ لفتاه بحضور من لايودّ ان يفهم قوله، كلّمه بتلك اللغة وأمره بما يشتهي.

وطالما كانت اسماء الفتيان تُرسم في قفاء المسكوكات الاغلبية من ذهب وفضة ، لانهم كانوا نظّار دار الضرب،اما الوجه الاول فلا يحمل غير اسم الامير الآمر بالضرب .

وهكذا تظهر معاضدة اولئك الموالي لرجال الدولة الاغلبية في اعمالهم واشغالهم المهمّة ،ولا نشكّ ان عدد الفتيان قد بلغ في مدة بعض الامراء الى ما يقدّر بالف فاكثر .

الحكم الشوري في سوسة

بذلت الجهد في هذه الورقات لبيان ما تفرّدت به سوسة عن بقية المدائن التونسية من المعالم ذات الشان، وهناك ايضاً مظهر آخر من حياتها السياسية نود الاشارة اليه ، وان لم يكن تاريخه داخلاً في العصر الاغلبي الذي خصّصنا له هذا المقال .

ذلك ان جميع المدائن التونسية خرجت عن سلطة الدولة الصنهاجية التي لم يبق بيدها الا رقعة المهدية ، عقيب انتشار زحفة بني هلال ،وقد تزعّم الرئاسة بكل مدينة من القطر ثائر استبد بأمرها المطلق ، وانشا دوَيْلة صغيرة توارث ابناؤه ملكها من بعده ، وهذا النوع من الحكم هو الذي عرفه غالب العالم الاسلامي في تلك الفترة من الزمان،وأُطلِق عليه اسم (عصر ملوك الطوائف) سواء بالاندلس او بغيرها من بلاد المشرق،وقدتمّ ذلك في خلال القرن الخامس وجانب من السادس للهجرة.

وشذّت مدينة سوسة ودائرتها عن اتباع هذا المنهاج ، فانها ـ وان استقلت عن دولة صنهاجة المركزية ـ الّا انها لم تتخذ كغيرها أميراً

مستبداً يدير شؤونها بما توحي اليه نفسه الامّارة ، بل انها اختارت لنفسها نوعاً من شكل الحكومة الشورية ،وهو صنف من النظام الجمهوري.

قال ابن خلدون[1] : « لما تغلّب العربُ على إفريقية ، وانحلّ نظام الدولة الصنهاجية، وارتحل المعز من القيروان الى المهدية ، انتزى الثوّار في البلاد ، فغلب حمّو بن مليل البُرغواطي على مدينة صفاقس وملكها سنة احدى وخمسين واربعمائة ، وخالفت سوسة وصار أهلها الى الشورى في أمرهم . »

ومعنى هذه الشورى ان اهل سوسة لما بدا لهم الخروج عن السلطة الصنهاجية المنحازة بالمهدية وما جاورها ، اختاروا لبلدهم هيئة حاكمة منهم ، فانتخبوا من بين أفراد السكّان اثنى عشر شخصاً توفّرت فيهم شروط اللّياقة والنزاهة والحنكة والاخلاص ، وأقاموا بينهم مجلساً استشارياً يدير شؤون مدينتهم ، ويرعى مصالحها الداخلية والخارجية بموافقة سكّانها وبعد أخذ رأي جمهورهم . »

قال التجاني : [2] « وقد خالف أهل سوسة ايضاً على المعزّ بن

(١) المقدمة

(٢) رحلة التجاني ص ٢٩

باديس صاحب افريقية سنة ٤٤٥ (١٠٥٣ م) ومنعوه ما كانوا يحملون اليه من مال الخراج، وقالوا نحن اولى به لنذبّ به عن بلدنا ، وتوفيت أخت المعزّ عندهم فضمّوا أموالها ، وأبوْا من توجيهها اليه ، فبعث المعزّ اليهم في ذلك فقالوا لِرُسُلِهِ : كيف ندفع له اموالًا نتقوى بها نحن عن مدافعته وحربه ؟ »

وعبثاً حاول المعزّ بن باديس استرجاع سوسة الى حظيرة ملكه المتناثر ، فلم يقدر . ودامت سوسة تحت النظام الشوري الذي اختارته لنفسها مدة سنوات لم يشاغبهم مشاغب ، وموارد دخلها وخرجها كالمعتاد في وقت السلم ، وتجارتها البحرية مع بقية المرافيء في البحر المتوسط مستمرّة كاحسن ما يكون

ولاول مرّة في تاريخ تونس الاسلامية نرى مدينة تعلن استقلالها، وتتخير لنفسها حكومة استشارية لا دخل للحكم المطلق فيها ، بل هي ترتكز على اختيار منتخبين من افراد الشعب لادارة البلد والذود عن حوزته بما يوافق منفعة السكّان ويلائم رغبتهم ، وهذه هي أصول الحكم الجمهوري في القديم والحديث ، وهذا ما اتيح لسوسة ان تجهر به منذ ما يقرب من الف سنة .

نعم ! ضيعت سوسة بعد دهر هذه الظاهرة من الحكم الجمهوري

وخضعت بالضرورة لسيطرة ملوك الاطلاق كغيرها من المدائن ، لكن يكفيها فخراً أن أحيتْ ـ ولو برهة من الزمان ـ سنّة مجيدة هي مطمح الانسان منذ فجر البشرية .

* * *

وهنا تنتهي بنا قصة (سوسة الاغلبية) وهي ـ كما رأى القاريء ـ صحيفة من أفخر صحائف الحضارة العربية في المغرب باسره ، تلك الصحيفة التي رُسم عليها بحروف جليّة وضّاءة :

كأنّها أحرفٌ برقية نَبَضَتْ   بالسِلْكِ فانتشرتْ بالسَّهْلِ والعَلَمِ

فانها أتت ناطقة بتحقيق الذاتية التونسية على يدي أعياص الاغالبة الميامين ، بعد ماخَفَقَتْ راياتها عاليا على جانب عظيم من لَبَّات البحر المتوسط ، معلنة باستقلال تونس ، وبوحدة تونس ، وبعظمة تونس :

وإذا عظّم البلاد بنوها   أنزلتهم منازل الاجلال!

* * *

واني لارجو ـ في خاتمة هذا العمل ـ أن تعتبرَ سوسة مجهودي المتواضع لاحياء ذكرى معاهدها الفاخرة ، كعربون ودٍ أقدّمه الى أهلها الافاضل ، لا سيما وقد تربطني بهم صِلَةُ رَحِم دائمة ، ووصلة بمتحفها الاسلامي قائمة .

نخبة منْ رجال سُوسَة الأغلبيّة

تمهيد

رأينا من الفائدة التاريخية أن نلحق بهذا البحث موجزا يشمل تراجم بعض المشاهير من أبناء سوسة في المدة الاغلبية ما بين علماء عاملين ، وعبّاد مرابطين ، أوقفوا أنفسهم للدفاع عن منعة البلاد ، ونفع العباد ، سواء أكان بنشر العلوم والتاليف فيها ، أو بسلوك طريق الزهد والتقوى لإنارة السبيل لغيرهم في التجرّد لصالح الاعمال.

وقديماً قال الزاهد الورع الشيخ أبو اسحاق الجبنياني : « لقد أدركتُ هذا الساحل وما منه قَرية إلاّ بها رجل أو اكثر من أهل العلم ومن أهل القرآن ، أو رجل صالح يزار » (١)

---

(١) مناقب أبي اسحاق الجبنياني (مخطوط بمكتبتي)

فمن خلال أخبار هؤلآء الافاضل يستبين القارىء الكريم نظام البيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها ، كما يتّضح له سعيهم الحثيث لتكوين وسط منشاه الدين الصحيح ، ومبناه حبّ الخيْر للغير ، واتصافهم بالغيْرة والرغبة الحقّ للحفاظ على كِيّان الوطن ، والتفاني في الدفاع بالنفس والنفيس عن حراسة قاطنيه ، وبذلك قد أثبتوا كيف تجب التضحية ، ويعمّ نكران الذات في سبيل جلب الخير والنفع للعموم

فعسى أن يكون في ذكراهم موعظة حسنة لابناء البلاد ، واسوة للاقتداء باخلاصهم في العمل ، وانقطاعهم لاعلاء شأن الوطن الذي اختاروا سُكناه ، مما يرضي الله تعالى والناس أجمعين .

ونفتتح هذا الفصل بترجمة عالم سوسة بلا مُدافع وقطبها النيّر : يحي بن عمر الكناني ، وان لم يكن أقدم رجالها تاريخاً . ثم نذكر بعده غيره من مشاهير علمائها ونسّاكها ، ان شاء الله تعالى .



يحي بن عمر

هو يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكِنَاني وكنيته ابو زكرياء ، والى جدّه الاعلى عامر ينسب (باب عامر) بقرطبة ، وفي هذه المدينة ولد يحي في سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقرأ بالاندلس على جماعة من علمائها منهم عبد الملك بن حبيب وغيره ، ثم تاقت نفسه الى الزيادة من العلوم الفقهية ، فسافر بحراً الى الشرق وادّى فريضة الحج ، وعاد بعدُ الى مصر فاقام بها مدة اخذ فيها عن مشاهير محدّثيها وكبار فقهاء المالكية يحي بن بُكير ، وأصبغ بن الفرج، وعبد الرحمن بن عبد الحكم ، ثم تحوّل الى افريقية وقصد القيروان للسماع من الامام سحنون، فوجده بمنزل صقلاب في الساحل يباشر املاكه وزيتونه، فالتحق به يحي هناك وروى عنه « مدونته » وكذا « موطأ مالك » وغيرهما من اصول الفقه ، وصاحبه مدة وصار من أجلّ محبّيه الراوين عنه .

وفي أصل بحثنا هذا اوردنا كثيراً من الاخبار التي تشير الى سيرة يحي بن عمر واعماله واقواله ، فلتراجع في محلّها . ونقتصر هنا على ايراد بعض احداث تزيدنا معرفة بهذا العالم الصالح .

ويظهر ان أسرته التحقت به فجاءت من الاندلس واستقرت

بالسُّكنى معه في سوسة ، ومن جملة أفرادها اخـوه الاصغر محمـد ، وكان ايضاً عالما أديباً وله مواقف مشرّفة حين ابتلي أخوه يحي بالمحنة في القول بخلق القرآن :

ومن المناسب ان نورد شهادة المعاصرين في سيرة يحي واعماله .

قال ابو العرب التميمي في حقه : « كان يحي إماماً ، ثبتاً ثقة ، كثير الكتب في الفقه والآثار ، ضابطا لما روى ، عالما بكُتُبه متقناً ، شديد التصحيح لها عن ايمة اهل العلم ، وإعداده في كبار اصحاب سحنون وبه تفقّه . »(١)

وقال ابن حارث الخشني : « كان يحي مقدّما في الحفظ ، وسكن مدة القيروان فشرفت بها منزلته عند العامة والخاصّة ، ورحل الناس اليه فكانوا لا يروون المدونة والموطأ الاّ عنه (٢) .

وقال تلميذه عبد الله الإبيّاني ـ دفين فحص (مرناق) بالقرب من تونس : « ما رايت مثل يحي في علمه وورعه ، كان حريصاً على اهل العلم ، يحرّض طالبه ويشرّفه ، والوصف يقصُر ـ والله ـ عن يحي وفضله ، وما يجهل أمره الاّ جاهل ! » (٣)

وقال يحي الكانشي: « ان يحي انفق في طلب العلم ستة الآف دينار ».

---

(١) المدارك للقاضي عياض (مخطوط)
(٢) المدارك ج ٢
(٣) المصدر المتقدم

وكان الامير ابراهيم الثاني دعا يحي الى قضاء افريقية وألحّ عليه في القبول فدلّه يحي على عيسى بن مسكين فولاّه ، وسلِم هو تورّعاً .

وليحي مؤلفات كثيرة في مسائل من العلم ؛ قال الطبيب القيرواني الشهير احمد بن الجزّار في تاريخه : « له من المصنفات نحو الاربعين جزءاً » نذكر منها كتاب « الردّ على الشافعي » وهو من معاصريه ، وتآليفه في أصول السُّنن منها كتاب « الميزان » ، وكتاب « الرواية » وكتاب « الوسوَسة » وكتاب « أحكام السوق » وهي الحِسْبَة ـ وهو عندي مخطوط ، وربما هو الوحيد الواصل الينا،وهو غاية في التحرّي والورع الشرعي .

ومن مؤلفاته : كتاب « النساء » ولا ندري محتواه،وكتاب « الردّ على الشكوكية » وكتاب«الردّ على المُرجئة» وكتاب «أحمية الحصون» ويعني بها أحكام الارض المحيطة بالرباطات والموقوفة عليها وكيف يجب التصرف فيها . ونختم هذه الجملة بتصنيفه المعنون « بفضل المنستير والرباط » ويا حبّذا لو كان موجوداً لاستفدنا منه الكثير .

والّف يحي كتاباً في النهي عن حضور « مسجد السَبت » وكان مسجداً (بربض المفلس) بالقيروان يجتمع فيه كل سبت طائفة من اهل التصوف والرقائق وتُنْشَد فيه اشعار الزهد . وبظهور هذا الكتاب

حمل على يحي جماعة من المتصوفين بالنقد الشديد فلم يتزحزح عن موقفه من انكار اعمالهم .

ومما يُروى عن يحي قوله في النصيحة لاحد تلاميذه: « لا ترغب في كثرة الاخوان ، فكفى بك من ابتليت بمعرفته ان تحترس منه ! » حكمة بالغة لو تيسّر العمل بها .

وحدّث خلفون التونسي المتعبد بالمنستير ، قال : « كان يحي بن عمر ياتي الينا الى المنستير ، يصوم رمضان ، وكان يحدثنا ، فمما حفظت عنه انه قال - يرفع الحديث - : « ان الله تبارك وتعالى يقول : - يا عبدي ، تعمل عمل الفجّار ، وتطلب منازل الابرار ؟ انك لا تحصد من الشّوْك الرُّطب ، كذلك لا تنال الفُجَّار منازل الابرار . »

وذكر معاصروه انه سافر من القيروان الى قرطبة بسبب دانق كان عليه لبقّال هناك ، فخوطب في ذلك ، فقال : ردّ دانق على اهله أفضل من عبادة سبعين سنة ، وقد مضينا الى قرطبة ورجعنا في سنة واحدة . »

وكان يحي كثيراً ما ينشد :

هَمَمْتُ ولم أفعل،ولو كنتُ صادقاً | عزمتُ، ولكنَّ الفِطام شديد

ألَا لَيْتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً | إليكَ انقطاعي إنَّني لسعيد

وهذا مما يرشد الى شدّة تمسّكه بالعروة الوثقى . واخباره طافحة بالفضائل الكاملة والشمائل الجامعة للخير والورع المناسب لامثاله من رجال ذلك العصر الزاهر .

ولدينا نصّ بعض مكاتيب صدرت عن يحي لبعض اخوانه المتعبدين ، يستروح من خلالها ما كان عليه صاحبنا من العلم الجمّ ، والمقدرة على الانشاء العالي ، والصبر على كوارث الزمان ، ورغبته الدائمة فيما يقرّبه من جانب الحق تعالى .

وكانت وفاة يحي في داره بسوسة في شهر ذي الحجة من سنة ٢٨٩ (نوفمبر ٩٠٢) ودفن في مقبرتها خارج السور حيث كان ضريحه، وقد تزاحم اهل الساحل وأعيان القيروان على جنازته لعظيم شهرته ، وجليل منزلته ، والعاقبة للمتقين !

ورثاه جماعة من شعراء عصره ، منهم الاديب الكبير (سعدون الورجيني) الذي القى على قبره قصيدة فريدة ، ننقل البعض من عيونها :

عيْن ألَمَّ بها وجد فلم تنمِ | تبكي بدمع كقطر الدُّر منسجم

مدامع الصبِّ اقلامٌ تخطّ بها | أيدي الصبابة ما بالقلب من سدم

لفظُ الضميرِ لسان الدمع ترجمه | حتى بدا كلُّ سرٍّ غير منكتم

لَوْلاَ المَدَامِعُ لم يُعلم بلوعته | من يُخْفِ تبريح وجدٍ غير منصرم

يقول فيها :

تأبىَ الليالي علينا ان تدوم على ... جمع من الشمل او سَدٌّ من الثُّلَمِ

عجبتُ ان لم امتْ حزناً وقد دفنتْ ... كفايَ في التُربِ أنقى العُرب والعجم

يا موت ! أثكلتنا يحيي وكان فتىً ... في بلدة الغرب مثل البدر في الظُّلَم

ما كان إلاَّ سِراجاً يستضاء به ... في العلم يسمع منه العلم في ا[illegible]ـلمِ

وكان يحيي - إذا خفنا - لنا حَرَماً ... نلجا اليه ، فقد صرنا بلا حَرَمِ

وكان يحيي لنا سيفاً يعزّ به الـ ... ـدين الحنيف ويحمى كل مهتضم

وكان يحيي لنا حِرزاً ، وكان لنا ... كنزاً، وكان لنا كالغيث في الأُزم

لِتبكِ يحيي عيونٌ بالدموع فإن ... غاضت مدامعها فلتبكهِ بدم

أبكي مَن العلم والتقوى به اجتمعَا ... ومَن مضى وهو اوْفىَ الناس بالذِّمم

أبكي مَن الحِلم ثوبٌ كان يلبسه ... أبكي على طاهر الاخلاق والشِّيَم

أبكي فتى الدهر، أبكي شيخ كـل حجى، أبكي اخا الفضل أبكي معدن الكرم

مَن كان من بعد سحنون لنا خَلَفاً ... مَن كان في الحق مثل الصارم الخذم

ومنها

ما كان أطهر تلك النفس من رِيَبٍ ... ما كان أكتب تلك الكفَّ بالقلم

سقاكَ يا قبر يحيي عارض لَجِبٌ ... سمح الرذاذ كريم الوَبْل والديَم

يا ربّ ! صاحب هذا القبر خادمـك المعروف بالنصح والاحسان والخدم

اتاكَ ضيفاً فلا تجعل قِراه سو ... ى الرضوان إنك ذو فضل وذو كرم

وبالجملة فانها مرثيــة طويلة جلبنـا المهم من عناصرها ، على انـه رثى يحيي شعرآء كثيرون ، اكتفينا بذكر اشهرهم ، وهذا كله ممـا يدلّ على المكانة الجليلة التي كان يحتلها يحيي في قلوب عارفيه .

وقد افردتُ في غير هذا ترجمةً ضافيـة لحيـاة يحيي بن عمر تقصّيتُ فيهـا اخباره بالتفصيل ، وعدّدت مؤلفاته وما اشتملت عليه بقـدر ما استطعت، رحمه الله ورضي عنه .

مصادر :

طبقات ابي العرب ص ١١ - والخشني : ١٣٤ و١٣٥ و ٢٢٩ - ورياض النفوس للمالكي ج ١ ص ٣٩٦ وما بعدها - والمدارك لعياض ٢ : ٩ قفا وما بعدها (مخطوط) معالم الايمان ٢ : ١٥٦ وما بعدها.

* * *

واما أخوه محمد بن عمر فكان أصغر منه سنًّا، وكنيته ابو عبدالله[1] فانه ولد بقرطبة ايضاً ورحل الى المشرق واخذ من كبار مالكية مصر في عصره ثم التحق باخيه فى سوسة ، وشارك أخاه في اكثر شيوخه إلاَّ في سحنون ، وسمع بالقيروان من محمد بن عبدوس وسواه من اصحاب سحنون ، وكان عالماً جليلا ، اديبا يقرض الشعر الجيد، وتوفي بعد اخيه بسنين قليلة ودفن بجنبه .

(١) راجع المدارك ج ٢ ص ١٢

ابن رزين

ابو عبد الله محمد بن رَزِين ، من قدمـآء محدثي افريقيـة وكِبارهم ، قال ابو العرب : كان ثقة ورجلا صالحا يسكن سوسة ، قرأ أولاً في القيروان ثم قصد الحجاز فحجّ ثم عند العودة أقام بمصر فسمع من عبد الله بن الحكم ، ومن ابن بكير ، وزهير بن عباد ، واصبغ بن الفرج ، فكان عنده بعد ذلك حديث كثير رواه عنه أهل المغرب منهم بكر ابن حمّاد الشاعر المشهور ، وسليمان بن سالم القيرواني وغيرهما كثير .

وروى ابو العرب :«ان محمد بن رَزين هو أول من باع داراً بسوسة وأهل العلم قبله كانوا لا يرون بيع دورها »

ومعنى هذا - فيما أفهم - ان سوسة كانت في ذلك العهد أرض رباط ولا يجوز البيع والشراء فيما هو داخل حماها ، ثم يظهر أن العمران عمّ جوانب المدينة وكثرت البناءات بها،فاصبحت مرفأ حربيا ومدينة تجارية في آن واحد ، وحينئذ جاز امتلاك العقار بها والتصرُّف فيه بانواع التصرفات ، ويؤيد هذه النظرية ما كان جارياً في حِمَى رباط المنستير قبل ان تصير مدينة .

وتوفي محمد بن رزين بسوسة في خـــلال سنة ٢٥٥ (٨٦٩م)ودفن في مقبرتها القديمة خارج السور حيث ضريح يحي بن عمر .

راجع : طبقات أبي العرب ص١١٩ - والمدارك ج١ ص ٢٣٩ قفا - مخطوط.

القبرياني

سهل بن عبد الله بن سهل ويعـرف بالقـبرياني أبا يزيد - وقـد ياتي لقبه أحياناً بصيغة القيرواني، وهو تحريف من النسّاخ كما في معالم الايمان - والصواب انه منسوب الى قرية كانت تسمّى (قبريان) وأظن ان موقعها كان بالزاب ومولده بالقيروان سنة ٢٠٩ وقرأ على سحنون وهو معدود من أصحابه ، وكان ثقة كثير المال ، فعالاً للخير . قال الخشني : « كان سهل فيما كان فيه أبوه من قبله من كثرة المال وانبساط الجاه.»[1]

وكانت له علاقة ودٍ أكيدة بمحمد بن سحنون ويصحبـه في زمن المرابطة،وقد تقدّم في أصل البحث انه خرج مرة معه بقصد الاعتكاف بقصر الطوب ، وكانت بالقـرب منه كُديَةُ رَمْلٍ مشرفة على البحر ، فتمنىّ محمد بن سحنون أن يبني مكانها رباطا،فتطوّع سهل بذلك،وابتنى في مكانها رباطاً اشتهر باسمـه (قصر سهل) وأراد قـوم من أهل الخير مشاركته في المصاريف ، فابى سهل وتولى بنآء جميعه من ماله ، وانفق على إقامته نحو الالف مثقال ، اي الف دينار ذهباً

وتوفى سهل في ذي القعدة من سنة ٢٨٢(يناير ٨٩٥ م)

---

(١) الخشنى ص ١٣٤ - المدارك ٢ : ٢٤ قفا (مخطوط) - معالم الايمان ٢ : ١٣٠

سعيد الكلبي

سعيد بن أبي اسحاق ابراهيم الكلبي ، ويكنىّ بابي ابراهيم ، مولده سنة ٢١٢ (٨٢٨م)،وصحب في صغره سحنوناً واخذ عنه،وسمع الحديث عن عون بن يوسف وعن أبي زكرياء الحُفري،ثم سافر الى البلادالمشرقية فحجَّ وأقام بمصر فسمع من عِلْيَةِ المحدثين والفقهآء منهم محمد بن عبد الحكم رئيس المالكية بها . وكان سعيد حسن الكتابة ، قليل الخطأ ، إذا اشكلت عليه مسالة سال عنها من غير توقف ، وعند عودته الى افريقية سكن (قصر الطوب) فكان يقيم به شهوراً ثم يروح الى القيروان فيقيم بها مدة ويأتيه الناس فيسمعون منه الحديث النبوي ، ثم يعود الى المرابطة . وكان ثقة مأمونا ، ومما حدث به يرفعه الى النبيء ـ ﷺ ـ قال : قال رسول الله : « يا بن آدم عندك ما يغنيك،وتطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ، ولابكثير تشبع ، يا بن آدم،إذا كنت آمناً في سربك ، مُعَافاً في بدنك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفا » .

وسمع بعض العباد بقصر الطوب سعيداً يبكي الليل كلّه في ليلة باردة جداً ، فلما اصبح قال له بعض صَحبه : « أصلحك الله ، سألتك بالله ما أبكاك في هذه الليلة بخلاف عادتك ؟ ـ فقال له : ـ نعم تفكَّرتُ وقرآء أمّة محمد ـ ﷺ ـ في هذا البرد الشديد القارس،فبكيتُ رأفة لهم»

وله مناقب كثيرة تُثبت ما كان له من المروءةالعاليةوشجاعةالبأس.

وكانت وفاته في سنة ٢٩٤ (٩٠٧م) ودفن بقصر الطوب .

أبو الاحوص

اسمه احمد بن عبد الله ، ويكنىّ بابي الاحوص ، أصله من المغرب الاقصى وانتقل الى افريقية، وصحب الامام سحنون بالقيروان واخذ عنه كثيراً . قال ابو الاحوص ، « سئل سحنون بحضري عما يأتي به اهل الشام من الرُخص في الفتياء ، فقال سحنون : ـ يؤخذ هذا العلم من الموثوق بهم فى دينهم وخيْرهم ، فإذا اخذوا بالتشديد فعن علم ، وان اخذوا بالرخص فعن علم . »

وسكن أبو الاحوص مدينة سوسة واوطنها وبثّ فيها العلم،واخذ الناس عنه الحديث والفقه ، وكان فقيراً قليل ذات اليد،وسبب سكناه سوسة انه اقام بها مُرابطاً مدةً حتى فرغت نفقته فأراد الرجوع الى بلده بالمغرب الاقصى،فلما عزم على ذلك ذهب الى الجامع الكبير واخذ يتنفَّل بركعات قبل انصرافه ، فاذا بعصفور جآء بشيء في منقاره يطعمه فراخه ،فسقط من فمه ما جآء به الى الارض ، فخرج فارٌ من خلف الحصير واكل ما سقط من العصفور،فقال ابو أحوص في نفسه : ـ فارٌ خلف الحصير قيّض الله له من يرزقه ولم يضيّعه ، فكيف أنا ؟ عَلَيَّ أَلاَّ أدع مدينة الرباط الى غيرها ابداً » وعدل عن السفر فاقام بسوسة حتى مات .

وكان الامير ابراهيم الثاني كثيراً ما يزوره ويتعظ بنصائحه حتى انه قال له مرَّةً : ـ أحبّ ان ترفع اليَّ كلما ثبت عندك من الفساد فاغيّره» وقد تقدَّم انه طلب من الامير بناء خزَّان للماء (اي السُفرة)، والزيادة في الجامع الكبير ، فقام الامير ابراهيم بجميع ذلك نزولاً عند رغبة ابي الاحوص ، كما سلف خبره .

وحكى ابو الاحوص عن نفسه ، قال : ـ غاب إمام الجامع يوماً عن صلاة العصر ، فعُزِمَ عَليَّ ، فتقدمت وصلَّيت ، ولقد صحَّ عندي اني ما سلّمت من الصلاة حتى بدأ قوم يثلبوني ويفتّشون عن عيُوبي،فقلت: إن الخمول من أثواب الستر ! »

وروى عبد الوهاب بن عبد الله المتعبّد ، قال : ـ قمتُ الى برج من ابراج سوسة على شاطيء البحر فاذا أبو الاحوص ـ رحمه الله ـ بين شرافتين في سواد الليل ودوي البحر وهو يقول :

أبوْا ان يرقدوا لَيْلاً	فهم للهِ قوّامُ
أبوْا ان يفطروا دهراً	فهم لله صوَّام
أبوا ان يخدموا الدنيا	فهم لله خدَّام

ثم ينشد باعلى صوته : ـ لا إله الاَّ الله ، والله اكبر ، ولله الحمد .

وكانت وفاة ابي الاحوص بسوسة في خلال سنة ٢٨٤ (٨٩٧م)

المالكي ١ : ٣٩٠ ـ المدارك ٢ : ٢٠

ابن عباد وابن الجعد

محمد بن عبّاد ، من ابناء سوسة وبها ولد ونشأ وتعلم ، ثم رحل في طلب العلم في حداثته فقرأ على هشام بن عمار وابي مصعب بمصر ، ثم رجع الى سكنى بلده واقام يقرىء العلم بجامعها الاكبر ، وكانت لهمودة وثيقة بابن الجعد ، احد اغنياء التجار بالقيروان ، فكان ابن عبّاد يزوره بين الفينة والاخرى ، فكلَّفه ابن الجعد مرة بالنظر على بناء محرس أراد انشاءه بالمنستير ، فتولى ابن عبَّاد الاشراف على البناء والتصرُّف في الانفاق عليه ، تطوُّعاً منه واحتساباً لله . وكان ابن الجعد من كبار مياسير افريقية وله ضياع كثيرة في البلاد ، ومخازن تشمل بضائع مختلفة للتجارة .

ولما عزم على اقامة المحرس الذي أراده ، خصّص مقداراً من المال للنفقة عليه ، وأمر أن يجعل طول هذا المحرس فى قياس مثله عرضاً ، وابتدأ البناءون يعملون فيه،غير انهم وهموا في الحساب فزادوا على ما أمرهم صاحبه جنبتين لم تكن في التقدير الاول ، فلما كمل القسم السفلي منه قدم اليه المتطوعون للمرابطة وعمَّروا هذا القسم قبل ان تركب أبوابه ، ثم شُرع في إقامة الدوْر الثاني ، وسرعان ما سكنه مرابطون جُدُد قبل أن يكمل دور كل القصر وابراج الطبقة الثالثة ، ولم تتِمَّ

أبواب البيوت والاصلاح الخارجي بالجير ، وقد نفد كلّ ما قُدّر من النفقة اولاً في القوسيْن اللذيْن زادهما النباءون غلطاً ـ فتطوّع قوم من الاخيار باتمام مُعدّات الحصن من مالهم ، فلما بلغ ابن الجعد ذلك قال : لا ينفق أحد معي فيه شيئاً حتى يتمّ الدور الثاني وأبراج الدور الثالث»

ولما نجزت النفقة المقدّرة ذهب محمد بن عبّاد الى القيروان لمقابلة صاحبه ابن الجعد ، وأراد أن يدخل على قلب بانيه المسرّة ، وكان قد اجتمع بالقصر ثمانية واربعون مرابطاً كلّهم أفاضل من خيرة الشباب الحفاظ ، فطلب منهم ابن عبّاد قبل سفره ان يختم كل واحد منهم القرآن في ليْلته،ففعلوا ذلك ، فلما دخل ابن عبّاد على صاحبه ابن الجعد قال له : ـ ما الخبر ؟ ـ فقال: الذي يسرّك ان شآء الله ، ما جئت حتى صلى في مسجد قصرك وبيوته كلها ، وختم فيه القرآن البارحة ثمانية واربعون ختمة ، فسرّ ابن الجعد سروراً عظيما وابتهج بذلك وحمدالله على توفيقه ، ثم قال : ـ وما ورآءك؟قال ابن عبّاد : ـ النفقة نجزت وقد بقي كذا وكذا ، فلا تحمل على نفسك ، فانه قد تسرّع أقوام باتمامه ، فلم يجبه ابن الجعد ودخل الى حريمه ، فاقام ساعة ثم علت الاصوات بالبكاء في داخل الدار ، فنهرهم ابن الجعد وكلّمهم ساعة ثم خرج بعد ذلك وكُمّه مملوآ ، فقال لابن عبّاد: هات كمّك،فافرغ فيه حليّ أهله ، فقال له ابن عبّاد : لِمَ فعلت هذا ؟ قال : ـ لم أضع عندهن هذا الحليّ الاّ

على وجه العارية على اني متى شئت استرجعته ، وقد استمتعن به زماناً ، فاذا جاءت الغلّات أو بعت بعض البضائع عملت منه لهن ما يسرّهن. » فاخذ ابن عبّاد الُحلي وصرفه وتممّ به بنآء ما بقي من القصر الى ان تمّ على أحسن حال وأجمل منوال » (١)

وكان ذلك كله في أواسط القرن الثالث للهجرة في المدة التي تعنينا .

أتينا على هذه القصّة على طولها ليُعلَم كيف كان أهل الخير والفضل من ابنآء افريقية في ذلك العصر يسارعون في اقامة الحصون والمحارس من خاصة مالهم ـ طلباً لثواب الله الجزيل ـ ورغبة منهم في القيام بما يعين الدفاع عن حوزة البلاد ، وحراسة السكان من هجمات العدو ، وتأمينهم من عواقب النهب والاسر .

نصير

ابو يونس نُصَيْر المرابط ، كان رجلاً صالحاً ، فاضلاً، قليل الهيبة للسطان، منقطعاً للرباط والعبادة،قرأ بسوسة على يحى بن عمر وغيره، ثم انقطع للمرابطة بقصر الطوب ، وأقام به غالب حياته يُرشد وينصح

(١) المالكي : ٢ : ٣٢ (مخطوط)

الناس لما فيه النفع ، وتوفي في ربيع الاول من سنة ٣٠٤ (سبتمبر ٩١٥) وهو ابن مائة وثمان سنين ، ودفن أمام القصر

وكان إذا زاره بعض أهل سوسة بالقصر ، وكان معهم أطفال صغار ، يسأل نصير أولياءهم : هل يتعلمون بالكتاتيب ؟ فان وافقوه أهدى الى أولئك الاولاد أقلاماً من قَصَب كان يَبْريها بنفسه ليهديها الى الصغار ، تحريضاً منه لهم للاقبال على التعليم (١)

ابن بسطام

محمد بن بِسطام بن رجا الضبّي ، مولده بالبَصرة وانتقل الى القيروان ، وأخذ عن تلاميذ سحنون مثل محمد بن عبدوس وغيره ، وكان قرأ بمصر على ابن عبد الحكم والربيع وابن مرزوق، ودخل افريقية بعلم غزير ، وجلب معه كُتباً كثيرة لكبار المالكية بالمشرق لم تكن تدخل افريقية قبله ، ودرّس بجامع القيروان مدة وناظر مشاهير فقهائها ومُحدّثيها في المسائل العويصة ، ثم انتقل الى سكنى سوسة بعد تعميرها فاستقرّ بها نهائياً وسمع منه الناس بجامعها وانتفعوا بواسع علمه ، ونسخ بخطه كُتباً عديدة .

(١) رياض النفوس للمالكي ٢ : ٦٠

يروى عنه انه اشترى عبداً زنجياً يصلح له القنديل اذا تعاطى النسخ بالليل ، فكان يتّخذ له قصب السكر ويقطعه قطعاً صغيرة ، فاذا نعس الوصيف جعل في فيه قطعةً منها ليزيل عنه النوم .

وبعد ان حصلت له بسوسة رياسة علمية وجاه كبير،توفي سنة ٣١٣ ثلاثة عشرة وثلاثمائة (٩٢٥) ودفن في مقبرة سوسة (١)

الاربسي السرداني

أبو جعفر أحمد ـ ويقال حمودة ـ بن سعدون الأُرْبسي ـ نسبة الى مدينة الأُرْبس بالجهة الغربية من القطر التونسي ـ وبها ولد ثم قدم القيروان وأخذ عن اعلام محدّثيها وفقهائها ، ثم انتقل الى سوسة واتخذها دار قرار ، وشارك في أحدى غزوات الاغالبة لجزيرة سردانية ، ولذلك عُرف أيضاً بالسَّرْدَاني ، ودرس على كبير علماء سوسة يحي بن عمر الكناني كل ما يرويه ، ولما انتقل يحي ـ في زمان المحنة بخلق القرآن ـ الى مدينة تونس أودع جميع كُتبه عند تلميذه أبي جعفر لحفظها عنده في داره ، فنسخها ابو جعفر باكملها في تلك المدة .

(١) المدارك لعياض ج ٢ ص ٨٥ (مخطوط)

واشتهر ابو جعفر بالورع الكامل والصلاح والثقة ، قال معاصره ابو الازهر : « ما رأيت فيمن أدركت من المتعبّدين الصالحين مثله ديناً وتقوى . »

واعتلّ ابو جعفر في آخر عمره فلم يبق حيًّا في بدنه الّا لسانه وعقله وبصره . وروى أبو الازهر ايضا ، قال : « ولقد كنت ربما أتيته زائرا فياتيه قوم من اخوانه بينهم خلاف رجاء ان يصلح بينهم فيذكر كل رجل منهم قضيته ، فيجيب كل واحد منهم بما يناسب وهو ملقى على ظهره لا يستطيع الجلوس ، وقد ادرك الثمانين وخالطه السُّقم »

ومن أخصّ اصدقائه وجلسائه (ابو جعفر القمودي) الآتي ذكره ، وقد عاشا زماناً طويلا لا يفترقان ، مقبلين على العبادة والمرابطة. وقد أوقف الأَرْبُسي كُتُبه بعد موته على طلبة العلم بسوسة .

وكانت وفاته في سوسة في المحل المنعوت قديماً « بدار المشائخ » (؟) وذلك يوم الجمعة غرة ذي القعدة من سنة ٣٢٣ (٢ اكتوبر ٩٣٤ م) ودفن حذو « قُبّة الرمل » خارج البلد ، في المكان المعروف الى اليوم باسم « شاطىء أبي جعفر » وقد حضر جنازته جماعة من وجوه علماء القيروان ومن المرابطين بحصون الساحل ، رضي الله عنه

مصادر : المالكي ـ والمدارك لعياض ٢ : ١٦٢ (مخطوط)

أبو جعفر القمودي

أصله من (قمّودة) ناحية بوسط البلاد التونسية ، وبها ولد في حدود سنة ٢٣٠ (٨٤٥ م) وبعد ان قرأ بكتاتيب موطنه انتقل في شبابه من بلاده الى سكني (قصر زياد) ـ رباط كان على ساحل البحر بجهة جبنيانة ـ فأقام مع من كان به مدة ، يحرس الشواطي ويتعبّد ، قال المالكي : «وكان سبب خروجه منه ان عبيد الله المهدي أخلى قصر زياد من سكّانه المرابطين وجعله مخزناً لعُدّة البحر ، فأخرج كل من كان في القصر غير أبي جعفر القمودي ، فأقام به وحده وهو يظنّ انه عامر لانفراده في بيته وشغله بعبادة ربّه ، فخرج يوما يتوضأ للصلاة ، فتأمّل القصر فرآه خالياً لا أنيس به ، فسأل ما بال الناس؟ ـ فقيل له : أخرجوا ولم يبقَ غيرك ، فقال : ـ وما الفرق بيني وبين أخوتي المسلمين ؟ ـ فأخذ رَكْوَته وجلداً مصوّفاً كان ينام عليه ، وخرج من هناك الى (قصر الطوب) المجاور لسوسة ، واقام به دهراً طويلاً ، وهناك تعرف بالعابد أبي جعفر الأُربسي فتصاحبا من ذلك الحين ولم يفترقا بعد ، ومن أخص أصحابه ايضاً أبو جعفر احمد الزقّاق السوسي.

«ثم ان أحباءه ومعارفه رغبوا اليه ان يترك قصر الطوب وان

يتزل مع أبي جعفر الاربسي (بدار الشيوخ) التي كان يقيم بها صاحبه الاربسي » .

ويؤكد المالكي : « ان دار الشيوخ معروفة الى الآن بمدينة سوسة (يعني في القرن الخامس هـ.) نزلها القمودي مع اصحابه الى ان مات بها » .

ثم قال االمالكي ايضاً : « حدثنا أبو حفص عمرون بن محمد السوسي بمجلس قضائه في جامع مدينة سوسة عمرها الله ، قال : - دخل عليه أبو جعفر القمودي ، وقد ارتدى برداء صوف (يعني إحرام) ، فسلّم عليه ، فادناه القاضي وقرّب مجلسه وأقبل عليه ، فساله أبو جعفر في رجل سجنه ، ومما قال له : - ان له والدة قد أكثرت من البكاء عليه ، وشفع له عنده ، فقال له القاضي - سجنته في حقّ لغيري ، وليس لي - وامتنع من تخليَته - فانصرف أبو جعفر وقد وَجد في نفسه ما وجد ، فلما حاذى الماجل (لعلّه : ماجل السُفرة) عاتب نفسه ووبّخها بان قال لها : - بايّ حقّ تجدين على القاضي وهو أعلم منك وأفضل ؟ وقد قضى بالحق - ثم خرج من موْجدته، وما استطاع المضي حتى رجع مبادراً من عند الماجل ، فعرَّف القاضي بما حدثته نفسه ، ثم قال له : - نعمَ ما فعلتَ ان لم تتركه ، وجزاك الله خيراً عن نفسك وعن فعلك ، وهو الحقّ والصواب، ولكن مخالفة النفس فيها مشقّة ! »(١)

(١) رياض النفوس للمالكي ٢ : ٩٦

وتوفي ابو جعفر بمدينة سوسة في ربيع الاخر سنة ٣٢٤ (٩٣٥ م) ودفن الى جنب صاحبه ابي جعفر الأُربسي بمقبرة قُبّة الرمل ، وهو ابن ٩٤ عاما . رحمة الله عليه

ابن مسرور اللخمي

أبو الفضل يوسف بن مسرور اللخمي، مولده سنة ٢٥١ (٨٦٥ م) من مشاهير تلاميذ يحي بن عمر أخذ عنه الحديث والفقه حتى برع فيهما، ثم مال الى الزهد والتجرّد عن ملاذ الدنيا ، وسكن بقية حياته مرابطاً بقصر سهل ، يقريء الطّلَبة ويدلّ على عمل الخير الى ان توفي سنة ٣٢٤ (٩٣٦ م) ودفن بجنب القصر .

حكى عنه ابو نصر فتحون القصري، قال : « نزلتُ على أبي الفضل بقصر سهل وقدّمت اليه هدية فيها كعك سميذ ، وعسل وسمن ، ووضعت ذلك بين يديه ، فقال لي : - ما هذا يا أبا نصر ؟ - قلت : هدية مني اليك ، اصلحك الله ، فقال لي : - يا ابا نصر ، أسأل الله عزّ وجلّ ان يعظم ثوابك ، لي اليوم ثلاثين سنة ما أكلت شيئاً من هذه الطرائف التي أتيت بها، أنما وظيفتي من الشهر الى الشهر قيراط شعير ، واني لا اتمتّع بما ينعم الناس به وما يأكلون - فإني لم أسكن هذه

الحصون لاَكلَ من هذه الاصناف فيقال فلان المرابط يُهدى اليه ؛ فرّقها ـ يا أبا نصر ـ على الضعفاء » ـ قال نصر : فأخرجت له خريطة فيها دراهم وقلت له : ـ يا أبا الفضل ، فرّق هذه على من يستحقّها ، ـ فقال لي : ـ لا أفعل ذلك ، انما افرّق من مالي ان كان لي مال ، وأما مالك فانت مسؤول عنه يوم القيامة . »[1]

وكان ابن مسرور كثير الذبّ على حرم المسلمين،ذكر عنه انه قال: كنت بسوسة مرة فجاءت مراكب الروم ومشت في البحر أمام البلد فخاف الناس من العدو،فاخذ الوالي أهل سوسة مِن أصحاب النوّالات ـاي المساكن الفقيرة ـ وغيرهم بالحراسة نُوَّباً في كل ليلة،وكان المرابطون في ذلك الوقت قلّة،فلما سمع اهل القرى بذلك جاءوا مقبلين الى سوسة، وكثر الوافدون من أطراف البلاد،وخرجوا الى (رملة) سوسة مستعدّين للحرب ، حارسين على ذراري المسلمين من الأسر،فانا ذات ليلة احرس وقد علوت على احدى المحارس ، فرأيت أهل الدور يمشون في ضو السُّرُج حتى جنّ علي الليل ، فسمعتُ صبيَّةً تسكن في بعض الدُّور المجاورة للسور تقول لأُمها : ـ يا امّاه ! قد جآء المرابطون يحرسون حَمانا قمْ بنا الآن نرقد » فاعجبني ما سمعتُ منها واغتبطت بما فتح الله لي من الاسهام في ذلك ، والحمد لله ولي الحمد وأهله » .

---

(١) المالكي ٢ : ١١٠ وما بعدها (مخطوط) .

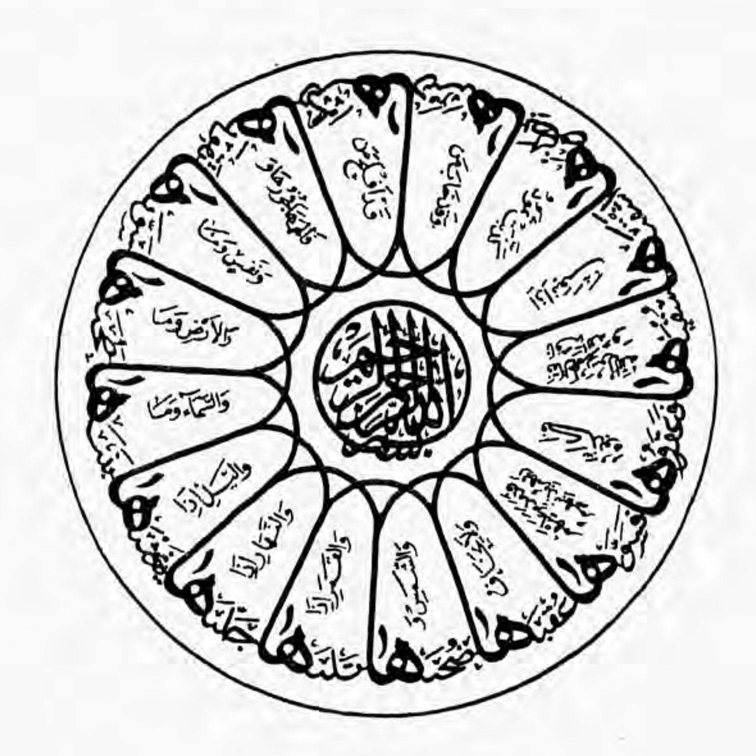
وقد صنّف أبو الفضل بن مسرور مدة إقامته بقصر سهل تاليفاً في « أحمية الحصون » ، والمقصود هنا بالاحمية (جمع حِمَى) الاراضي التابعة لقصور الرباطات والملاصقة لها غالباً،فانها كانت وَقْفاً على العُبّاد المرابطين ينتفعون بالزرع فيها إن أحوجتهم الضرورة لذلك .

ونأتي هنا ببعض ما نصَّ عليه ابو الفضل في كتابه المشار اليه، قال:

« اني نظرتُ في هذه الاحمية التي على ساحل البحر ، فرأيت ان أحسن الامور لمن يسكنها ألاّ يقيم بها إلاّ ومعه ما ينفق فيها على نفسه، ويكون ذلك من حلال ، فان مسّته فاقةٌ رأيتُ له إن كان ذا صنعة ان يتعاطى صنعته وياتي بما يصيب من عمل يده فينفق منه على نفسه ، فيكون له بذلك ثواب المرابطة ، ويسلم من شُبُهات الحرام ، وان لم يكن له قوة بدن ولا صحة فليخرج وليحرث ما يكفيه عند بعض إخوانه ، فهذا أحبُّ اليَّ من الحرث في الحِمَى لما فيه من الشبهة . »

ويفهم من قول المؤلف المتقدّم انه كان لا يسيغ لسكان الرباط الانتفاع بالفلح في أحمية الحصون الاّ لمن كان فقيراً جداً من المرابطين وكان في اضطرار ملحّ للنفقة على نفسه ، وكانه يخشى ان يتسرَّب الى الحصون من يريد الاستفادة من الارضين الموقوفة عليها وليس له في الحقيقة نيّة خالصة في المرابطة.ومما يلاحظ ان ذلك حصل بالفعل ـ في

القرن السادس وما بعده ـ لَمَّا خلت الرباطات من المقيمين بها من أهل الورع الكامل والزهد الحق، ومن يراجع مجاميع الفتاوي ـ « كفتاوي البُرْزلي» و« المعيار » للونشريسي وغيرهما ـ يجد بها فتاوي لغير واحد من علماء افريقية الاجلآء في هذا المعنى .



البَردى والرَقّ والكاغذ

البردي والرق والكاغد

في القسم الاول من هـذا الكتاب [1] تكلمنا بصفة إجمالية عن دخول صناعة الكاغد (الورق) الى القيروان واشرنا كيف امتدت من هناك الى العـدوة الاروبية بواسطة صقليـة الاغلبية ، ونستأنف هنا الحـديث عن أدوات الكتابة والمـوادّ التي كانت تستعمل قبل ظهور الورق بافريقية ، فنقول :

ما كاد ينقضى النصف الاول من القرن الثاني للهجرة حتى كثرت في افريقية المستعربة مصاحفُ القرآن المجلوبة من المشرق او المنتسخة فى البلاد ، وقد اتقن الوطنيون الخط العربي اتقاناً فائقاً ولا سيا انواع القلم الكوفي العتيق ، فقـلَّدوا فيه اوضـاع المشرق وتمسّكوا برسومه المتَّبعة في العراق - الكوفة والبصرة وواسط - بفضل الوافدين عليهم من

(١) الورقات ١ ص٢٠٧

الاجناد وارباب الوظائف واصحاب التجارات ، أو بواسطة الراحلين من شبابهم الى المشرق في طلب العلم .

نقل الراحلون الاوّلون من ابنـآء المغرب الى بلادهم ما تحتاج اليه الكتابة من مُعدَّات وأدوات،فجلبوا من المشرق اقلام الكتابة بانواعها، وكذا طريقة صنع المِـــداد ومختلف الاصباغ ولا سيما طريقـة تحضير جلود الحيوان لتكون رُقُوقاً صالحـة لان يكتب عليها ، الى غير ذلك من الوسائل التي يستلزمها تقدّم التعليم وانتشار الثقافة .

حتى انك كنت ترى في اواخر القرن الثاني ، على عهد الامراء من بني المُهلّب بين أسواق مدينـة القيروان ـ سوقـاً مستقلة باسم (سوق الورّاقين) يجدفيها الكاتبُ والمتعلّم كلما يحتاج اليه من المواد الضرورية لتقييد العلم ، ولا يبعد ان هذه السوق كانت بمقربة من الجامع الكبير ، جامع عقبة بن نافع .

الرق

ولا نزاع ان الرّقّ ـ وهو الجلد المعدّللكتابة والنسخ ـ كان يكلّف غالياً ، ولذلك ربما كُتِب فيه اولاً ثم يُمْحَى ويستعمل ثانياً وثالثاً بعد إزالة ما رُسم عليه من الكتابة في اول مرة ؛ وهذا النوع من الاوراق

المكشوطة والمعاد عليها الكتابة يسمى عند علمآء الافرنج (Palimpseste) وقد يُكشفُ احيانا في الرسوم المحوّة ـ إذا قرئت ـ على ما هو أهم بكثير مما رُسم على الرق بعد الكشط . وعثرتُ شخصياً على قطعة جليلة ما بين ضفتيْ الجلد المسفّر به بعض الكتب العربية التي تقادم عهدها ،

ومعلوم ان الورق المُقَوَّى المعـروف الآن بالكرطون (Carton) لم يكن معروفاً عند القدمآء لعدم وجود آلات شديدة المفعول في الضغط، فكان أوائلنا يعوّضونه في التجليد بحشو عدة اوراق ملصقة بعضها ببعض بلصاق متين حتى تصبح كالكرطون بعد ادخالها بين جلدتيْ التسفير، وقد تُفصَلُ تلك الاوراق عادة من كتاب يُعتبر لا قيمة له ، فاذا ما حاول الانسان فكَّ الاوراق المحشوة تعترضه صعوبة اللصاق، فيجب عليه طرح التجليد في ماء شديد الحرارة برهة من الزمان الى ان ينفسخ اللصاق وتنفصل كل ورقة على حالها ، فيحصل حينئذ المقصود ، ولا يُخشَى على الكتابة من الاندثار في المصنّفات القديمة ـ القرن السادس وماقبله ـ من القائها في ماء حارّ، إذ الحِبر العربي القديم لا تمحوه الحرارة، وذلك لمتانة الموادّ التي يتركّب منها المِداد كالصمغ العربي والعفص والزاج وما الى ذلك ، وقد جرّبت نفس العملية مرّتين ففازت بالنجاح.

ويجب التنبيه على اجتناب استعمال هذه الطريقة فى كل ما هو مكتوب بالحِبر الافرنجي الذي لا يطيق الحرارة وينمحي بمجرد اتصاله بالماء الحار وكذا بالنَّدَى المحيط به .

ولنعد الى ذكر استعمال الرقوق في نسخ المصاحف والدواوين العلمية وسائر المكاتبات قبل ظهور الكاغذ وانتشاره ، وقد اسلفنا انه كان يُكلِّفُ غالياً بالنسبة الى سعر الورق ، لأن نسخ الكتاب الواحد كان يستهلك عدداً كبيراً من جلود الغنم والماعز،القطيع منها وربما أكثر ، ولذا يخيّل للانسان ان استعماله بقي مقصوراً على ذوي اليسار، ومع ذلك كنت تشاهد المتعلمين من ابنآء الفقرآء والمعوزين يجتهدون فى التحصيل عليه ويزاحمون الاغنياء في تقييد دروسهم على الرقوق ليمكنهم الرجوع اليها فى كل حين .

حكى احمد بن خالد بن يزيد ـ من رجال القيروان في القرن الثالث ـ قال : « كانت أمّي تغزل الصوف بالليل فأبيع غزلها لأشتري به الرّقّ والكُتب . » [1] وحرص الأُمّهات ـ وخصوصاً الفقيرات منهن ـ على تعليم أبنائهن أمر معروف قديم في بني الانسان .

---

(١) المدارك لعياض ٢ : ١٠٨ (مخطوط)

وهذا المؤرخ الافريقي ابو العرب التميمي ـ وكان من ابنآء الأُسرة المالكة ـ يروي لنا عن نفسه كيف اقتحم في صغره معمعة التعليم ، وكيف انخرط في حِلَق الدراسة العلياء .

قال [1] : « أتيت يوماً وانا حدث الى دار (محمد بن يحي بن سَلّام) فرأيت عنده طلبة العلم (علم الحديث) ورأيت امراً اعجبني وركنتْ اليه نفسي ، فعاودت الموضع وكنت آتي اليه والطرطور على راسي ونعلي أحمر في رجلي في زي ابناء الامراء ، وكان الطلبة ينقبضون مني من أجل ذلك الزِّي ، فقال لي رجل يوماً بجواري « لا تتزيء بهذا الزي ، فليس هو زي طلبة العلم واهله ؟ » وزهّدني في ذلك ، فرجعتُ الى أمّي وقلت لها : ألبسُ رداءً وثياباً تشاكل لباس اهل العلم والتجّار ـ فأبت عليّ ، وقالت : « انما تكون مثل آبائك واعمامك ، فاحتلتُ حتى اشتريت ثياباً وجعلتها عند صبّاغ في باب ابي الربيع ـ احد ابواب القيروان ـ فكنت اذا اتيت من القصر القديم (قصر الاغالبة خارج البلد) اتيتُ بذلك الزِّي الذي تحبّ امي ووالدي ، فاذا وصلت الى (باب ابي الربيع) ، دخلت حانوت الصبّاغ خلعتها ولبست الثياب الاخر ، فكنت كلما تردّدت فعلت ذلك .

« فقال لي يوماً رجل من اصحابي : اراك تاتي هذا المجلس فتسمع

---

(١) المدارك ٢ : ١٠٨ ـ ومعالم الايمان ٣ ص ٤٥

فيه العلم ولا تكتب شيئاً مما تسمع يكون عندك دائما ؟ ما هذا حقيقة طالب العلم ، فقلت له : « والدي راغب عن هذا وما مكّنني من شيء اشتري به الرقّ ، فقال لي : « انا أعطيك جلداً تكتبه لنفسك وتكتب لي جلداً عوضاً منه ، فرضيت له بذلك ، فكنت اكتب لنفسي ما شئتُ واكتبُ له في جلوده ما يحب ، حتى يسّر عزّ وجلّ ما اشتريت به الرقوق وما قويتُ به على طلب العلم . »

وهذه الحكاية على بساطتها تصوّر لنا في أجمل مثال اجتهاد الشباب الافريقي في ذلك العصر الاول واقباله على التعليم ، وكانت نتيجة هذا الاجتهاد الفردي ان نبغ مئات . وأكاد اقول الآلاف - من المتثقفين ثقافة اسلامية عالية،شان الامم في عنفوان شبابها واقبالها على التمدن واشتراكها في الحضارة البشرية الكبرى .

وجدير بالذكر ان افريقية التونسية ، وما صاقبها من بلاد المغرب والسودان ، حافظت من ذلك الوقت على اشكال الحروف العربية فى نُطقها وترتيبها الابجدي على النمط الذي وضعت عليه أولاً بمدائن الحجاز وبارض العراق ، فالفآء مثلا تنقط بنقطة اسفل الحرف،وأختها القاف بواحدة من فوق ؛ ثم يظهر آخر القرن الثالث للهجرة تغيير نقْطها في المشرق فتصير الفآء بنقطة واحدة من فوق ، والقاف باثنتين من فوق

ايضا ، لكن المغـرب يحافظ على استعمال الطريقة القديمة الى يوم الناس هذا .

اما ترتيب حروف الهجاء فانه كان ومازال في المغرب والسودان الموالي له على الوضع التالي :

أ - ب - ت - ث - ج - ح - خ - د - ذ - ر - ز - ط - ظ
- ك - ل - م - ن - ص - ض - ع - غ -
- ف - ق - س - ش - هـ - و - ي -

هذا الترتيب هو ما جرى به العمل فى الممالك الشرقية والمغرب معاً الى حدّ القرن الثالث للهجرة قبل التغيير الحادث في المشرق لاسباب نجهل موجبها .

ويلوح لنا ان الكتابة المغربية الاصلية - وكانت تسمّى الى القرن الخامس « بالكتابة القيروانية » انما تولّدت في القيروان - عاصمة المغرب الكبير آنذاك -في اوائل القرن الثاني للهجرة من الخط الكوفي مباشرة ولم تُقتَبس من النسخي الحجازي (أي المكّي والمدني) كما يتبادر للذهن، خلافاً لما حصل للخطوط المستعملة للنسخي في المشرق ، وقد يتبيّن ذلك جليًّا لمن تتبع حركة تشعُب الكتابتين الغربية والشرقية من أول نشأتها ومن تطورها على مرّ الزمان .

البردي

ولم يكن للافريقيين غير الرق وسيلة لرسم الكتابات وتقييدها إذ ان (البَرْدي) ـ ذلك الورق النَّبَاتي المعروف قديماً باسم « القراطيس الفرعونية » (Papyrus) ويسمَّى ايضا (البربير) في افريقية ـ انما كان من منتوجات مصر خاصة ، ولا يوجد الّا فيها ، وهو صعب الجلب، وأصعب من ذلك الاحتفاظ به . فاضطر ابنـآء المغرب للاقتصار على استعمال الرّ ق ، ويؤيده ما اشار اليه الرَّحال المقدسي البشاري[1] وقد كتب عن القطر الافريقي فى سنة ٣٧٥هـ(٩٨٥م) ـ حيث يقول : « وكلّ مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقـوق ، اللهم الا مـا كان ينبت من البردي في جزيرة صقلية في ذلك الزمان »

وقال ابن حوقل التاجر البغدادي الذي زار المغرب في القرن الرابع[2]

« وفي خلال أراضي صقلية بِقَـاع قد غلب عليها البَرْبير ، وهو الذي يعمل منه الطوامير ، ولم اعلم لما بمصر من هذا البربير نظيراً بوجه الارض الا ما بصقلية منه ، واكثره يفتل حبـالاً للمراكب ، واقـلُّه يعمل للسلطان منه طوامير ، لا تزيد على قدر كفايته . »

---

(١) ر « احسن التقاسيم » للمقدسي ط ليدن ١٨٧٧ ص ٢٣٩

(٢) ابن حوقل ص ٨٦

ويتَّضح من هذا الخبر ان الامراء الاغالبة استغـلّوا بَردي صقلية واستقلوا بالانتفـاع به وحصروا استعماله في مكاتيب الحكومة ومراسيم الدولة ، والظاهر انهم لم يسمحوا باتخاذه كورق لعامة الناس ، وذلك ـ فيما يظهر ـ لقلّة من يحسن صناعته في صقلية، وقد اتّبع الخلفاء الفاطميون مسلك من سلفهم في الاستقلال باستعمال البردي الصقلّي ، ولهذا السبب لم يكن له اثر كبير في المظهر العلمي المغربي ، لدرجة انا لم نعثر ولو على قطعة صغيرة منه فيما وصل الينـا من تراث العصر الذي نبحث عنـه .

ومهما يكن من أمر فقد بلـغ اهل افريقية في صناعة تجهـيز الرقّ وصقله وتحبيره وصبغه احياناً بالوان مختلفة ـ مابين أخضر ، ولازوَرْدِي وأحمر قانٍ ـ الغاية القصوى فى الاتقـان والنُّعومة حتى صـار الرقّ من السِلَع التي يُتجهّز فيها ويرتفق بها الى جميع آفـاق المغرب والاندلس والعدوة الافرنجية .

وهنا يجب التنبيه الى ان اهل الاندلس انمـا اخذوا صناعة تحضير الرقّ ـ وكذا صنعة ورق الكاغذ بعده ـ عن اهل القيروان، ومن القيروان تسربتا اليهم لا محالة ، ولنا على ذلك شواهد تاريخية لا يطرقها شك .

فهذا (عثمان بن سعيد الصيْقل) ـ من موالي الاغالبة ـ نشأفي بلاط « رقادة » وتتلمذ لأبي اليُسر الشيباني ، رئيس بيت الحكمة القيرواني ،

ومهر في جملة صناعات رقيقة من ضمنها الوراقة ، يستدعيه الامير الحَكمَ وليّ عهد الاندلس بعد سقوط بني الاغلب ـ سنة ٢٩٦ هـ ـ فيلتحق به في قرطبة ويختصه بتحضير الرقّ الرفيع له، كما يكلفه بصنع الآلات الفلكية والرياضية فيقيم عنده الى آخر ايامه ـ سنة ٣٣٠ هـ ـ [1]

وهذا (ابراهيم بن سالم التونسي) ويعرف بالورّاق، ممن درس بمدينتي تونس والقيروان ، وحذق صناعة الرق والوراقة حتي تلقب بها ، ثم قصد الاندلس واتصل بالامير الحكم المتقدّم فخصه لصنعة الورق ، وقد عمل كثيراً منه للمكتبة الاميرية لبني امية ، ومن حسن الحظ ان يكون محفوظاً منها قطعة في جامع القرويين بفاس [2] .

وهذا (محمد بن حارث الخُشني) ـ من ابناء القيروان وعلمائها العاملين ـ يرحل الى الاندلس فيستحوذ عليه الامير الحكم المتقدم « ويشغله بالورَاقة والتزويق وتركيب الاصباغ والادهان وحلّ الذهب والفضّة » كما يصرح به ابن الفرضي والضبّي الاندلسيان ، فيقيم الخشني ببلاط

(١) التكملة لابن الابار ـ طبع مدريد ص ١٩٠ ـ ورياض النفوس للمالكي ج ٢ (خط) ـ ونفح الطيب ٢ : ١١٥

(٢) كتاب « التكملة » طبع الجزائر ص ٢١٢ ـ ومجلة « الاندلس » الاسبانية ج ١٢ عام ١٩٤٧ ص ٢٩٣

الامارة ما يقيم ثم يموت مخدومه فيضطرّ الى ان يفتح دكاناً بقرطبة لبيع الرقّ الرفيع والادهان وتحضير عقاقير الكتابة والتزويق [1]

وقبل هؤلاء رحل الى الاندلس (محمد بن يوسف التاريخي المشهور بالورّاق) ايضا، فهو ممن تعلم بالقيروان وحذق الوِراقة ومهر فيها حتى عُرف بها ، فاحتوى عليه بَلَاط الحكم الثاني أيضاً واقام « يورّق » ـ كما كانوا يقولون ـ للامير المذكور ويدوّن له كتب الجغرافية عن بلاد المغرب الى ان توفى عنده [2] .

وإنَّا ، لو أردنا استقصاء كل الورّاقين من الافارقة الذين اجتازوا الى العدوة الاندلسية في مبتدأ ظهور الحركة العلمية بها ـ أي في القرن الرابع للهجرة ـ سوآء الذين لم يبارحوا القطر الافريقي ممن اشتهروا بمهنة الوراقة ـ لطال بنا الحديث ، لكن سيجد القارىء في غضون تراجم العلماء الذين اوردنا ذكرهم في كتابنا ما يدلّه على صحّة ما قدمنا من ان صناعة الرقّ والورق ـ أي الكاغذ ـ انما تسربت الى الأندلس ومنها الى بقية قارة أوروبا الغربية من افريقية التونسية .

(١) ابن الفرضي ١/٤٠٤ ـ الضبي ٦١ و ٩٣ ـ المدارك ٢/١٦٢ قفا

(٢) بغية الملتمس ١٣١ ـ التكملة ١/١٠١ و٣٦٧ ـ البيان المغرب ١/١٣٤ و ٢٤١

ومن يطّلع على قناطير الرقـــوق المحفوظة في المكتبة العتيقـة بجامع عقبة في القيروان يرى ما يدهش الابصار من دقة الصنعة وجـودة التحضير والاتقان.

ودامت صناعة الـرق في القيروان ـ وافريقية عموماً ـ في نمـوٍّ وازدهار دهراً طويلا ، وقد كُتبت عليه المصاحف والصكوك والعقود الى آخر القرن التـــاسع للهجرة ، بينما نرى الرقّ انقطع استعمـاله في المشرق ،وقد قـام مقامه ورق الكاغـذ من أول القـرن الرابـع حتى لم يبق للرق بعد ذلك التاريـخ من يكتب عليـه

الكاغــذ

على أن وجود الرق واستعماله في كتابات معيّنة لم يمنـع الافارقة من اتخاذ الكاغذ والكتابة عليه ، فقد كَانَا مستعملَيْن معاً في وقت واحد .

والملاحظ أن صناعة الكاغذ ايضا بلغت في القيروان وفي مديـنـة تونس والمهدية شأوا بعيداً في الجودة والاتقان ، وبين أيدينـا نماذج من الورق الافريقي المصنوع من الكتّان ـ وكان ممـا يزرع في افريقية ـ وكذا نمـاذج من الورق المتخـــذ من خِرَق الكتّان البالية ، وأقدم ما وقفت عليه منه كُراساً منسوخاً بالقيروان في سنة ٢٧١ (٨٨٤ م)

ومن المحقق أن اول ظهور الكاغذ في هذا القطر كان على عهد الاغالبة ، أي في أواسط القرن الثالث للهجرة .

وفي اعتقادنا ان صناعة الـكاغذ اول ما دخلت الى العُدوة الافرنجية (قارة أُوربا) إنما كان جوازها من البلاد التونسية مباشرة وحصل ذلك في العصر الاغلبي ، فقد نُقِلت صناعته أولاً الى صقلية حينما كانت تابعة لحكم الافريقيين ، وكانت عاصمتها (بَلَرْمُ Palermo) مكتظة بالعلماء الافريقيين وأصحاب الحِرَف والمِهن ، ثم من صقليـة تسربت صناعته الى قلورية (Calabria) واكـبردة (Lombardia) من ولايات جنـوب ايطاليا ومنها الى مدينة صاليرنو (Salerno) حيث كان يوجد بها أقدم كُلِّية افرنجية للعلوم الرياضية ، وفيها كان يُدرس على الخصوص الطب والفلك ادخلهما اليهـا الراهب (قسطنطين الافـريقي = Constatinus Africanus) المتوفى سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) نقـــلًا عن مؤلفات العرب الافريقيين مثل كُتُب الطبيب اسحاق بن عمران،واسحاق الاسرائيلي، وأحمد بن الجزار وكلهم من نبغاء القيروان .

ومن هنا يتبين ان صنعة الوَرَق رافقت صناعة الطب وبقية العلوم الرياضيـة كالصيـدلة والفلك وما اليها وصاحبتها في انتقالها الى قـارة (أوربا) ، اذ انا نرى بعد ذلك صناعة الـكاغذ تصعد الى المدائن الواقعة

في الشمال الايطالي وتستقر في مدينة فابريانو (Fabriano) وفي مدينة بولونيا (Bologna) ومدينة (Padova) وغيرها من حواضر (ايطاليا) الوسطى [١]

وليس من شك ان صناعة الورق دخلت من ناحية اخرى الى بلاد أروبا الغربية (اسبانيا وفرنسا) فقد تدرجت اليها من الاندلس حيث كانت مصانع الكاغذ موجودة خصوصا في مدينة شاطبة (Xativa) واول كاغذ مؤرخ يعرف الآن من صُنعها يحمل تاريخ سنة ٥٤٩هـ(١١٥٤م) لكن ظهور الورق في جنوب ايطاليا كان قبل هذا التاريخ بمائة سنة على أقل تقدير ، وقد ادخله اليها كما قدمنا الافريقيون من القيروان في اول عهد الدولة الفاطمية .

ولا يخفى ما كان لاستعمال الكاغذ من التأثير في سير العلم وتقدّم المعارف وانتشارها في نهوض الممالك الافرنجية ، لا سيما بعد اختراع الطباعة .

وخلاصة القول ان الورق الذي أخذ العرب صناعته عن الصينيين مباشرة في أواسط القرن الثاني (بالضبط في سنة ١٣٤ هـ - ٧٥١ م) ، شاع

(١) راجع الفصل الوارد عن الورق (Carta) في دائرة المعارف الايطالية ج ٩

استعماله في خراسان ثم في (بغداد) [١] فالشام ، فمصر ، فافريقيَّة (القيروان) ومنها انتقل بواسطة المسلمين الافارقة الى « أروبا » الجنوبية (جزيرة صقلية باطاليا) ، ومن ناحية أخرى انتقل فى سيره الطبيعي من القيروان الى المغرب الاقصى (فاس ، وسَبتة في سنة ٥٠٤ هـ (١١٠٠ م) او قبلها،ومنها عَبَرَ مجاز طارق ودخل الاندلس ، فقلّد الاسبان صناعته عن العرب ، ومنها دخل الى جنوب فرنسا ، فطرأ على أروبا من ناحية أخرى بعد ظهوره وانتشار صنعه في ايطاليا كما ذكرنا .

وتجدر الملاحظة هنا الى أن سكّان المغرب وحدهم هم الذين حافظوا الى الان على تسمية ورَق الكتابة (بالكاغذ او الكاغض) وهو اسمه الاصلي في لغة اهل الصين،اما لفظ « الورق» المستعمل في الشرق العربي فقد اطلق عليه مجازاً .

وقد رويْتُ - منذ ستين سنة مَضَتْ - عن عجائز ان الكاغذ كان يصنع الى عهد قريب في بعض البيوت التونسية ويتّخذ من الخرق

(١) قال المقريزي عند الكلام على انواع الورق : « والورق البغدادي أجود أنواع الورق ، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية ؛ وكان مخصوصاً بكتابة المصاحف ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك . » (صبح الاعشى ٢ : ٤٧٦)

البالية للقطن والكتان تنقّع في الماء الى ان تصير عجيناً ، فتفصلُ منه قطعة بقدر الحاجة وتطرح على مائدة ثم تُدلك بعصا مخروطـة وملسة الجوانب وتبسط حتى يمتدّ العجين بأقصى ما يمكن ، فيُصبح كالورقة المفروشة ثم تُجفّفُ وتُقطع على نسبة ما يراد منها .. وكان يقـوم بهـذا العمل النساء خاصة لبيعه والانتفاع بثمنه ، لكن - فيما قيل لي - ان هذا النوع من الورق المصنوع فى البيوت كان أسمر اللّون ، غليظ السمك ، من جنس القراطيس التي تلفُّ فيه السِّلَع والبضائع المباعة ، وهو ما يُعرفُ في تونس باسم (الكاغذ القراطسي) .

ويفهم من هذا ان صناعة الكاغذ كانت رائجة فيما مضى من الزمان في تونس ، ثم فَقَدت الرقّة والليونة المطلوبة لضياع التقاليد الصناعية القديمة من جهة ، ومن اخرى لمزاحمة الورق الافرنجي الذي طغى على أقاليم المشرق وهاجمها باتقان الصُّنع ، و نصَاعة اللّون ، ورخص الثمـن ، وذلك من القرن الثامن للهجرة،حيث أستورد من (البُنْدُقِيّة: Venise) واشتهر الى الآن باسم (البُنْدُقي) وكان يجلب أيضـا من غيرهـا من الاقطار الاروبية .

* * *

وفي فصل آخر سنبحث عن انـتشار الخط العربي في المغرب ، وعن تطوره ومميزاته وأساليبه في سائر أدواره ، ان شاء الله تعالى .

الموسيقى وآلات الطرب

في

القطـر التـونسي

الموسيقى وآلات الطّرب

في القطر التــــونسي

تمهيــــد

مهما تتبّع الباحث رسوم الحضارة في المجتمع البربري الذي يقطن شمال افريقية من قديم الزمان فانه لا يجد للفنون الجميلة - ومنها الموسيقى - أدنى أثر يذكر ، وغاية ما يقال أن الاهالي الاصليين كانوا يتغنون ببعض ألحان ساذجة بسيطة ، ربما قلّدوا فيها أغـاني الزنوج المحيطين بهم من ناحية الجنوب - الصحرآء الكبرى والسودان - فالقبائل المحـافظة على بربريتهـا الاولى مازالت تصـوّت بالحـان أقرب مـا تكون الى ايقـاع السودانيين ، ولا غرابـة في ذلك إذا علمنـا أنهم ورثوا لغتهم القـديمة (الشلحـة) من الاصل الحامي ممزوجا بالتـاثير السامي ، ذلك الاصل الذي تولدت منه لهجات زنوج افريقية الوسطى باسرها وبعض لغـات الحبشة واللوبية يعني لغة البربر الأوّل .

ويمكن الاستدلال على بساطة الموسيقى لاي شعب كان بآلات الطرب التي يستعملها لهذا الغرض. فالأمم البربرية ليس لها من الادوات إلاّ مزمار - وهي (الشبابة) - يتخذ في الغالب من القصب ينفخ فيه أو نوع من الرباب ذي وترين لا غير (القمبري) وهو عيّن ما يوجد عند الزنوج البدائيين. وهذا من أكبر الشواهد على تاخر التلحين عندهم

وكذلك الشان في الاصوات نفسها التي تتغنى بها القبائل البربرية مثل جبل (زُوَاوَة) - كتامة قديماً - وبلاد (الرّيف) وأهل جبال المغرب من (السوس) الادنى والاقصى ، فإن الإيقاع فيها بسيط جداً ولا يتجاوز بعض مقامات السلّم ، شبيه ما يشاهد عند السودانيين .

وهذه هي الالحان الساذجة التي وجدها العرب عند عشائر البربر لما فتحوا البلاد عليهم ، وبقي استعمالها شائعا بين السكان الاصليين الى ان امتدّ التعريب في البلاد ورسخ في البيئات اللوبية ، فتحولت أوضاعهم بالتدريج الى أوضاع عربية ، وانتشرت على مرّ الزمان من الحواضر العربية أو المتعرّبة حتى بلغت قَرَارَات البربر ،

فالقطر الافريقي - البلاد التونسية - مثلا تمّ تعريبه لغةً وأخلاقا وفناً في مدى ثلاثة أجيال او اربعة لوجود مدينة القيروان في القلب منه ، بخلاف ما كان من البلاد في أطراف المغرب فقد تسرّب إليه التعريب على بطء بحسب الظروف والاحداث السياسية .

أول غناء للعرب في افريقية

ومهما يكن من أمر فإن العرب لما تمّ لهم امتلاك افريقية أدخلوا إليها - علاوة على دينهم - لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وطرائق معائشهم ومختلف أوضاعهم وحتى ألعاب صبيانهم التي يشاهد جانب كبير منها عند صغار افريقية الى الآن .

على ان الوافدين الأوّلين من العرب كانوا إما من الجنود والموظفين او من التجار ممن لا عناية لهم بالموسيقى ، ولا يملكون أية خبرة باوضاعها ، ولكن كانوا لا محالة يتغنون باشعارهم على طريقة « الحُدَآء » تلك الطريقة التي استقلت بها قبائل جزيرة العرب وكانت منبثّة في سائر أنحائها ، وهي ألحان كانوا يتسلّون بها في أسفارهم وفي مسايرة إبلهم وقطع المفاوز والبراري .

ففي أثناء القرن الاول وصدر الثاني أدخل الفاتحون طريقتهم في الحُدَآء الى افريقية فلقنها عنهم أبناؤهم وكذا أبناء مُسْلِمةِ البربر ، فصاروا يرجّعون الاصوات بأبيات من شعر الجاهليين او المخضرمين

ومن الحظ الكبير ان دلّنا مؤلف تونسي قديم[1] على نوع الأبيات التي كان يترنّم بها في ذلك العصر السالف ، وإليك البعض منها :

---

(١) هو : احمد بن يوسف التيفاشي الافريقي المتوفى سنة ٦٥١ (١٢٥٣) وضع كتاباً جليلا جدا في فن الموسيقى والرقص اسماه « متعة الاسماع في علم السماع » يوجد منه نسخة بخط مؤلفها في احدى المكتبات التونسية

صــوت

أَشــارَ بتوديعٍ إليَّ بَنَــانُها … إشارةَ محزونٍ ولم تَتَكلَّم

صــوت

يا أُمَّ طلحـة والـديار بعيـدة … والنّجمُ من غفلات قومك أقربُ

صــوت

حمـامةَ بطن الواديَيْن ترنَّمي … سقاكِ من الغر الغوادي مطيرها

صــوت

عهدي بها في الحيِّ قد جرّدت … بيضـآء مثـل المهرة الضـامرِ

صــوت

صَحَاالقلبُعن سَلْمىوأقْصرَبَاطِلُهْ … وعرّي أفراس الصبا ورواحلُهْ

صــوت

وكنتُإذامَازرت سُعدَىبارضها … أرىالارضَتُطوىليوَيَدْنو بَعيدُها

صــوت

ولقد أردت الصبرَ عنكِ فعاقَني … عِلَقٌ بقلـبي من هَـواكِ قـديمُ

صــوت

تَجُولُ خَلَاخِيلُ النساَء وَلَا أَرَى … لِرَمْلَةَ خِلْخَالاً يَجُولُ وَلَا قَلْبَا

صــوت

جْ بالمَطِيّعلى الكثيب من الحِمَى … وبِلَغْلَـعٍ حـطّ الركابَ مُخيّمَا

وظل أَبنـاء افريقية ـ من عرب وبربر ـ يردّدون تلك الاصـوات وأضرابهاويَحْدون بها في فـترة ما بين استقرار السُلْطَة الأُمَـويّة وبين ظهور دولة بني العبّاس .

الغناء ايام العباسيين

وفي أثناَء تلك المدة قام الامرآء من آل المهلب ـ وهم من هم ، حسباً ونسباً وكرماً حاتمياً مشفوعاً بحكمة سياسية قلما اجتمعت في افراد أسرة واحدة ـ نشأوا في مهد الحضارة المنتشرة في العراق ، وسكنوا بغـداد قُطب العالم المتمدن ، وتـداولوا الولايات الجليلة جيـلاً عقب جيل من السند الى أرمينية الى مصر الى المغرب عامة .

جآء (يزيد بن حاتم المهلبي) أميرا على افريقية،قادماً عليها من ولاية مصر ، فدخل القيروان سنة ١٥٥ (٧٧٢) . وناهيك من كان في صحبته من العلمآء والادباء واهل الفن . وناهيك ما جلب يزيد ومن جاء بعده من آل بيته من وسائل الترف واسباب التمدن .

وقد سَرَت تلك التقاليد الحضرية الى المجتمع القـيرواني ، ومنـه انتشرت في سائر أنحاء البلاد ، فعصر (بني المُهَلّب) يعدّ بحق مبـدأ لتغيير أوضاع السكّان ، فقد قلّدوا رسوم هؤلآء القادة الميامين ـ والناس على دين أمرائهم .

ومن بين وسائل الحضارة التي جاء بها (المَهَالِبة) من العراق . آلات الطرب ولا سيما ذات الاوتار كالعود والرباب ، والطنبور (١) والبربط (٢) وغير ذلك ، وهكذا اقبل الافارقة على تعلّم فن الموسيقى بعد ما لقنوا ترنيم الُحداء وأهازيج العرب ومحركاتها . ففي آخر القرن الثاني صرت ترى ذكر آلات الاوتار في البيئة القيروانية ، اما قبل ذلك فلا أثر لها في الاخبار والتراجم .

روى ابو العرب : « ان شاباً من ابناء الاعيان كان يختلف إلى البهلول بن راشد ـ عابد القيروان المتوفى سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) ـ ويحضر دروسه ، ثم إنه تركها واعرض عن حضورها وأقبل على المُجُون واللّهو . وقد بلغ البهلول الامر فساءه . فبينما هو ذات يوم جالس إذ مرّ به الشاب وتحت ثوبه « طنبور » فصدق عند البهلول ما نقل اليه » (٣)

على ان العاصمة القيروانية في ذلك الزمان لم تخلُ من حوانيت

(١) الطنبور، ج طنابير آلة ذات أوتار مثل الغود ،لكنها أطول يداً منه وأرق

(٢) البربط معرب فارسي ومعناه (صدر الاوز) لانه يشبهه وهو فرع من عود الايقاع

(٣) معالم ١ : ٢٠٥

تصنع بها آلات الطرب وتُباع ، مثل المزاهر (الدُّفوف) وشَبَّابات القصب ، كما يستفاد ذلك من خبر اورده الدباغ (١)

الموسيقى والاغالبة

ثم كانت دولة بني الاغلب (القرن الثالث) وفي مدتها تأصّلت الاوضاع العربية وتقاليدها ، وقد رحل أبناء افريقية إلى عواصم المشرق وحواضره ، وامتزجوا بسائر الطبقات واكتسبوا العلوم والاخلاق والعادات ، ثم عادوا إلى اوطانهم معلّمين ومرشدين . وبَثّوا ثقافتهم في الاقارب والاباعد ، فتأثّلت الرفاهية في البلاد .

يضاف إلى ذلك أن الامراء الاغالبة أنشأوا المدائن والقصور، ومنها انتشرت مذاهب التمدن والرفاهة الى المجتمعات . وصرت لا ترى قصراً الا وفيه أسباب البذخ، ولا داراً من دُور رجال الدولة والاغنياء إلا وللملاهي فيها نصيب .

ظهرت هذه الحركة التمدينية بعد ان أسس إبراهيم الاول مدينة القصر ـ وتُسمّى (العبّاسية) خارج العاصمة القيروانية ـ وأقرّ فيها بلاطه وحَرَسه وحاشيته. وابتنى دوراً لرجالات دولته على اختلاف رُتَبهم ، وسمح لسائر الناس بتخطيط البيوت بها .

(١) معالم الايمان

هنالـك سكن المعلّمون والمؤدبون ، وهنالك تلقّى صغار الامـراء وأبناء الرؤساء مبـادىء العلوم والفنـون ومـرنوا على الفروسية ، كما لُقّنَت الحظايا أصول الموسيقى من إيقاع وغناء على أساتذة فنانين قدموا من المشرق ، ومن ثمّـة ظهرت عـلائم الرقي ، ودبّـت روح حضرية جديدة لم تكن مالوفة من ذي قبل .

زرياب في افريقية

ولا ننسى ان افريقيـة ـ بموقعها الجغرافي ـ كانت مقصد الوافدين من المشرق ،ومحط العابرين إلى المغرب من أدناه إلى أقصاه بإدخال الغاية، أعني بلاد الاندلس ، فكان كلّ من يَـؤُمُّ المغارب يجتاز بحكم الضرورة على افريقية وينزل بالقيروان فيُقيم بها قليلاً أو كثيرا .

وفي هذه الآونة قدم عليها رئيس المُغَنِّين المُعَلِّم (زِرْيَاب ، علي بن نافع) في طريقه الى قرطبة ، وكان ذلـك أواخر سنة ٢٠٥ هـ ، فنزل بأهله وحشمه بالعاصمة الافريقية ، وعَلِم زيادة الله الاول بمقدمه فاستدعاه وأدناه واستضافه أشهراً في أحـد قصور (العبّاسية) وتمتّع هو وحاشيته بالحانه الفنية وايقاعه البديع،وكان خروجه من القيروان في خلال سنة ٢٠٦ (٨٢١) [1] .

(١) نفح الطيب ج ١

ولا يبعد في تلك الفترة ان يكون بعض فتيان الامير وجواريه قد اخذوا عن زرياب . على ان زيادة الله الاول زوّده بعطـايا سنية لنـفقة السفر ، وعلى ذكر زرياب يناسب ان نلمح بكلمة الى مـا كانت عليه الالحان والاغاني في العُدْوة الاندلسية قبل عبور هذا الفنّان اليها . ولدينا في هذا المعنى خبر من الاهمية بمكان :

قال التيفاشي : « أخبرني ابو الحسن علي بن سعيد (الغرناطي) ان اهل الاندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى ، وإما بطريقة حُـدَاة العرب ، ولم يكن عنـدهم قانون يعتمدون عليه الى ان تأثّلت الدولة الأُموية وكانت مدة الحكم الرَبَضي (من سنة ٢٠٦ الى سنة ٢٣٨هـ) فوفد عليه من افريقية من يحسن غناء التـلاحين المدنية ، فأخذ النـاس عنهم إلى أن وفد الامام المقدم في هذا الشان علي بن نافع الملقّب (بزرياب) غُلَام إسحاق المَوْصلي . [1] »

فانت ترى من هذه العبارة البسيطة ما كان للبـلاد الافريقية في العصر العربي الاول من نصيب وافر في تلقين أهـل الاندلس أوضـاع الموسيقى الشرقية ، وفي تأهيلهم لاتقان الفنون الاسلامية على العموم . وفي إعـدادهم اخيراً لاظهـار تلك الحضارة العربيّة الغضـة التي اشرق نورها بعد ذلك وتلألأ في سماء القارة الغربية . ثم بعد أجيال واحقاب

(١) التيفاشي في كتابه « متعة الاسماع في علم السماع » (مخطوط)

تسنّى لذلك الشعاع النيّر أن ينعكس ويعود إلى افريقية التونسية ـ منبته الاول ـ فيستقر بها نهائياً وينمو ... وهكذا يعود الغريب (وتلك الايام نداولها بين الناس)

ومهما يكن من امر فربّما كان لزيادة الله نية وغرض في استبقاء (زرياب) في جواره لما كان لشخصه العبقريّ من قوة جذابة . لكن مما يؤسف له ان صادف مجيئه اخطاراً مُحْدقة بسلطان بني الاغلب من جراء ثورة رؤساء الجند . وقد امتدّت الثورة سنين عديدة وكادت ان تقوّض الإمارة من اساسها لَوْلاَ مَا دَبَّرَ زيادة الله من حَمْل الاجناد الافريقية على حرب صقلية وغزوها مِمَّا كان سبباً في صرف انظار الجند واطماعهم الى الفتوح . فشغلهم بذلك عن السياسة الداخلية والتفكير في مشاغبته .

وبالرغم من اشتغال الفكر العام بالغزوات والفتح فقد ظلت « العبّاسية » مقرّ الفنون في البلاد .

الملاهي أيام بني الاغلب

روى أبو العرب : ان الامير محمد بن الاغلب جَدَّ ذات يوم في طلب مروان البَلَوي احد شيوخ السنَّة بالقيروان ـ فلما وصل مروان الى العباسية واجتاز باب سورها وجد فتيان الامير بعضهم بيده عود وآخر

بيده طنبور يجسّه ، فارتاع الشيخ لهذا المنظر الذي لم يعتده بالقيروان[1] .

وفي احد قصور « العباسية » هذه حدث للامير احمد بن الاغلب حادث كان السبب الاصلي في اشادة كثير من المعالم الجليلة التي يفتخر بوجودها القطر الافريقي

استمع الى المؤرخ القيرواني ابي بكر التجيبي يقصّ علينا خبر هذا الحادث :

« كان ابو ابراهيم احمد بن محمد أجمل بني الاغلب صورةً ، وكان له



جارية راقصة بالمناديل

شَعْرة طويلة ، فكان إذَا جلس في قصره مع الجواري للشراب والغناء ،

(١) طبقات أبي العرب : ١١٥ والمعالم ٢ : ٦٨

نُظِّمت شعرته بالجوهر المصنّف ، ويجعل من فوقها التاج المكلّل بالدرر
والياقوت الاحمر . وكذلك يفعل جواريه . فنظر ذات ليلة إلى وجهه
في المرآة فتكلم بكلمة كفر . فلما افاق أُخبرَ بما حصل منه . فندم وأمرَ
برأسه فحلق شعرته وتاب ، وجدّ في طلب القاضي سليمان بن عمران
والعلماء فاستفتاهم في التوبة ، وأمر بإخراج أموال جسيمة من بيت
المال بَنَى بها المساجد والجسور والاسوار والرباطات ومصانع الماء وما
الى ذلك من المشروعات المبسوط ذكرها في غير هذا (١)

ومن خِلال الحكاية المتقدمة نتصور تصوراً ضئيلا كيف كانت
تقام مجالس الغناء والشراب بقصور (العبّاسية) في منتصف القرن
الثالث ،

وبهذه المناسبة لا يفوتنا ان نذكر ان الامير أحمد المتقدم كان قبل
هذا الحادث « جلب من بغداد كمّية كبيرةً من خشب السّاج ليصنع له منها
عيدان الملاهي »فلما صدرت منه تلك الهفوة وكَفَّر عنها ،عدل عن فكرته
الاولى باستعمال ذلك الخشب المجلوب في صنع المنبر البديع العجيب الذي
يرى الآن في جامع القيروان ، وذلك في سنة ١٢٦هـ(٨٧٥م) (٢)

---

(١) معالم الايمان ٢ : ٩٦

(١) معالم الايمان « نقلا عن تاريخ التجيبي »

على أن العاصمة القيروانية نفسها بالرغم من محافظة شيوخها وقاطنيها
على التقاليد الدينية ، والذبّ عن الاخلاق الفاضلة كان يوجد فيها حَيٌّ
خاص للملاهي والطرب ، يألَفُه الشباب وأهل الخلاعة ، وهو الحيّ
المعروف بربض (البَقَرية) فإنه كان مجمع المغنين وأصحاب الآلات
الموسيقية .وقد حفظت لنا الاخبار أسماء بعض اولئك المغنين في القرن
الثالث منهم (قاسم الجُوعِي) و (أبو شرف) وغيرهما .

روى التجيبي عن أبي شرف المتقدم أنه قال : أصبحت يوماً مع
بعض إخواني في الربض المعروف بالبَقَرِيّة ،فبينما أنا أغني وأرفع صوتي
عند بعض أصحابي إذ قرع علينا الباب ، فخرج صاحب المحلّ . وإذا
بالشيخ (أحمد بن معتب) الفقيه قال : « أردت ان ادخل عليكم »
فاستحى منه صاحب الدار واعتذر إليه ، ولما ألح عليه سبقه صاحب
المحل وغيّب ما كان تحت أيدينا من الآلة والشراب . ثم اذن له فدخل
علينا وسلم وسأل : « مَنْ كان منكم يقول ؟ فاشير إلى أبي شرف ،فقال
له الشيخ: سألتك بالله إلَّا أعدتَ الابيات ، فأنشد أبو شرف:

العفو أولى بمن دَانَت له القُدَرُ ... لا سيما العفوَ عمن ليس ينتصرُ
أقرَّ بالذنب إجلالاً لسيده ... فقام بين يديه وهو يعتذر

فتأثَّر الشيخ مما سمع حتى بكى ... إلى آخر الحكاية [١]

مجالس شراب

وَشُربَ النبيـذ أباحه بعض من فقهآء القيروان من الحنفيين [٢] روى أبو العرب [٣] عن أبي سهل ، قال : « سمعت عبد الله بن ابي حسّان [٤] يقـول : « دخلتُ على زيادة الله بن ابراهيم ، فاصبت عنـده

(١) المالكي ١ : ٣٧٠ - في ترجمة احمـد بن معتب بن الازهر الازدي - والمعالم ج ٢ : ١١٨

(٢) النبيذ غير الخمر ، وهو يتخـذ من عصير العنب والتمر وغيرهما ، اذا شرب بعد عصره بقليل لم يسكر ، واذا ترك تخمر وصار مسكر - وحرم شرابه مالك واصحابه والقاعدة عند المالكية ان :(ما أسكر كثيره فقليله حرام) وربما اجازه بعض الحنفيين بشرط ان لا يذهب بالعقـل ، ولا يخفى ان أمرآء الاغالبة كانـوا متمسكين بمذهب أهـل العراق (أبي حنيفة وأبي يوسف) ، متبعين في ذلك ساداتهم الخلفـآء من بني العبـاس - واما (الدبس) فهو عسل التمر وما يسيل منه ومن الرطب

(٣) طبقات ابي العرب ص ٨٨ - والمـالكي ١ : ٢٠٢ - واورد ابراهيم الرقيق هذه الحكاية برواية مختلفة عما ذكرنا ، ونحن نخير ما رواه المالكي في رياض النفوس

(٤) عبد الله بن ابي حسان اليحصبي من تلاميذ الامام مالك بن أنس ومن كبار فقهآء القيروان ومن اجل سراتها العرب - ترجم له ابو العرب والمالكي ومعالم الايمان

أَسَد بن الفُرات ، وابا مُحـرِز وهمـا يتناظران في النبيـذ المسكر ، وابو مُحْـرِز يذهب الى تحليله وأسد يذهب الى تحريمه ، فلما أن قعدتُ قال لي زيادة الله : « ما تقول - يا ابا محمد ؟ فقلت له : قد علمتَ سوء رأيي فيه ، وقاضياك يتناظران فيه ، بين يديك - فقـال لي : نَاظِرني انت ودعهما وقال لي : - ما تقول انت؟ - فقلت : اصلح الله الامير ، كم دِيَّة العقل؟- فقال : - وماذا من هـذا ؟ فقلت : - بجوابك ينتظم سؤالي ، - فقال لي : ديَّة العقل الف دينار - قلت له : - اصلح الله الامير ، يعمـد الرجل الى ما فيه الف دينار بدُكَيْكِجة [١] تسوى نصف درهم ؟ - فقال لي : - يا أبا محمد انه يزول ويرجع - فقلت له : بعد ماذا ؟ اصلحك الله - بعد ان قآء على لحيته، وكشف سوءته ، وسبّ هذا ، وقتل هذا ؟ - فقال لي : صدقتَ، والله صدقت !

ومن الخـبر الآتي يتبين راي أسد بن الفرات في شرب النبيذ فقـد قال سليمان بن عمران - قـاضي القيروان بعـد سحنون - : « وكتب اليَّ رجل من (قمُّـودة) من طلبة العلم ان اسال أسد بن الفرات عن النبيذ، أحلال هو أم حرام ؟ فسألت اسداً عن ذلك فقال : « إن النبيذ اخبث

(١) الدكيكجة تصغير دكوجة هي قارورة صغيرة من فخـار او من زجاج مازال اسمها مستعمل في الجنوب التونسي، ويظهر ان اصل الكلمة بربرية

الخبائث ، ليس تقوم بالنبيذ عبادة ولا صِيَام ولا جهاد ولا صدقة ، إنما يقوم به مِزْمار او عود او طنبور ، فلو لم يعتبر تحريمه الّا باخواته التي تقاربه لكفى . » (١)

وحكى الرقيق انه كان عند الامير زيادة الله مادبة جمع لها وجوه اهل القيروان : ابن ابي حسان ، ومَعْمَر بن منصور الفقيه (٢) وعمران بن ابي محرز ، فاستسقى مِعْمَرُ ماءً ، فقال له الامير : « ان عندنا شَرَاباً كثيراً ، عندنا شَراب الوَرْدِ ، و شَرَاب الجُلَّاب ، وما أشبههما ، ومطبوخ العنب ، ومطبوخ الزبيب ، ونبيذ العسل ، ونقيع الزبيب ، فاختر أيها شئت » ، فامر ان يؤتى به ، فسقاه أحد الغلمان

(١) المالكي ١ : ١٨٤

(٢) هو معمر بن منصور ابو سليمان ، كان والده صقلياً مولى لبعض الاندلسيين ، واستوطن القيروان فولد له بها ابنه منصور ، وكان فقيهاً مفوها على رأي اهل العراق - أي حنفي المذهب - سمع من عبدالله بن فروخ وأسد بن الفرات ، وكان من اصحاب سحنون وكان سحنون يوجه اليه بالعشرة دنانير ونحوها صلة منه ، ويذكر ابراهيم الرقيق في تأليفه « قطب السرور » ان معمراً الف كتاباً في تحليل النبيذ - ولم تقف على سنة وفاته الا انه كان ترباً لاسد بن الفرات - (راجع شيئاً من ترجمته في طبقات ابي العرب والخشني ص ١١٢ و١١٣ - وفي الجزء الاول من « قطب السرور » (مخطوط)

ثلاثة أقداح ، فالتفت إليَّ فقال ما تقول في النبيذ ؟ فقلت أنت تراني أيها الامير أشربه وتسألني عنه ، ؟ »

وقال معمر : « روينا عن عبد الله بن عبّاس قال حرمت الخمر لعينها ، والمسكر من كل شَرَابٍ ، وأتى بأحاديث كثيرة يحتج بها في تحليله . فقال لسحنون - رحمه الله - ما تقول ؟ قال : اختلف الناس فيه وأنا أقول بتحريمه »

وقال زيادة الله لعمران بن أبي محرز ،فانت ؟ قال : كان ابي وأخي يشربانه وكنت أشربُه ثم تركتُ شربَه ، قال ولِمَ ؟ والله إن أباك وأخاك خير منك ، قال : إن ذلك لعلة وهو لا يوافقها . وكان معمر لا يستتر في شرب النبيذ ، وكان لسحنون بن سعيد خِلاًّ وصديقاً لا يغيّر ذلك ما بينهما ، وكان يتفقده كثيراً ويزوره ، فيقال انه دخل يوماً إليه وكأس كبير ملآن بالنبيذ مكشوف بالقرب منه ، فقال له سحنون « : ألاَ تخاف عليه من الذباب ؟ قال هو أ منع جَانِباً من ذلك » (١)

ودخل مَعْمَر يوماً على زيادة الله بن إبراهيم فقال له : يا معمر ، أحب النبيذ . وما تراني أصبر عنه ، فما ترى لي ان اشرب منه ؟ قال : أرى ان تشرب قدحاً واحداً ، فقال له ، ان شرب قدح واحد لا يقوم

(١) ر « قطب السرور » لابراهيم الرقيق (مخطوط)

بي ، قال : فقدحيْن قال : لا يقومان بي ، قال فثلاثة ، قال لايكفيني ، قال : وثلاثمائة . ما لم تسكر ،»

واتى رجل الى معمر فقال له : أصلحك الله ، ما تقول في نبيذ هذا الزبيب الصطفوري [١] المنقّع المضروب بالعسل ؟ - فقال له معمر: «تختك أشقى من ان يكون هذا في بيتك ! »، قال محمد بن زرزور : سمعت معمراً واتاه رجل يساله عن النبيذ النقيع الذي يعمل من الزبيب يقول له ، يا شحيح ! يا بخيل ! أهد لنا منه جرة ! »

ويقول العلامة ابن خلدون في شرب النبيذ عند الحنفية: «وشرابهم انما كان النبيذ،ولم يكن محظوراً عندهم،واما السُّكر فليس من شانهم [٢]

وكان عبد الله بن فروخ على زهده وورعه وصيانته يحلّل النبيذ ويرى شربه غير مستتر فيه .

وروى انه حضر يوماً عرساً بالقيروان لبعض إخوانه ، فلما اتي بالطعام جلس الى جانب ابن فروخ رجل متصوّف ممن يرى تحريم النبيذ ، فنظر إليه ابن فروخ وقد اخذ دجاجة من على المائدة فلفّها في

---

(١) نسبة الى ارض صطفورة ، وهي مقاطعة تقع ما بين ماطر اليوم وبنزرت .

(٢) المقدمة ص ١٨

منديل وجعلها تحت المائدة ، ثم أُتي بالنبيذ فَدُفع الى ابن فروخ قدح كبير فشربه ثم مليء فدفع الى ذلك الرجل الذي كان الى جانبه ، فامتنع من شربه وامتعض وغضب واظهر كراهة شديدة ، وقال: انا لا اشرب النبيذ ، - فالتفت اليه ابن فروخ كانه يُسَارّه وقال: «اشرب، يا سارق الدجاجة ! » لانه اخذها من غير اذن صاحبها [١]

وهكذا كان الزّهاد من علماء القيروان - وهم كثيرن - يستسيغون الغناء والسماع ويسارعون الى حضور مجالسه ، وكان له معهد مخصوص ويوم موعود في كل اسبوع يشهده جم غفير من كبار الفقهاء ويحضره جماعة من المغنين ممن اشتهر بحسن الصوت ويصفونهم (بالقوّالين) يتناشدون أشعار الرقائق على طريقة اهل الذوق من الصوفية ، وهو (مسجد السبت) بناحية الدمنة خارج البلد قريباً من تربة الصحابي ابي زمعة البلوي [٢]

وليس من قصدنا اطالة الكلام هنا على هذا المحل الذي خصصنا له بحثاً مستقلا ، ولنعد الى انباء الموسيقى والالحان .

---

(١) « قطب السرور » (مخطوط) وكان مؤلفه ابو اسحاق الرقيق ينتحل المذهب الشيعي متبعاً في ذلك الملوك الفاطميين

(٢) معالم الايمان ٢ : ١٥٩ و٣ : ٢٧

لما آلت الامارة الاغلبية الى ابراهيم الثاني كان من اوليات اعماله ان نقل عاصمة الملك الى (رقّادة) سنة ٢٦٤ هـ . وترك سكنى العبّاسية وكان من اثر هذه النقلة ان تقدمت العلوم والآداب والفنون الجميلة تقدماً حثيثاً لم يعهد له مثيل في تاريخ البلاد .

أرسل ابراهيم من اول عهده سِفارات متعددة الى المشرق بقصد تجهيز عاصمته الجديدة بكل ما تحتاج إليه من اسباب وأثاث ورياش ، وكذا سعى في جلب علمــآء رياضيّين وفنّانين مُضاهاةً لما كان يشاهد بحواضر التمدن الكبرى : اعني الفسطاط ، وبغداد ، وسرّ من راى ، ومن الارساليات المذكورة في التاريخ سفارة (ابي بحر بن أدهم) احد رجالات الدولة ، وقد اخرجه ابراهيم الى مصر والعراق [١] في سنة ٢٨٣هـ(٨٩٦م) . وبعد غياب اشهر عاد الرسول بحر ورآه الاطبآء والفنّانين ، ومن ضمنهم (مؤنس) المغني . وكان قبل ذلك في خدمة (موسى بن بُغَا) القائد العباسي المشهور، علاوة على ما جلبه الرسول الى مخدومه من الجواري الحِسان والكتب والآلات والاعلاق النفيسة.

وبفضل هذه العناية اصبحت « رقّادة » الباعث القوي في النهضة الفنية لافريقية ، وبقيت مدينة القيــروان أُمّ البلاد للعلوم الشرعية

(١) البيان المغرب ج ١

ومركز المحافظة على التقاليد الاسلامية المبنية على الحيآء والمروءة والاخلاق العالية ، بحيث كنت ترى في (رقّادة) مقرّ الامارة الجديدة الاقبال على العلوم الرياضية من تحرير حركة الافلاك بآلات الرصد ، والاهتمام بالفنون الجميلة والمستظرفة ، وكنت تمرّ في بعض احيائها فتشاهد محلاّت اللهــو والخلاعة ومجالس الطرب والعزف والمجون وبجانب ذلك الخمّارَات يباع فيها النبيذ علانية حيثما حرص الأمير على منع تداول المسكرات في العاصمة الدينية الكبرى ، مما جعل بعض الظرفاء من ادبآء القيروان يخاطب ابراهيم الثاني بقوله [١] :

يا سيد الناس وابنَ سيّـــدهم — ومن اليه رِقَاب الناس منقاده
ما حـــرّمَ الشربَ في مدينتنا — وهو حـــلالٌ بأرض رقّاده

مؤنس المغني

ومما لا شك فيه ان (لمؤنس) المغني اثراً قوياً في نشر الطريقة المشرقية في الغناء والتوقيع . كما كان للطبيب الوافد معه (اسحاق

(١) البكري ص ٢٨

بن عمران) اكبر اثر في بث العـــلوم الفلسفية في البيئات الافريقية ، وقد بسطنا الموضوع في بحث خاص تقدم قبل هذا [١]



مغني بالعود « قرن ٣ هـ »

ولنعد الى خبر (مؤنس) فإنا نعلم انه كان يلقّن الفن الغنائي للجواري في قصور رقّادة ، ويحضر مجالس الامراء ويطربهم في أوقات

(١) راجع البحث المخصص لبيت الحكمة التونسية » في الجزء الاول من « ورقات » طبع تونس ١٩٦٥ ص ١٩٢

انبساطهم بالمنادمة ويسليهم بأنـغامـــه وتوقيعه الفنّي على العـود والطنبور .

روى ابو اسحاق الرقيق ان الامير ابراهيم الثاني دخل يوماً الى امه (تُراب) فقامت اليه ورحّبت به ودعت بطعام وشراب،فتناول منها وتحدث . فلما راته قد انبسط قـالت له : « ان عندي وصيفتين ادبتهما لك وادخرتها لمسرتك،وقد طال عهدك بالأنس، وهما يحسنان القرآءة بالالحان،فهل لك ان احضرهما لك للقرآءة بين يديك ؟ فقال : افعلي. فامرت باحضارهما فحضرتا ، فامرتهما بالقرآءة فقرأتا احسن قراءة ، فقالت له : فهـل ترى ان تنشداك الشعر ؟ قال نعم فامرتهـما ففعلتا ، فقالت له : هل لك في الغناء ؟ فقـال : نعم فأمرتهما فغنتـا ارتجـالاً ، ثم قالت : فهل في ان يغنيا بالعود ؟ فقال : نعم ـ فغنتا بالعود والطنبور ابدع غناء حتى اخذ فيه الشراب وانصرف » [١]

مجالس الانس برقادة

وحكى الرقيق ايضا [٢] : « ان الشاعر (بكر بن حمّاد) كان

(١) اعمال الاعلام لابن الخطيب تحقيق المؤلف طبع بلرم سنة ١٩١٠ ص ٤٤٢

(٢) الحلة السيراء ص ٢٦٢

ينتجع ابراهيم الثاني ويمدحه فيصله بالجوائز السنية ، فَغَدَا ذات يوم - وهو في رقادة - بمديح له الى (بَلاَّغ) الفتى ، فقال له بلاَّغ : الامير عنا مشغول في هذا اليوم . قال بكر : فالطِف بي في إيصال رقعتي إليه، فقال بلاغ « الامير مصطبح في البستان مع الجواري على بركة القصر، ولا يصل إليه أحد »

فألَحَّ بكر وكتب رقعة ، وجعل بلاّغ يحتال في توصيلها مساعدة له ، وفي الرقعة ابيات منها :

خُلقن الغواني للرجال بَليّــةً ... فَهُنّ مَوَالِينَا ونحنُ عَبيدُها
اذا ما اردنا الوَردَ في غير حينه ... اتتنا به في كل حينٍ خدودُها

وكتب تحت الابيات :

فإن تكن الوسائل أعوزتني ... فإن وسائلي ورد الخـــدود

ووصل الشعر الى الامير فلما قرأه أمر الجواري بإنشاده وايقاعه على العود بمحضر (مؤنس) المغني ، فاظهر الجواري سروراً كبيراً بذلك وتوسطن إليه ان يخرج بصرة مختومة الى الاديب القائل ، فيها مائة دينار »

فهذا نموذج حيّ من مجالس الأُنس التي كانت تجمـــع « مؤنسا »

والجواري في حضرة ابراهيم الثاني، إلا ان الانبآء الواصلة الينا عن هذه المجالس قليلة - وقليلة جدا - بسبب فقدان المصادر التي يرجع اليها في مثل هذا ، ومن جهة اخرى لسعي الفاطميين في طمس معالم من سبقهم في الملك ، ولقد استمر (مؤنس) في مصاحبة الامراء الأغالبة الى آخر عهدهم ، يطرب ويعلّم ويلقّن .

وحكى الرقيق أيضا : أن الامير زيادة الله الثالث سال (مؤنساً) يوماً هل يعلم صوتاً من أصواته لم يسمعه منه في ذي قبل ، فغناه :

ولي كبد لَوْلاَ الأَسَى لتصدّعتْ ... وقلبٌ أبى أن يستريحَ الى الصبرِ
وقد كنتُ أُخشَى هجرَهم قبل بَيْنهم ... فقد صُرْتُ بعد البَيْن أقنع بالهجر

فأعجبه ما أنشد ووقع منه أحسن موقع وغنى به (مؤنس) على العود فطرب الامير وامر له بِخِلَع وكيس فيه مائة دينار وفرس بسرج ولجام مُحَلّيين (١) . وليست هذه باول عطية فاخرة تناله منه .

جلب المغنيات والآلات

اقتفى زيادة الله الاصغر أثر جدّه ابراهيم الثاني في الاعتنآء بالعلوم

(١) الحلة السيراء ص٢٦٥

والاداب الرفيعة، فجهّز السفارات الى المشرق بقصد مُهاداة خليفة بغداد على ما جرت به عادة اسلافه ، وبقصد استنهاض همة العباسيين لمقاومة الحركة الشيعية الظاهرة وقتئذ بافريقية ، واخيراً لتزويد قصره بالاطبآء الحكماء والجواري ، وكذا لجلب الكتب النفيسة والتحف والاعلاق .

فقد أخرج في عام ٢٩٦ (٩٠٤) أي سنة بعد ولايته - أحد خواصّ رجال دولته : (الحسَن بن حاتم) الى العراق مصحوباً بهدية من جملة ما تضمنته : مائتا خادم ،وخيل بالسروج المحلاّة ، وبزّ كثير ،وطيب ، وألف ومايتان من اللبود المغربية الغالية ، وعشرة آلاف درهم فضةً كبيرة الحجم في كل درهم عشرة دراهم ، وألف دينار ذهباً وزن كل دينار عشرة دنانير من المعتاد ، منقوش على وجهيْها بيتان من الشعر المناسب للمقام ، الى غير ذلك .

قال الصولي في كتاب الوزراء : « قد رأيت ببغداد الشيخ القادم من افريقية - يعني الحسن بن الحاتم - من قِبَل زيادة الله بن الاغلب الى الخليفة - المكتفي بالله - وكان شيخاً عظيم اللحية ومعه مال عظيم فاشترى مغنيات بنحو ثلاثين ألف دينار لابن الاغلب »[1]

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٥ : ٣٩٦

وفي طريق رجوعه اشترى من مصر ايضا نفائس الآلات والمتاع واتّفق مع الطبيب (اسحاق الاسرئيلي) فجلبه الى رقّادة . وليس من شك ان من بين الطرائف المقتناة أدوات الموسيقى ، على ندرة ما تجود به الاخبار الواردة في هذا الشان .

والذي يهمنا هنا هو أن (مؤنساً) استمر على القيام في خدمة زيادة الله ومنادمته الى آخر أيام ملكه على ما في تلك الايام من الاضطرابات والفتن بظهور الدعوة الشيعية في أطراف المملكة ، مما جعل الامير مشغول البال مشتت الفكر من جرآء حرب أبي عبد الله الصنعاني الداعي للفاطميين .

وكان إذا ظهر الغَمّ على زيادة الله وغلب عليه التفكير بأمر الشيعي أخذ لَهُ حشمه وأهل قصره في أسباب التسلية والاستجمام .

قيل انه كان ذات يوم على تلك الحال البائسة في قصره - قصر البحر - اذ دخلت عليه احدى حظاياه - وربما كانت ممن تعلمن على (مؤنس) فغنته وقد ضمت العود الى صدرها :

أصبر لدهرٍ نال منك   فهكذَا مضت الدهور
فَرَحٌ وحُزْنٌ مرةً   لاَحزنَ دامَ ولا السرور

فرفع رأسه وقال لها : صدقت ! » وأمر لها بصلة فاخرة [١]

ولا ادري هل كانت هذه الجارية هي التي وقفت إليه ليلة فراقه رقّادة الفراق الاخير ، متوجهاً الى المشرق ، تاركاً وراءه ملك آبائه وأجداده ،مسلّماً في منازلهم للقوات الفاطمية الهاجمة ، وذلك وقت صلاة العشاء من ليلة الاثنين لاربع بقين من جمادى الاخرة سنة ٢٩٦ هـ (٢٠ مارس ٩٠٩)

قال رواة التاريخ [٢] : فلما كان خارجاً من آخر باب للقصر وقفت له جارية من جواريه وقد ضمت عُودَها على الصدر وغَنَّتْه لتحرّكه على حملها معه ، وانشدته :

لم أَنْسَ يوم الوداع موقفَنا   وجفنَها في دموعها غَرِقُ
وقولَها والرُكّاب سائرةً   تتركني سيدي وتنطلِقُ
أستودعَ اللهَ ظبيةً جَزِعَتْ   لِلْبَيْنِ والبَيْن فيه لي حُرَقُ

فبكى زيادة الله واستبكى،وأنزل حملاً ذهباً كان على دابة وأركب الجارية ، والبقاء لله وحده !

أما المغني (مؤنس) فإنه بقي في جملة من بقي ، ودخل في زمرة

(١) البيان المغرب ١ : ١٣٩

(٢) اعمال الاعلام لابن الخطيب ص ٤٤٦ من نشرة المؤلف في كتاب تذكار أماري - ط بلرم بصقلية سنة ١٩١٠

مَن انضم مِن موالي الاغالبة وفتيانهم إلى خدمة عبيد الله المهدي في قصور رقّادة ، ثم انتقل معه الى المهدية بعد بنائها في جملة الحشم والاتباع ، ولم نعد نسمع خبراً عنه ولا ما كان حظه لدى عبيد الله المهدي ، ولم نقف له بعدُ على نبإٍ الا حين قضى نحبه فإنه توفي فجأة في آخر سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م)[١] وقد تجاوز عقد الستين .

وهكذا تنتهي حياة ذلك الفنّان البغدادي التربية والولادة ، الافريقي الوفادة والافادة . الذي قضى من عمره ثلاثين حولاً في التطريب والتدريس ، والتلقين ، والانتاج ، ولم يقتنع بايقاع ما تعلّم في صغره في المشرق ، بل طالما لحّن اغان مخترعة ، وأهازيج مبتدعة ، على أشعار الادباء الوطنيين في الغزل والنسيب والحماس ، لاسيما ما كان منها من اقوال الامراء والوزراء مثل عبد الحميد الصائغ وبكر بن حماد وسواهما كثير .

الموسيقى ايام الفاطميين

وبسقوط الدولة الاغلبية العتيدة انخرطت فرقة من مواليها وفتيانها في خدمة الأُسرة الفاطمية ، لكن هناك ثلة كبيرة من بينهم اختارت

(١) البيان المغرب ١ : ١٩٧

النزوح من البلاد والالتحاق بحاشية الامراءِ الأُمويين بالاندلس : عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثاني المستنصر بالله

وقد ساهم هؤلاء اللاجئون بالقسط الاوفر في تاثيل الحركة العلمية والادبية والفنية الظاهرة بقرطبة في القرن الرابع للهجرة،كما بسطنا القول فيه من قبل،وهنا تجمل الاشارة الى انتقال أحد مشاهير المنشدين القيروانيين :وهو (ابو القاسم بن أخت الغسّاني) فقد ذكروا أن صوته كان أجهر أصوات زمانه وأعذبها وأحلاها ، قال المالكي : « انه كان أطيب الناس مساقاً »

والحق أن ابا القاسم نال فى بلاده سمعة عالية في الإنشاد بل ان شهرته اخترقت البحر وامتدت الى الاندلس حتى ان (الحكم الثاني) امير قرطبة كان يتمنّى ان يراه ضمن حاشيته ، فابلغه الله هذه الامنية حيث قصده ابو القاسم بعد سقوط الاغالبة وانخرط في بلاطه الى ان توفي هناك [١] .

ومن معاصريه منشد آخر لا يقلّ عنه سمعة ، وهو : (حسنون الدبّاغ المعروف بابن زَبيبَة) ، قال الخشني : « واليه ينسب اللّحن

---

(١) المالكي ج ٢ : مخطوط

الحسنوني » وانا لا نعلم شيئاً عن هذا اللحن ولا عن ماهيته واصوله[١]

ومن مشاهير المغنين في آخر القرن الثالث : (ابن مرزوق) . ولا نعرف من اسمه اكثر من ذلك ، والذي نعلمه عنه انه كان يختلف الى الفيلسوف (أبي عثمان سعيد بن الحدّاد) ويحضر مجلس إقرائه ، قيل انه جلس يوماً وأخذ ابن الحدّاد في تفسير بعض الاحاديث النبوية لاصحابه ، فلما توسط الكلام سكت سعيد عن بقية الحديث وقطعه ، فلما قام ابن مرزرق قال سعيد الحداد لمن حضر : « كدنا نخجل جليسنا، اذ فطنت ان الحديث الذي سكتُّ عنه فيه ذَمّ الغناء ، فتوقّعت أن ابن مرزوق يكون مَعْنِياً به » [٢] .

وليس من شك أن مثال هؤلاء المنشدين والمغنين اصحاب الاصوات الشجيّة المنسوبة كانوا كثيرين في خلال القرن الثالث والرابع ، غير ان كتب الطبقات أهملت ذكرهم فيمن أهملت

واذ أشرنا الى المغنين اصحاب الاصوات الجميلة الذين اشتهروا ، فكلامنا لا يعني الرجال فحسب بل كان من النساء من برعت في الغناء واتقان الالحان بالسواء .

---

(١) طبقات الخشني ص ٦٤

(٢) المالكي ٢ : ٥١ (مخطوط)

حكى الشيخ ابو الحسن القابسي : « أن مغنية بالقيروان كانت مشهورة بجمال الصوت تغني في الافراح والأعراس . وكانت تقطن بجوار دار الشيخ مروان بن نصر العابد المتوفى سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٢ م) فقام الشيخ ليلة يتهجّد على عادته ، فما قدر ان يصلي بسبب علو صوتها وبعد مداه » (١) .

الفن الفاطمي

مهّد بنو الاغلب وسائل الحضارة وأسبابها الى الفاطميين ، كما انهم يسّروا لهم السبيل الى مدّ سلطانهم على افريقية والمغرب وجزائر البحر المتوسط .

فلولا ما بذله الاغالبة من مساعٍ جبّارة متواصلة للنهوض بالبلاد وانبعاثها لَمَا تهيأ لبني عبيد أن يحيطوا بهذا الملك العتيد البعيد ، ولا تسنّى لهم ان تظهر على ايديهم حضارة عربيّة من المتانة والقوة بمكان عظيم .

ولا مِرَاء أن الموسيقى وفنون التلحين كانت أجلّ مظاهر هذا

(١) معالم الايمان ٣ : ٥٩

الانبعاث ، وقد اعتنى بشأنها الملوك الفواطم مدة اقامتهم بافريقية عناية خاصة ، وساعدهم على ذلك ـ فيما نظن ـ انتسابهم الى النحلة الشيعية التي لم تكن تَرَ بأساً في السماع للايقاع ، كما لم تقل بتحريم التصوير بل انها كانت تجوّز تمثيل الاحياء من آدميين والحيوان في صور بارزة منحوتة من الرخام والنحاس او مرسومة بالادهان على الجدران والمنسوجات والبُسُط تمثيلاً واقعياً او خياليًّا متقناً ،

التصوير عند الفاطميين

ولا يخفى ما للتصوير من المزية الكبرى في تشخيص الجانب المهمّ من الحياة الحضرية في الدور والقصور ، إذ انها تمثّل في جلاء صورة المجالس الخاصة بالملوك في خلواتهم ، علاوةً على ما ترشدنا اليه من هيئة اللّباس والحُلي والرياش وما الى ذلك من شارات الحضارة والتمدن .

ومن دواعي الغبطة للتاريخ وللفن ان تصل إلينا جملة ـ ليست بالقليلة ـ من الالواح المصورة ترجع الى عصر الفاطميين في افريقية وفي مصر . ومن ضمنها لَوْح رخاميّ وقع العثور عليه في بعض الانقاض بمدينة المهدية ـ طوله ٥٣ صنتيمتر وعرضه ٣٦ صنتيمتر ـ عليه صورة نصف بارزة تمثّل شخصيْن جالسيْن . الاولى (جهة اليمين) أميرعربي

متربع وعليه حُلّة حرير على زنديْها توشيح طِرّاز جميل ، وعلى رأسه تاج مرصّع بالاحجار الثمينة . ويتفرع التاج من اعلاه الى ثلاثة افرا ع مثلّثة الشكل على نمط التيجان الكِسْروية عند الفُرْس ، وفي وسط الامير نِطَاقٌ محلّى ايضا بالجواهر ، وبيده اليمنى كاس - او جام - من البلّور ، وبجانب الامير (الجهة اليسرى) صورة مغنية متربعة أيضا وبيدها مزمار طويل تنفخ فيه [1]

والظن الغالب ان الامير الممثّل هنا هو رابع الفاطميين (مَـعَـد الملقّب بالمعز لدين الله) ، وكان مشهوراً بوضعه التاج على رأسه كما وصفه شعراء عصره : علي بن الايادي التونسي ، ومحمد بن هاني وغيرهما. والذي يهمنا بالخصوص من هذا اللّوح هي صورة تلك المغنيـة الجالسة حذو الامير تطربه بصوتها ومزمارها .

وفى متحف الآثار العربية بالقاهرة مجموعة فريدة من أَلْوَاح الخشب عليها صُوَرٌ بارزة مختلفة ، يمثّل بعضها مجالس الغناء والطرب ، وبعضها مناظر للمنادمة ومعاقرة الشراب ، وفي مشاهد اخرى منها ترى اصحاب آلات الايقاع وبين ايديهم العـود والبَرْبَط والرّباب ، والدفّ والمِزْمَار

---

(١) انظر الفصل الذي نشرناه في مجلة (الزهراء) في القاهرة عدد ١٠ ذي الحجة ١٣٥٠ تحت عنوان : « التمثيل عند الفاطميين »

والمُزْهر الى غير ذلك من الاوضاع الموسيقية وأدواتها ، ويرجع تاريخ هذه الالواح الى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، يعني الى زمن فيض الحضارة للدولة الفاطمية في مصر ، ولا إخال مجالس اللهو والمنادمة في عهدهم بافريقية كانت تبعـد عما يشاهده المتأمّل في تلك الالواح ، بل هي على نسق ذلك وغراره وترتيبه ورسومه بالسواء ، قال المرحـــوم صديقنـا الأثرى الكبير الاستاذ زكي محمـد حسن : « ان تلك الالواح الخشبية كانت مستعملة في تغطية جدار بقصر الخليفة العزيز بن المعـز لدين الله ، وهي تشمل مناظر منقوشة فيها رسوم مُطْـرِبين ومُطْربات وعَازِفَات على آلات موسيقية ... وراقصين وراقصات . ورُسِمَ الامير جالساً على أريكة وفي يده اليمنى كأس ، وفي اليسرى زَهْــرَة ، وعلى رأسه عمامة . والى يساره السّاقي يصب الخمر في كاس ، والى يمينـه تابع يقدم إليه صينية ذات غطاء ربما كان المفروض أن تحته شيئاً من الطعام او الحلوى الخ » [1]

واذا ما أتيـح لنا ان نعـلم وفرة الجواري والحضـايا في قصـور الفاطميين برقّادة والمهدية والمنصورية ، مثـل « قَضِيبٌ » و « سُلَاف » و « خَمْرة » و « نَشْوَى » وغيرهن ، جزمنا بـلا ارتياب ما كان يوجـد

---

(١) راجع ك « التصوير عند العرب » ط مصر ١٩٤٢ ص ٢٥٦

بين جدرانها من الفنّانين والمغنّين وأرباب آلات الطرب والترنيم ، اذ ان كثرة ربّات الحِجَال بالقصور دليل قاطع على الاحتفاء بالموسيقى



مغنية بالعود ـ أيام الفاطميين

والرقص وما الى ذلك في مجالس الأُنس ، وهنا نترك الكلام لاخواننا مؤرخي أرض الكنانة ليصفوا لنا ما بلغ اليه الفن الموسيقي عند الفاطميين في مصر ،ونقصر بحثنا على حظ التلحين والاغاني في افريقية.

* * *

الصنهاجيون والفنون والالحان

لما انتقل الفاطميون الى مصر نصّبوا (بني زِيري الصنهاجيين) نُوّاباً عنهم في مملكة افريقية والمغرب ، وأحلّوهم مكانهم . فسكنوا قصورهم بالمهدية والمنصورية واقتدوا بهم في جميع تقاليدهم ورسومهم ، وقد أبقوا انشآءاتهم الادارية وأنظمتهم باختلاف مواضيعها على هيأتها الاولى .

لكن حروب المغربيْن الاوسط والاقصى شغلت أوقات الامرآء الاولين من بني زيري ، فحال بُعْدُ الشقة بينهم وبين الانتفاع بالبلاد الافريقية،والتمتع بآثار الحضارة الظاهرة في عواصمها الكبرى ـ القيروان والمهدية ـ وتونس ـ وفي المدائن والقصور العجيبة التي أحدثها العبيديون للاستراحة والنزهة مثل (المنصورية) و (جَلُّولا) و (سَرْدَانية)التي تَنَعَّمَ بسُكْناها في تلك الفترة عمّال الصنهاجيين .

ودام الامر على ذلك الى ان تولى ثالث أقيالهم وهو : (أبو الفتوح المنصور بن يوسف)فقد قسم أوقاته ما بين مقاومة الثوار ببلادالجزائر وبين الاقامة بإفريقية ، واتخذ لنفسه قصراً ضخما ابتناه في المنصورية كان يسكنه لما يحلّ في البلاد ، ومن ذلك الحين ابتدأ عصر جديدللنهضة

الادبية والفنية ، وهذا العصر يمتاز بكونه عصراً افريقياً بحتاً بلغ من الحضارة العربية الذروة في الترفه والبذخ والانتاج العجيب ، ودام أكثر من ثلاثة أرباع القرن ولم ينته الا بكارثة الهلاليين كما سنراه بعد .

وفي الاثناء استحكمت الصِلات بين تونس ومصر الفاطمية، وتداولت السِفارات بين القطرين مما كان له أثر كبير في الانتعاش والانبعاث ، وترأس هذه الإرْسَالِيات السياسية والودية نخبة من كبار رجال الدولة الصنهاجية .

وفي مقدمتهم ثلاثة أدباء محنكين من هُواة الادب والفنون ، وهم : (الحاجب عبد الوهاب) (وابراهيم الرقيق) و (محمد بن عطية الكاتب) .

ويناسب هنا أن نورد نُتَفاً من أخبار هؤلاء السفراء الثلاثة للدلالة على مالهم من فضل في تقدّم الفن ، والفن الموسيقي بصفة خاصة .

الحاجب عبد الوهاب

أما (عبد الوهاب بن حسين بن جعفر) فكان حاجب الدولة في مدة المنصور وقبله، وقد عرّف به أخص أصحابه ابراهيم الرقيق بقوله:

«وممن أدركته وعاشرته (عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب) وذكرته ها هنا لانه يلحق بالامراء المتقدمين غير خارج منهم ، ولا مقصّر عنهم ، بل كان واحد عصره في الغناء الرائع والادب البارع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الانيق. ورقة الطبع واصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التي لا يلحق فيها ، مع شرف النفس وعُلو الهمّة ، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو واللّعب والفكاهة والطرب ، وأعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون، كثيراً ما يقول الابيات الحسنة في المعاني اللطيفة . ويصوغ عليها الالحان المطربة البديعة المعجبة، اختراعاً منه وحذقاً ، وكانت له في ذلك قريحة وطبع . فكان اذا لم يزره احد من اخوانه حضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته، منهم (جيش) ولده ، وعبد الله ابن أخيه وعلي، وابراهيم ، واسماعيل بنوقيس وعامر الشطرنجي وبعض غلمانه. كل هؤلاء يغنون ويجيدون ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم ، وكان (بِشَارة) الزامر الذي يزمر عليه من حذّاق زَمَرَة المشرق ، وكان بعيد الهمة سمحاً بما يجد ، تغلّ عليه ضياعه في في كل عام أموالاً ، فلا تحول السنة حتى يفسد جميع ذلك ويُستَسْلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مغنٍ الاسأل من يقصد لهذا الشان ،

فَيُدلّ عليه ، فمن وصل اليه منهم استقبله بصنوف البر والاكرام . وكساه وخلطه بنفسه ، ولم يَدَعْه الى احد من الناس ، فلا يزال معه في صَبُوح وغَبُوق وهو يجدّد له في كل يوم كرامة حتى يأخذ ما عنده من صوْت مطرب أو حكاية نادرة »

ولايسعنا في هذا المقام الا ان نثني الثنــاء العطر على مؤرخنا (الرقيق) في التعريف الرائع الذي وصف به حياة صاحبه الفنّان في مجالس أنسه،وقد أضاف مِنّةً أخرى بسرد حكاية طريفة عن الحاجب المذكور تنمّ على شغفه الكبير بالالحان واجلاله لها وتقديره لمن ينتسب اليها،قال الرقيق : (۱)

مغنون من المشرق في المغرب

« وجلس (الحاجب عبد الوهاب) يوماً وقد زاره رجلان من اخوانه وحضر أقرباؤه فطعموا وشربوا وأخذوا في الغنـاء ، فارتجّ المجلس إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال : « بالبـاب رجل غريب عليه ثِيابُ سفرٍ ذكر انه ضيف،فامر بإدخاله.فإذا رجل شُناط رث الهياة،

(۱) ر « قطب السرور » من تاليف إبراهيم الرقيق (مخطوط)

فسلم عليه ، فقال : أين بلد الرجل ؟ ـ قال البصرة ، فرحّب به وأمره بالجلوس . فجلس مع الغلمان في صفّة،وأُتي بطعام فاكل وسُقي أقداحاً، ودار الغناء في المجلس حتى انتهى الى آخرهم.فلما سكتوا اندفع الرجل يغني بصوت نَدِيّ وطبع حسن :

ألا يا دارُ ما الهجر   لِسُكّانك من شاني
سقيت الغيث من دار   وان هيّجتِ أشجاني
ولو شئتِ لما استسقيت غيثا غير أجفاني
وما الدهر بمأمون   على تشتيت خلاني

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق في اشارته والطيب في طبعه وقال : « يا غلام ، خذ بيده الى الحمّام وعجّل عليَّ به » فادخل الحمام ونظّف.ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فالقيت عليه ورفعه فاجلسه عن يساره واقبل عليه وبسطه ، فغنى له :

قُومِي امْزِجي التِّبْرَ باللجَيْنِ   واحتملي الرَّطْلَ باليديْن
واغتنمي غفلةَ الليّالي   فربّما ايقظت لِحَيْن
فَقَدْ لعمري أقرَّ منَّا   هلال شوال كل عيْن
ذات الخلاخيل ابصرته   كنصف خلخالها اللجيني

فطرب وشرب ـ واستزاده فغناه :

مَن لي على رَغْمَ الحسودِ بقهوةٍ　　بكر ربيبة حانةٍ عذراءِ
مَوْج من الذهب المذاب تضمّه　　كاس كقِشْر الدُّرةِ البيضاءِ
والنجم في أفق السمآء كانه　　عَيْن تخالس غفلَة الرقَباءِ

فشرب عبد الوهاب ثم قال ، زدني فغناه :

وأنت الذى أشرقت عيني بمائها　　وعَلّمتها بالهجر ان تهجر الغمضا
وأغريتها بالدمع حتى جفونها　　لَيُنكِرُ مِن فقدا الكرى بعضُها بعضا

فمر يوم من أحسن الايام وأطيبها . ووصله وأحسن إليه ، ولم يزل عنده مقرباً مكرّما »

« وكان المغني خليعاً ماجناً مشتهراً بالنبيذ ، فخلاه وما أحبّ ، ثم وُصِف له الاندلس وطيبها وكثرة خمورها فمضى اليها ومات بها » .

ويضيف الرقيق الى قوله : « وعلى نحو هذه الحال كان يفعل الحاجب عبد الوهاب بكل طارىء يطرأ عليه من المشرق ولو ذكرتهم لطال الكتاب »

ثم قال بعد ذلك : « وحضرنا عنده ـ اي الحاجب عبد الوهاب ـ يوماً وقد أُتي بنرجس نوري ، في غاية الحسن والرواء ونهاية الطيب والذكاء ، وقد تثاقل عبد الوهاب عن الغناء ولم يُرَ له نشاطاً ، فلما

وضع النرجس بين يديه امر بمجامر فا حرق فيها نَدّ وعنبر ، فأرَادَ علي بن الطيّب تحريكه وكان من جماعة الكتاب الرؤساء والشعراء الادباء فقال : أتعرفون في وصف النرجس احسن من قول علي بن العباس الرومي ؟ وانشد له :

للنرجس الفضلُ المبينُ وإن أَبى　　آبٍ وحَادَ عن الطريقة حَائِدُ
فصل القضية ان هذا قائد　　زهر الرياض وان هذا طاردُ
واذا احتفظت به فامنعُ صاحب　　بحياته لو ان حيا خَالِدُ
ينهى النديم عن القبيح بلحظه　　وعلى المُدَامة والسماع مُسَاعِدُ
هذي النجوم هي التي ربتهما　　بحيا السحاب كما يربي الْوَالِدُ
فانظر إلى الاخويْن مَن ادناهما　　شَبَهاً بوالده فذاك المَاجِدُ
أيْنَ الخدودُ من العيونِ نفاسةً　　ورئاسة لَوْلا القِياسُ الفاسِدُ

فاستحسنها ـ عبد الوهاب ـ وتناول باقة ودعا برطل ليشربه فقلت له : « مَهْلًا حتى أنشدك ما جُمِعَ فيه من تشبيه ما في يمينك ويسارك ، وانشدته :

أدرك ثقاتك انهم وقعوا　　في نرجس معه ابنة العنب
فَهُمْ بِحَالٍ لو بصرتَ بها　　سبَّحتَ من عُجْب ومن عَجَب
ريحانُهم ذَهَبٌ على دُرَر　　وشَرابُهم دُرٌّ عَلَى ذَهَب
يا نرجس الدنيا اقم أبداً　　للاقتراح ودائر النجب

وله في هذه الابيات لحن طيب ، وإنما اردت تذكيره وتحريكه فلم يزل يَسرّ بذلك،وارتاح له وشرب وامر بالعود ، وكان يُصْلَحُ له قبل ان يؤتى به فجسّه وغنّى في نحو ما انشد ، وما علمنا في ذلك الوقت ان الشعر له اولغيره ، وهو :

نَبِّه نديمك يا غلام … فإن ذا يوم أغرّ

بادر إليَّ بِسَكْرَةٍ … فإذا فعلت فإنتَ حُرّ

واجمع لنرجسك المدامَ … فإن جمعهما يَسُرّ

واشرب عليه شبيهَهُ … وكلاهما ذَهَبٌ ودُرّ

ثم غنّى بعده نشيداً :

ما خاب من جعل الجزيرة موطنا … لا الزّاب يشبهها ولا الخابور

تحيا النفوس بطيبها فكأنها … نيل الرضى يحي بها المهجور

وكأن نرجسها عيون كُحِلَّت … بالزعفران جفونها كافور

وبسيطه :

على بغداد من قلبي السلام … تحية من أضر به السقامُ

لئن أخرجت من بغداد كَرْهاً … فإن القلب فيها مستهام

أذوبُ صبابةً وأموتُ عِشْقاً … وأحسد مَن له فيها مقام

«ثم لم يغنّ في مجلسه بقية يومه إلا في النرجس،ومنع عن جفنه غلبة السكر وكان قد صفا ذهنه وخلصت قريحته في هذا الشان ـ فحدثنا أنه نام ليلة حتى رأى فيما يرى النائم كأن شخصاً نظيفَ الثيابِ ، طيب الرائحة ، دخل عليه فسلّم وجلس الى جانبه ، قال : فقلت « مَنْ تكون أصلحك الله ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم المَوْصلي ، قلت : ما أشوقني الى لقائك ، وأشد حرصي على استماع صوت من أغانيك التي لَحَّنْتَها ولم يسبقك احد إليها ـ فدعا بعود فاصلحه وضرب وغَنَّى :

تلاعبتَ بي لا انت بالهجر مُتْلفٌ … حياتي ولا بالوصل جددت عُمْرا

تؤهلني طوراً وتهجرني تارةً … دَلالاً فلاَ وصلا تديم ولا هجرَا

فلو دُمتَ فيهجري لسببَّتَ ميتتي … ومَنْ مات من جور الهوى عُوّض الاجرا

فَكَمْ عبرةً للعين أجرَيْتَها دماً … وكم حرقة في الصدر أذكيتها جَمْرَ

لَعلّ الذي أضحَى له الأمر كلّه … على طول ما ألقاه يُحْدِثُ لي أمْرَا

فقبلّتُ يده فرحاً وأخذت عودا وغنيته معه ، وانتبهت فكتبته وغنيته كما سمعته ، فكان كثيراً ما يغنيه ويقترحه إعجاباً بحسن صنعته فيه .

النزهة في سلقطة

قال الرقيق :

«وتنزَّهنا معه في بعض أسفاره الى (المهدية) فبكّرنا يوماً ومعنا طُيُورٌ و كِلَابُ صَيْدٍ وتوجهنا الى نحو (سَلَّقْطَة)[1] ، فاَخذَت الاطيارُ حَجَلًا وأرانِبَ وتزلنا بكرم ظليل . وأتينا بما اصطيد لنا من السمك ، فأمر غلمانه فحفروا حفرةً وأوقدوا ناراً وجعلوا يشوون من صيدنا ويلقونه إلينا،ويديرون الكؤوس علينا ، ونحن في ألذ عيش واطيبه الى ان غَيَّمَتِ السماء وأتت بِطَلٍّ ورَذاذٍ ، وكان فصل الربيع، فقال (عبد الوهاب) الآن اكتمل يومُنا ، ودعا بالدواة فكتب :

يا طيبَ يومٍ غَنَمْنَا طِيبَ لَذَّتِهِ ... حَتَّى وَصَلْنَا بِهِ الآصالَ بالبُكَرِ
ونحن نشربها صَهْبآءَ صافيةً ... ونشتوي صيدَنا في محكم الُحفَر
فالجو يحصُب وجه النارِ من برَد ... والنار تحصب وجه الجو بالشرَر
ضِدَّان حوتهما سِلْمٌ لانفسنا ... تَرَاجَمَا بحصى الياقوت والدرر
فانعم به واحبه باللهو حِلته ... واعدده في الدهر من ايامك الغرر

(١) قوله : سلقطة :(واسمها القديم : Sellecta) مدينة قديمة على ساحل البحر بالقرب من (قصور الساف) من دائرة المهدية ،وكان لها شأن في التاريخ،وهي اليوم مكان اصطياف لسكان الجهة لحسن موقعهاوصفاء البحر بها ،

وقام (جيش) ولده وبيده زَوْرَقُ فِضّةٍ فجعل يلتقط به ما استقر من قَطْرِ المَطَر ويمزج به كاسه فنظر اليه أبوه وقال :

وكاسٍ شربناها بماء قرارة ... يلقطها الساقي بزورق فضة
فما زال يسقيني ويمزج كاسه ... بزورقه حتى حظيت بسَكْرَة
فيا غيث خيّم في تلاعب جَمَّةٍ ... فلم أنسَ فيها طيبَ يومٍ وليلة

ثم انصرفنا عن ذلك الموضع ـ يعني سَلَّقْطَة فصاغ ـ الشعرَيْن لحناً وغنّى فيهما حتى الصباح .

برامكة افريقية

قال الرقيق :

«ونظر يوماً الى (بِشَارة) غلامه،وكان مليحاً ظريفاً يتولى السقي فاعجبه ، فقال :

أَحامِلَهَا من لؤلؤ وعقيقِ ... وَمَازِجهامن سَلْسَلٍ ورَحيقِ
أدِرْها علينا يالك الخير إنَّنا ... سلكنا الى اللذات كلَّ طَريق

ومن شعره وغنائه :

حيَّاك ظبي وصله ... أبداً يُشَاب بصدّه

حَيًّا بوردٍ أحمر   وبنفسج في نضده
فحكت تحيته سوا .... دَعِذاره في خدّه

« ومن شعره وغنائه وكان قد عرف الايام حقَّ معرفتها فقطعها اغتناماً :

كن عن العذل ذا صَمَمْ   وانْفِ عن نفسك النَّدَمْ
واقطع الدهر بالسرو   ر على رغم من رغمْ
فالذي تبغي وترجوه   قد خطّه القلم

* * *

مات الحاجب عبد الوهاب في خلال سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧) في قصره (بالمنصورية) حذو القيروان بعد ان قام بسِفَارَاتٍ بين البَلَاط الصنهاجي وبين الخلفاء الفاطميين في مصر . وقد ترك ابناً يسمى محموداً تولى وظيفة والده بعده . واقتفى أثره في ادبه وفنّه وكرمه. وقد اشتهر محمود بالكرم الحاتمي حتى شبّه المؤرخون آل بيته (ببرامكة افريقية) . وعاش محمود في مدة باديس وابنه المعز .

* * *

ومن رجال الدولة الصنهاجية وكتابها المشهورين (محمد بن عطية بن حَيَّان) ، كان شاعراً يتوقد ذكاء وفطنةً ، خدم من الامراء : المنصور ، وباديس ، والمعز ، وعرف بصحبته الاكيدة لإبراهيم الرقيق،

وكُلِّفَ بسفارة إلى مصر ، ومع سلاسة طبعه كان له ميل كبير إلى الاداب وخصوصا الى الالحان .

صحب (أبا مناد باديس) في حروبه لقبائل المغرب الاوسط سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٢) ويؤثر عنه أنه شَرِبَ ليلةً مع الامير نصير الدولة (باديس) في موضع مرتفع على نهر (الشَّلَف) بالمغرب الاوسط وكان العسكر أسفل الجبل ، وقد وَقَدَت الجيوشُ النيران للطبيخ ، واستوى المجلس ، ولعب مغنون بالعود ، فوصف ابن عطية الحال فقال : (١)

بِتْنَا نُدِيرُ الراحَ في شَاهِقٍ   ليلًا على نغمةِ عُودَيْنِ
والنَّارُ في الارض التي دوننا   مثل نجوم الجوّ في العيْن
فياله من منظر مُونّق   كاننا بين سماءيْن

ابراهيم الرقيق

لكن اشهر ندماء هذه الحلبة هو : (ابو القاسم إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق ، وبالكاتب النديم) ، فإنه تربّى في حجر البَلَاط الصنهاجي وباشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثُلُث القرن ، وتردّد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة ، وسَمَى

(١) وفيات الاعيان ٢ : ١٠٥

ذِكْرُهُ في افريقية ومصر ، وشاعت تآليفه التاريخية والادبية في الآفاق، وكانت له عناية بالفنون لا سيما بالانغام والالحان ، وقد وضع كتاباً خاصاً عنوانه« كتاب الاغاني » لم يصل الينا بكل أسف ،وما بلغ إلينا من مصنفاته غير كتابيْن همـا : « قُطْبُ السرور في وصف الأَنبـذَةِ والُخمُور »و« الصّبُوح والغَبُوق » ـ وكان الثاني مأخوذ من الاول ـ وكلاهما ما زال في حيّز المخطوطات ، وتقدم أن نقلنا شيئاً عن الاول منها مما يدل على اهتمامه بوصف مجالس الشراب مما حضره بنفسه .

ومن مشاهير الادباء الافريقيين المولعين بالاغاني في العصر الصنهاجي الشاعر البليغ والكاتب الماهر (ابراهيم بن علي شهر الُحصْري) صاحب كتاب « زهر الاداب ، وثمر الالباب » المطبوع غير ما مرة ، وله جملة مصنفات أدبية بديعة النسج ، من ضمنها كتاب جمع فيه الاشعار التي تناسب الغناء ، ضاع مع جملة ما تَلَفَ من تآليف الافريقيين في عصر فيض حضارة القيروان قبل زحفة الهلاليين .

يقول الحصري في تصنيفه « جمع الجواهر ، في الملح والنوادر » في حق كتابه هذا : (١)

(١) جمع الجواهر ـ ط مصر ١٣٥٣ ص ٢٦٢

« وقد كنتُ كتبتُ جزءاً مما قيل في طيّبات الاغاني ، ومُطربات القِيان » وجلب منه قطعا تراجع هناك

وكانت وفاة ابراهم الُحصري في خلال سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢ م) بالمنصورية حذو القيروان (١)

المعز بن باديس والفن

ومما لا شك فيه ان الكاتب الرّقِيقَ كان له ضلع واي ضلع في تربية الامير المعز بن باديس عقد البيت الصنهاجي ومفخرته البارزة .

اعتلى المعز دست الامارة صغيرا ـ سنة ٤٠٦ (١٠١٥) ونشأ (بالمنصورية) نشأة علم وادب وفن ، وانكبّ على تربيته رجال افذاذ منهم الحاجب عبد الوهاب ،وابراهيم الرقيق ، وخصوصا ذالك الوزير النابغ في كل علم وفن . ألا وهو (أبو الحسن علي الشيْباني)

تضافر على توجيه المعز نخبة ممتازة من العلماء والادباء والفنّانين ، فبرع في كل علم وأتقن كل فنّ ، فكان يحسن الاغاني . ويجيد التوقيع على العود والرباب .

ولما بلغ سنّ الرشد وباشر الامر بنفسه قَرَّبَ منه الادبآءوالشعرآء

(١) راجع شيئاً من ترجمته واشعاره في « تاليفنا » المنتخب من الادب التونسي » ط مصر ص ٦٠

وأهل الفنون ، قال ابن خلكان في حقه: « كان ملكا جليلاً، عالي الهمة ، محباً لاهل العلم ، كثير العطاء ومدحه الشعراء وانتجعه الادباء وكانت حضرته محط بني الامال » [١]

وعرّف به الكاتب الاندلسي أمية بن أبي الصلت الداني ، فقال : [٢]

« ولم يكن أحد في زمانه أشد بأساً في الملاحم . ولا أطول يدٍ بالمكارم ، ولا أغنى بلسان العرب ، ولا أحنى على الادب . . . . و كان متوقد الذهن ، حاضر الخاطر ، حاذقا بطرائق الالحان ، عالما بالمنثور والمنظوم من الكلام ، ومدحه كثير من الشعراء « فاجزل لهم العطا .. »

ولا يخفى ان حاشيته كانت تجمع اكثر من ستين شاعراً على مختلف نحلهم واذواقهم ، ومن حسن الحظ ان دامت دولته نحو نصف قرن (من ٤٠٦ الى ٤٥٤) ازدهرت فيها البلاد ازدهاراً لم يعرف له نظير في تاريخها ، وقد جادت فيها القرائح ، وترشّحت المواهب ، وتشخّصت النحائز والمميزات .

ونحن نشير الى ما بلغنا عن مظاهر الفنّ الموسيقي في هذه العصور مكتفين بنقل مجالسه واخباره

---

(١) وفيات الاعيان ٢ : ١٠٥

(٢) البيان المغرب ١ : ٣٠٦

وربما يتبادر للذهن ان الألحان والاغاني كانت من شعائر الامراء ورجال الدولة في دورهم ، مقصورة على قصورهم ومجالسهم

والواقع انها كانت تسري الى البيوت الخاصة وسائر افراد الشعب، فكل انسان يميل بالطبع الى السماع كما هو الشان في وقتنا بالسواء، نعم ! لم يكن وقتئذ (الراديو) موجوداً في كل منزل كما في عصرنا .لكن ربما كان لا يخلو بيت من بيوت العواصم الكبرى من التمتّع بالسماع اما بآلات الطرب او التغني بالصوت ، والامر في ذلك طبيعي لا يكاد يكون مفقوداً في امة أو شعب من الشعوب البشرية ،

حكى ابن رشيق في كتابه « الانموذج » عن حبيبه ابي بكر عتيق بن محمد الوراق التميمي قال: «دخلت يوم جمعة الجامع الكبير بالقيروان فوجدت (عتيقاً) يقرأ الرقائق والمواعظ ويذكر اخبار السلف الصالحين ومن بعدهم من التابعين،وقد بدا خشوعه، وترقرقت دموعه ، فما كان الا ان جئتُه عشية ذلك اليوم الى بيته فوجدته وفي يده طنبور وعن يمينه زجاجة نبيذ ، فقلت له :

« ما أبعد ما بين حالَيْك في مجلسَيْك ? فقال ـ « ذلك بيت الله ، وهذا بيتي اصنع في كل واحد منهما ما يليق بصاحبه ! » [١]

«١» الوافي بالوفيات للصفدي « مخطوط »

ونقل ابن رشيق ايضا ان حبيبه الآخر عبد الله بن محمد التنوخي كانت له جارية فنّانة تجيد التوقيع فقال في حقها :

جآءت بعود يناغيها و يُسْعِدُهَا ... فانظر بدائعَ ما خُصَّتْ به الشجرُ
غنَّت على عوده الاطيارُ مفصحةً ... غضاً فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه او به طربٌ ... يهيجه الاعجمان : الطير والوتر

ومن هذين البيتين اخذ محمد بن شرف قوله :

سقى الله ارضاً انبتت عودك الذي ... زَكَتْ منه اغصان وطابَتْ مَغَارِس
تغني عليها الطير وهي رطيبة ... وغنّت عليها الناس والعود يَابِسُ

ولو أردنا تتبع مثل هذه الاشعار لاتينا منها بالشيء الوافر

* * *

الفنون بين تونس و الاندلس

تكاثر عدد المغنين والمغنيات بافريقية فى القرن الخامس قبل الزحفة الهلالية لدرجة ان كثيراً منهم كان يفارق اوطانه ويروم البلاد البعيدة ليعيش فيها بفنّه ويطلب منها الرزق ، فترى منهم من يقصد المشرق كمصر والشام والعراق ، وبعضهم يَؤُمُّ الاندلس لتشابه الاوضاع المغربية في القُطرَيْن ، ومن بين هؤلآء الراحلين: (عتيق المغني) فانه خرج من المهدية ـ مسقط رأسه ـ بعد ان حصلت له شهرة بها ، وقصد غرناطة واتصل بأميرها الصنهاجي (باديس بن حَبُوس) فاقام عنده

بقية حياته ينشد له الاشعار ويوقّعها على العود ألحانا مختلفة مما لقنه في وطنه او اخترعه بنفسه [1] ، على وفرة ما كان يوجد عندئذ في جزيرة الاندلس من الملحّنين والمغنين المقتدرين الماهرين .

ولا نستغرب البتة من نجاح هذا المغني المهدوي ، اذ طالما اقتبست الاندلس من افريقية اوضاعاً من الادب واصنافاً من الفن ، وتقدم بك كيف استعارت منها طرائق الغناء العربي في اول عهدها الاسلامي ، ويضاف الى ذلك ما رواه التيفاشي بالنقل عن ابن سعيد الغرناطي :

« من ان مشاهير الملحنين الاندلسيين كثيراً ما كانوا يتخيّرون من اشعار ادباء افريقية مقطوعات من اقوالهم يصوغون عليها تلاحين مناسبة»

منها فيما ذكر التيفاشي [2] شعر الحسن ابن رشيق القيرواني الذي لحّنه (ابن باجة) الفيلسوف ، وهذّبه المخترع (ابن حاسب كبير الملحنين بالاندلس) وهو قوله :

ومن حسناتِ الدهرِ عندي ليلة ... من الدهر لم تترك لأ يّامنا ذَنْبَا
نَعِمنَا بها نَنْفِي الكَرَى عن جفوننا ... بلؤلؤة مملوءةٍ ذَهَباً رَطْبَا
ومِلْنَا لتقبيل الثغورِ ولثمِها ... كمثل جِياعِ الطيرِ تَلْتَقِطُ الحَبَّا

«١» الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ٣٥١

(٢) ك « متعة الاسماع في علم السماع » للتيفاشي ـ مخطوط

كما لحّن الاندلسيون بعض أشعـار (محمد بن شرف) ، (وابي الحسن علي الحصري) (وعبد الكريم الحلواني)،وكلهم من مهاجري القيروان الى الاندلس .

وتزايد نزوح الادبــآء وأصحاب الفنون الى الاصقـاع البعيـدة وطوّحت بهم أيـدى النوى لما حدثت الكارثة الكبرى : هجـوم (بـني هلال وبني سُلَيْم) على افريقية ، فما بقي شاعر ولا فنان الا وقد فارق وطنه والتجأ الى بعض البلاد ، وان كانت قاصية نائية ، فدخل بعضهم جزيرة صقلية والمغربيْن الاوسط والاقصى والاندلس ، وقصد البعض الآخر اقطار المشرق ، وأصبحت الحضارة العربية الافريقيـة كامس الـــدابر .

اللهم إلا بقيـة ضئيلة انحـازت الى الساحـل التونسي ـ المهـدية وما جاورها ـ استندت الى رعاية اواخر الامرآء الصنهـاجيـين ، وانتصب بعضهم في مدينة تونس وقد استقلت بهـا أُسرة (بني خُرَاسَان) حيث أحْيوا فيها سُنناً انقرضت من الحضارة القيروانية.

على أن حركة الهجرة لم تحصـل من طرف واحد ، بـل ان البـلاد التونسية بمجرد مـا استقرت بها دويلات (الطوائف) قصـد عواصمها

الكبيرة أدبآء وفنانون ماهرون سريعـاً ما انخرطوا في خـدمة أمرآئها ورؤسائها .

أبو الصلت أميــة

ومن بين هؤلاء الوافدين الاجـلآء الذين يستحقون الالتفات بصفة خصوصية الحكيم النـــابغ : (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت) الداني الاشبيلي ، فإنه ولد في سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) بِدَانية .من مدائن الاندلس ، وتعلم باشبيليـة مقرّ الفن ، ودرس الحكمة ومـارس الآداب والفنون الرفيعة ، ثم خرج من وطنه في سنّ الثلاثين وقصد المهدية حيث نزل على أميرهـا الاديب يحي بن تميم بن المعز بن باديس ، وأقام في حاشيته الى ان أرسله سفيراً الى ملك مصر ، لِمَا راى فيـه من الخصال النادرة والعلم الغزير من أدب وفلسفة وطِبّ مع إتقان الفنون بأنواعها وأوضاعها ، وقوبل أمية في القاهرة بما يستحق من التقدير من لدن الامرآء والحكمآء وسائر الطبقات .

وهنالك دارت عليه دائرة غريبة كانت من أفيد النوائب وأنفـع المِحَن عليه وعلى العلوم بصفة عامة .

وذلك أنه تعهد لبعض الامرآء المصريين بإخراج مركب محمـــل

بالبضائع الثمينة غرق في بحر الاسكندرية ، فباشر أمية أعمال الاخراج بادق الوسائل الفنية ، وجَلَبَ السفينـة إلى ان طـفت على المـاء لكنها رسبت لانقطاع الحِبَال والارسان ، فحنق عليه الامير وأمر بسجنـه ، فسيق إلى دار فيها خزانة كتب جليلة القدر ، خَلَى فيها أميّة سنوات انكبّ على المطالعة ، وامتن معلوماته في الفلسفة والطب والتلحين ، ثم أطلق سراحه فعاد الى المهدية وانتظم في خدمة الامراء الصنهاجيين : يحي وعلي والحسن وهو آخرهم ، والى الاول منهم قدّم كتابه « الرسالة المصرية » التي وصف فيها ماراه في ديار مصر من الآثار ، ومن اخلاق السكّان وذكر من اجتمع بهم فيها من الادباء والاطباء والمنجّمين وغيرهم [1]

كما ألف للامير يحي المتقدم كتاب « حديقة الادب » على أسلوب « يتيمة الدهر » للثعالبي ، وقدّم للامير علي بن يحي رسالة فائقة في الموسيقى ، وله رسالة في « العمل بالاسطرلاب » وكتاب في « الهندسة » الى غير ذلك من المصنّفات الشاهدة بطول باعه في العلوم والفنون .

ولم يزل مكرماً لدى الملوك إلى أن كانت وفاته بالمهدية يوم الاثنين مستهل المحرم سنة ٥٢٩ (نوفمبر ١١٣٤) ودفن تحت الرباط الكبير بالمنستير

(١) طبعت « الرسالة المصرية » في القاهرة ضمن رسائل نشرها صديقنا عبد السلام هارون

والذي يهمنا من ترجمة حياته هي الناحية الفنية ـ والموسيقى خاصة ـ فقد كان فيها كما قال ابن أبي اصيبعة [1] :

« كان أوحد في العلم الرياضي ، متقناً لعلم الموسيقى وعمله ، جيد اللّعب بالعود » وزاد على ذلك المؤرخ علي بن سعيد الغرناطي عند التعريف به عبارة ذات أهمية عظيمة جداً . وهي قوله [2] : « كان يكنى بالاديب الحكيم ، وهو الذي لَحّنَ الاغاني الافريقية ، وإليه تُنْسَبُ إلى الآن » .

وإذا ما أردنا تحليل هذه الجملة الاخيرة يتبين لنا أن أمية هو الذي نهج للإفريقيين ـ في القرن السادس هـ ـ طريقة جديدة في تلاحينهم ، وبكل أسف لا ندري ماهية هذه الطريقة أهي مشرقية الوضع حيث انه أقام عشرين سنة في مصر ، أم هي اندلسية الاسلوب ؟ ، وقد نشأ هنالك ولم يفارق وطنـه إلا بعد الثلاثين من العمر ، وقد يجوز من ناحية أخرى انه أخذ الاساليب التي كانت متّبعة في افريقية نفسها منذ قديم الزمان وهذّبها ورتّبها ووضع لها قانوناً يعتمد عليـه ، فهذه كلها أسئلة لا يتيسر الجواب عنها إلا اذا أمكن الوقوف على تاليفه في الفن الموسيقي

(١) طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ٢ : ٥٢ و ٦٢

(٢) نفح الطيب ١ : ٣٧٢

وعلى كل فإنا نستفيد من النص المتقدم ان طريقة أُميَّة بقيت متّبعة في افريقية الى ايام (علي بن سعيد الغرناطي) الذي استوطن تونس ومات بها في منتصف القرن السابع للهجرة يعني في عنفوان الدولة الحفصية ، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الحضارة التونسية في مدة ملوك بني حفص كانت أصولها اندلسية اكثر منها مشرقية كما ستراه بعد .

الحفصيون والاغاني

اما أخبار الاغاني في المدة التي امتلك فيها السلاطين من (بني حفص الهنتاتيين) أمر افريقية ـ وهي من أطول الآماد في تاريخ تونس ـ فقد لا توجد لها مراجع كثيرة يُعتمد عليها ، اللهمّ الا ما كتبه عنها استطراداً احمد التيفاشي القفصي ، لا سيما وقد اختلطت حضارتيْ تونس والاندلس من جرّاء امتلاك (الدولة الموحدية)لكل من القُطريْن، فامتزجت اوضاعهما على بعد الدار لحدّ ان صارت لهجتهما متقاربة جدّ التقارب لوفرة نزوح الافراد من الطرفيْن وانتصابهم في القطريْن .

قال التيفاشي : [1]

(١) ر « متعة الاسماع » ص ٢٠ (مخطوط)

« فأما أهل افريقية فان طريقتهم في الغناء مولدة بين طريقتي أهل المغرب والمشرق ، فهي أخفُّ من طريقة أهل الاندلس وأكثر نغماً من طريقة أهل المشرق ، وكذلك اشعارهم التي يتغنّون بها هي اشعار المولَّدين ، ونحن نذكر جانبا مما يتغنّى به من الاشعار بالمغرب والاندلس وافريقية ليقف القارى عليه ، فمن اشعارهم الملحَّنة التي يتداولون الغناء فيها في سائر هذا الاقليم ، صوت :

ومنفردٍ بالحُسن خِلْو مِن الهوى ... عليم باسباب القطيعة والعَتْبِ

ثم قال : « ولقد حضرت بافريقية ـ أوائل القرن السابع ـ الى مُطْرب اندلسي فغنى في شعر أبي تمّام الذي أوله :

ومنفردٍ بالحْسن خِلْو مِنَ الهوى ... عليم باسبابِ القطيعةِ والعَتْبِ

فعدّدتُ له في هذا البيت اربعة وسبعين هَزّةً . كما حضرت جارية مُغنية في مجلسِ عظيمٍ من عظماء تونس ، تغني في هذا الشعر :

تشكي الكميتَ الجريَ لما جهدته

فمرّ عليها في غناء هذا البيت وحده مقدار ساعتين من الزمان . »

الجواري المغنيات

ثم قال التيفاشي : « وهذا الغناء موقوف اليوم على اشبيلية من مدن الاندلس ، وبها عجائز مُحسّنات يعلمن الغناء لِجَوَارٍ مملوكات لهن ،

ومستأجرات عليهن مولّدات ، يشترين من اشبيلية لسائر ملوك المغرب وافريقية ، تُباعُ الجارية منهن بالف دينار مغربية واكثر من ذلك ، ولا تُباع الجارية إلاّ ومعها دفتر فيه جميع محفوظها ، واكثره من هذه الاشعار التي ذكرناها باعيانها ، فمنها أشعار خِفاف تصلحُ للابتداء ، ومنها أشعار ثِقال لا يُغنّيها إلاّ مُنْتهٍ مُجيد في صنعة الغناء مثل : (شكى الكميت) ، فان هذه وما أشبهها عندهم لا يغنيها إلا محسن مُجيد ، فهي عندهم بسبب ذلك مُشترطة في البيع ، عَدَمُها يوجِبُ بخسَ ثمن البيع ضرورةً ، وتعرضُ الجارية بمحفوظها على من يصحّحه لها من جهة العربية ، ولا بُدَّ للجارية المغنّية عندهم من ان تكون تُحسِن الخطّ ، فتقرأ لمشتريها ما في الدفتر ، يَعْرِض عليها منه ما أحبّ ، فتغنّيه بالآلة التي تشترط في بيعها ، وربما كانت مُحسنة في جميع الآلات ، وفي جميع انواع الرقص والخيّال (؟) ومعها آلتها ، والجواري اللاتي يُطبّلن عليها ويزمّرن ، فتسمّى (مُكمَّلة) وتباع بعشرة آلاف دينار ذهباً ونحو ذلك »

* * *

ويفسّر لنا التيفاشي في مكان آخر من تصنيفه أقسام النَّوْبَة ، (الدور) فيقول :

« والنَّوْبَة الكاملة للغناء بالمغرب تقوم من : نشيد - واستهلال - وعمل - ومحرّك - ومُوَشّحة - وزجل - وجميعها يتصرّف في كل بحر من بحور - أي أدوار - الاغاني العربية » .

* * *

ومن المفيد ان نشير بكلمة عاجلة الى آلات العزف الرسمية التي كانت تستعمل في دولة بني حفص ؛ فهذا ابن فضل الله العُمَري - رئيس الكتبة بديوان المماليك بمصر [١] - يرشدنا ان الجيش الحفصي بحضرة تونس كانت له فِرقة تصحب السلطان إذا زار العاصمة أو تنقّل في سفره بالمحَلّة ، فكان افراد تلك الفرقة يدقّون الطبول وينفخون في البوقات ، ويمشون وراء الاعلام السلطانية ، ويسمى هؤلاء (باصحاب النفير) .

واستعمال الطبول والابواق ، كنشر الالوية والبنود ، من شارات الملك [٢] وهي عادة قديمة كانت متّبعة في سائر الممالك الاسلامية عند

---

(١) راجع « وصف افريقية والاندلس » لابن فضل الله العمري ، نشره المؤلف في تونس سنة ١٣٣٠ ص ١٠

(٢) انظر كلام العلامة ابن خلدون في (فصل شارات الملك) وهو من امتع ما قيل في نشر الالوية وقرع الطبول والنفخ في الابواق — المقدمة ص ٣٤٤

خروج الملوك والامراء من قصورهم لحضور الاعياد والمواسم الرسمية ، او في بروزهم للحرب ، فانا نجدها عند بني العباس في بغداد وعند الفاطميين ، والايوبيين ، وكذا عند سلاطين المماليك بمصر ، وفي جميع إمارات الاندلس والمغرب ، وكانها عادة ورثها بنو العباس عن اكاسرة فارس .

وفي بعض النسخ المصوّرة في العراق من كتاب « مقامات الحريري » مناظر تمثّل باجمل صورة واقعية بروز الامراء وقوّاد الجيوش العباسيين في الهيئة الرسمية المشار اليها .

ولا ننسى ان المؤذنين (بجامع الزيتونة) بتونس كانوا - في المدة الحفصية ايضا - ينفخون في ابواق في آخر كل ليلة من ليالي شهر رمضان لينبّهوا السكّان ان وقت السحر قد حان ويجب التعجيل بالسحور قبل دخول الفجر الاول . والظاهر ان هذه العادة أبطلت في العصر التركي وعوّضت باستعمال الطبل ، وكان اصحابه يطوفون في مختلف حارات المدينة وشوارعها ويترنّمون بالحان شجية في السحر مع ذكر اسمآء اصحاب البيوت عند المرور امامها ، وظلت هذه العادة جارية مع ما اعتراها من تلطيف آلة الدقّ (الطبيلة) حتى لا تزعج غير المسلمين في نعاسهم، وقد ابطلت وظيفة (أبو طبيلة) في السنين الاخيرة

وفي اواسط العصر الحفصي نبغ بتونس الشيخ (محمد الظّريف) ممن سلك طريق التّصوف ، وكان بارعاً في جملة فنون منها الموسيقى، وله اشعار رائقة في تهذيب الاخلاق والمواعظ وخصوصاً في وصف الطبيعة، ومن جملتها قصيد أورد فيه سائر المقامات الغنائية ، ويُعرف عند التونسيين (بناعورة الطبوع) اي ادوار الالحان المشهورة في وقته باسمائها المغربية . وكانت وفاة الشيخ سنة ٧٨٧ (١٣٨٥) ودفن بسيدي ابي سعيد الباجي حيث ضريحه الآن [١] .

* * *

الموسيقى في العصر التركي

بعد صراع طويل الامد وكفاح مرير دار بين الاتراك العثمانيين، وبين ملوك اسبانيا الكاثوليكيين - أواخر القرن العاشر للهجرة - حاولت أثنآءها كل من السلطتين التفرد بالسيادة على الضفاف الغربية من البحر المتوسط، وآل النزاع الى تمكن العثمانيين في آخر الامر من

(١) راجع « المنتخب من الادب التونسي » من تأليفنا ، ط مصر ص ١١٠

إزاحة مُقارعيهم وامتلاك الإمارات الثلاث بالشمال الافريقي ، يعني : طرابلس ، وتونس ، والجزائر . وجعلوها ولايات خاضعة لسلطان القسطنطينية ، وقد غير الاتراك الكثير من السُنَن والتقاليد المألوفة في البلاد منذ عهد الموحدين والحفصيين، ونصبوا في كل الاقطار الثلاثة وَالِياً نائباً عن السلطان ، يدعى (الباشا) ، كما رتّبوا بها جيشاً حاميا من جنودهم المعروفة (بالانكشارية) اسكنوهم في العواصم الافريقية الكبيرة ، وتداول الولاة الحكم في البلاد ، وبعد أمد قصير كَثُر الشغب بين الباشاوات وبين افراد الجيش المجلوبين من بلاد الاناضول وكذا من الاقطار البلقانية الى ان استقرت الحال في النهاية باستقلال (الدايات) بالسلطة الكاملة على سائر الجهات . وبعد حين قام بعض اتباع الدايات ومماليكهم فابتزوا الحكم من أيدي ساداتهم . وتفرّدوا بقيادة الجيوش واستخلاص الضرائب من الاوطان الافريقية وبالحكم المطلق في التصرّف .

ونجم من بين هؤلاء الاتباع مملوك يسمى (مُرَاد) ، أصله من سبايا جزيرة (كُرْسِكَة ـ La Corse) وترأس السفر بالمحلّات لجمع الجبايات، كما انه سعى لدى (الباب العالي) باسطنبول في منحه رتبة (باشا) اي الوالي العام للإيّالَة التونسية ، فنالها في سنة ١٠٤١هـ(١٦٣١م) . وبعد

وفاته خلفه ابنه الاكبر (حمودة باشا المرادي) وتعاقب ابناؤه الامر من بعده .

فمن صغار حفدته (رمضان باي)بن مراد، تولى الحكم في سنة ١١٠٨ ١٦٩٦ . قال الوزير حموده بن عبد العزيز [١] :

« كان رمضان فَطِناً جميل الصورة ، يغلب عليه الحياء ، له ولوع بالغناء والملاهي ، عارفاً بالالحان والموسيقى ، وكان له مُغن ضَرَّاب [يعني : آلاتي] يسمّى (مزهود) بلغ عنده مرتبة لم يبلغها أحدٌ سواه»

وقال الوزير السرّاج [٢] : « كان لرمضان باي خبرة تامّة بانواع الموسيقات وصنائعها ذات الاوتار وذات المزامير ، وقد كان أرسل الى بلاد النصارى في شأن آلة سماعية من أغرب ما رِيَ وسُمِع ، تُحكَمَ صناعتها بوضع اطراف الانامل على صِفَة محكمة الوضع باستجلاب هواءٍ قوي على طريق الهواء المجلوب لصناعة الحديد [اي الكير] ، يقال لها بلسان النصارى (أرقنو) ، وكان فتاه (مزهود) يطربه به .»

---

(١) كتاب « الباشي » في التاريخ (مخطوط) ـ والى رمضان هذا تنسب الساحة المشهورة (ببطحاء رمضان باي) داخل مدينة تونس .

(٢) كتاب « الحلل السندسية في الاخبار التونسية » ج ٢ ، ١٦٥ قفا (مخطوط) .

وما يسميه مؤرخنا (أُرْقُنُو Orgono) هو اصل آلة (البيانو) المعروفة،فيكون هذا اول ظهور أصل البيانو في تونس في سنة ١٦٩٦م، أُتِيَ به من مدينة (فيورنسة ـ Florence) الايطالية ، مسقط رأس أم هذا الباي المرادي ، وكانت نصرانية وتوفيت على دينها ، واقام ابنها رمضان على قبرها اول كنيسة مسيحية انشئت في مدينة تونس (١)

ولا نزاع ان مدة الدولة المرادية كانت من افضع العصور واشنع الدهور على سكّان البلاد التونسية،ففيها تفشّت المظالم الفادحة والعبث بحقوق الانسان ، والاستهانة بقتل النفوس البريئة لمجرد الظنّ او التهمة واغتصاب الاموال والمكاسب بغير حق ولا شرع ، ولو ان بعض البايات الاولين منهم ـ خصوصاً (حمودة باشا) وابنه (مراد الثاني) كانا مهدّا اسباب الراحة للبلاد بتأمين السابلة والضرب على ايدي المفسدين، وكذا اعتنيا ببناء معالم دينية او عمومية هي من مفاخر تونس طيلة الدهر ، لكن من اتى بعدهما من احفادهم تكالبوا على الولاية لطمعهم في الحكم وجشعهم لنيل الإمرة فتدرجت البلاد الى الخراب والدمار حيناً طويلاً من الدهر ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

---

(١) راجع اخبار هذه (الباية) في تأليفنا « شهيرات التونسيات » طبعة ثانية تونس ١٩٦٦ ص ١٣٧ وما بعدها .

ولنختم اخبار (الدولة المرادية) بذكر اكبر محسنة تونسية خطرت على اديم البلاد ، وهي الاميرة (عزيزة عثمانة) بنت احمد بن محمد بن عثمان داي ، وزوجة (حمودة باشا) المتقدم،فانها قضت حياتها الزاخرة بالخيرات ، والقيام بجلائل الاعمال والمبرّات، مما خلد ذكرها العطر مدى الايام ، فقد أوقفت كل ما تكسب من حطام الدنيا على اوجه البرّ للضعفاء والمساكين .

فمن جملة ذلك تحبيسها على المرستان المحدث بحومة العزّافين، وكان له قسم خاصّ معدّ لإيوآء المصابين باختلال الاعصاب ، وكان يسمّى قديماً (بدار الدراويش) بَدَلاً من لفظ المجانين .

فمن اوقاف الاميرة عزيزة عثمانة على هذه الدار،ريع مُعتبر يُعرف (بحُبُس العود والرّباب) رتّبته ـ رحمها الله ـ لجراية مُطربين ماهرين بالآلات المشار اليها يقومون صباح كل يوم ـ بدار الدراويش ـ بعزف نوبة من الموسيقى المألوفة مدة ساعتين،ترويضاً لآولئك المصابين وتهدية لأعصابهم المضطربة .

ولا يخفى ان الطب العصري اثبت ان من انجع الطرق لمعالجة

المصابين باعصابهم هى الالحان الموسيقية ـ وما الفضل الا للمتقدم (١)

* * *

الموسيقى في العصر الحسيني

آلت الاضطرابات الشنيعة والمِحَن المريعة الحاصلة في اخر عهد الاسرة المرادية الى ظهور رجل من افراد الجيش التركي وهو : (حسين بن علي) (٢) الذي تقلّب في جملة وظائف حربية وإدارية لبني مراد ، واخيراً اختير للنيابة (كاهية) عن متولي الامر فى ذلك الحين وهو (ابراهيم الشريف باي) الذي اوقع بآخر المراديين. سنة ١١١٣ه١٧٠١م وحلّ مكانهم . وكان ابراهيم هذا فظًّا غليظاً مبغضاً للعرب ، ومن سوء حظّه ان حارب الجزائريين فاسّروه بعد ان هزموا قــوّاته ، ثم انهم

---

(١) راجع تفاصيل اخبار (عزيزة عثمانة)في كتابنا «شهيرات التونسيات» ص ١٣٢

(٢) كان والده (علي تركي) جاء من مسقط رأسه بجزيرة كندية وتسمى ايضا (كريت : La Créte)الى تونس مع جملة انكشاريةفي مدة بني مراد فولوه بعد حين قيادة المخازنية من الاعراب وتوفى سنة ١١٠٣ (١٦٩٢ م)

تقدّموا الى حضرة تونس بقصد امتلاكها ونهب ارزاقها،فالتجأ ما بقي من الجيش التونسي الى (حسين بن علي) وقد مالت الجمـــوع اليه لما اشتهر به من إصــــابة الراي والشجاعة ، فحملوه على تزعم مقاومة المهاجرين ومنعهم من اقتحام عاصمتهم وبايعوه على رئاسة حكم البلاد ٢٠ ربيع الاول سنة ١١١٧ ه (١٣ يولية ١٧٠٥) . وبعد مرور زمن قليل طلب حسين باي من الدولة العثمانية تقليده الامارة التونسية ، فنالها وضمن لعقبه وراثة الامر من بعده على الطريقة العثمانيةمن تولية الاكبر فالاكبر من الأُسرة .

الباشا علي

ولم يكن لحسين بن علي في اول استيلائه ولَد فعيّن ابن اخيه وكفيله (علي بن محمدبن علي تركي) لولاية العهد،لكن بعد زمَان رُزِقَ ولدَيْن هما (محمد الرشيدوعلي) فحملته الطبيعة البشرية لانتخاب ابنه الاكبر للعهد بعده . فاغتاض ابن اخيه « علي الملقب بالباشا » لفعلة عمّه وثار عليه ، ودارت حرب دامية بين العمّ وكفيله ، وانقسمت البلاد الى حزبيْن (حُسَيْنية) و (باشية) وشبّت نار الفتنة واضطرمت، وقاسى الوطن من هوْلها وويْلاتها الشدائد ، وآلت في منتهاها بقتل (حسين بن علي) في ناحية القيروان ، وتربّع ابن اخيه (الباشا علي)

على كرسي الامارة ـ سنة ١١٥٣هـ (١٧٤٠ م) ، وفاز ابني البـاي حسين بالفرار خُفْيَةً الى الجزائر طلباً للنجدة من ولاتهـــا الاتراك ، وأقاما يتردّدان بين عواصمها ـ قسنطينة والجزائر ـ ما يقرب من ستة عشر عاماً الى ان أسعفهما هـؤلاء الولاة بجيوش جرّارة أقبلت على تونس ، وتقابل الفريقان ، فكانت الهزيمة على (الباشا علي) الذي أُسر مع بعض بنيه وأخيراً قتلوا جميعاً في ذي الحجة ١١٦٩ هـ (سبتمبر ١٧٥٥ م)

وقد اجتمعت في نفس (الباشا) طبائع متضادّة ، فانه كان سفّاكا لدماء من يتوهّم فيهم الخيانة لملكه ، ويأخذ انصاره وغيرهم بالمظنّة ، ويطعن كل من تشمّ عليه رائحة الانتماء الى ابناء عمه ، ولذا تشرد عنه أبناؤه وأقاربه . ومع هذا كلّه فانه كان عالماً ، مشاركاً في غير ما فنّ محبًّا لاهل المعرفة والادب مثل كاتبيه الشاعرين البليغين (علي الغراب السفاقسي، ومحمد الورغي) وسواهما كثير . ولا يفوتنا انه تلقّى المعارف في صغره على اساتذة معدودين ، فبرع في سائر المعلومات الرائجة من عقلية ونقلية ، ومن آثاره شرح مطول بديع على كتاب « التسهيل » في النحو ، كثيراً ما كان يقرأ بمحضره في حلق جامع الزيتونة ، ومن مخلفاته التي تذكر المكتبة النادرة الوجود التي جمعها فى قصر (باردو) والتي أتلفها طُغاة الجيش المهاجم ، وكان (الباشا)

حريصاً على استنساخ الغريب من المصنّفات ، وقد أوقف جانباً مهما من الكتب على المدارس العلمية التي ابتناها في الحاضرة مثل (السُّليمانية) و (مدرسة بير الاحجار) ومدرسة (حوانيت عاشور) كما انه كان مولعاً بالبناءات البديعة الطراز ، علاوة على المدارس، منها (المحكمة) العجيبة بقصر باردو و (بيت الباشا) المنسوبة اليه وغير ذلك من الدواوين .

ولقد وقفتُ شخصياً على بعض التعليقات على هوامش مخطوطات بخطّه الجليّ الواضح الدال على مشاركته العلمية الواسعة ، وليس من المبالغة إذا قلتُ انه كان أعلم أهل أسرته إطلاقا .

* * *

محمد الرشيد

وبموت (الباشا) تفرّد ابناء حسين بن عليّ بالإمرة ، وجلس أكبرهما (محمد الرشيد) على كرسي الايالة بباردو . وكان ـ فيما ينسب اليه من القول ـ شاعراً مبدعاً ، لقّنه ذلك شيخه (محمد الشافعي) فله قصيدتان مشهورتان يقول في أولاهما ، وانشدها أيام اقامته في الغربة بمدينة قسنطينة يتشوّق فيها الى تونس :

أتونس بعد الأُنس نالتك وحشة   فسحي دموعاً بل دماً يترقرقُ

لئن ردّني ربي اليهــا بفضـله لأُجري لها نهراً كما النيل يدفق

ومن ضمن القصيد الثاني وقد عاد إلى تونس وتولى الامـر ، يقـول مفتخراً :

وان نحن سرنا في كُماة جيوشـنـا وللخيل وقع في الثُّرى وصهيلُ
تكاد جبال الارض من عظم باسنا تذوب على سطح الثَّرى وتميلُ

وان كان هذا القول فيه شيء من البلاغة ،فان فيه مبالغة خارجة عن الحد ، لكنه مناسب للذوق الادبي في ذلك العصر

يهمّنا من ترجمة هذا الباي ناحية أخرى: هو ولوعه الكبير بالموسيقى وشغفه الشديد بالتلحين وخبرتـه التـامّة بالتوقيع على مختلف الآلات منها العود والكمنجة ، وكان يتسلّى بذلك مدة غربته في الجزائر ، فلما عاد الى تونس استمر على العناية بالايقاع .ويقال انه هو الذي الّـف بين الاغاني الاندلسية المعروفة في تونس باسم (المالوف) وتعرف في بقية المغرب (بالغرناطي) وقد ادخل فيها الرشيد جانبا من الالحان التركية واليونانيةمثل (البشرف) [1] وغيره مما لم يكن موجوداً قبل ذلك .

---

(١) (بشرف) كلمة فارسية تركية معناها (الافتتاح) وهو (الاستهلال) في الموسيقى العربية .

وقدوفّق مؤسسو (الجمعيـــة الرشيدية) ـ وهو أول معهد لفن الالحـان التونسية إذ نسبوا تسميتها الى الامير المتقدم ، و كان القـائم بهذا التأسيس صديقنا المرحوم (مصطفى بن البشير صفر) ـ طيّب الله ثراه في سنة ١٩٣٣ ـ

وكانت وفاة محمد الرشيـد يوم ١٤ جمـــادى الثانية سنة ١١٧٢ هـ (١٣ فرار ١٧٥٩ م) . وتولى بعده اخـوه الاصغر (علي باي الثـاني ابن حسين) . وهومعروف بالذهن الوقاد والفروسية ، أفرد لترجمته الوزير (حمودة بن عبد العزيز) كتابا خاصاً اسمـــاه (الباشي) وهو مخطوط متداول في تونس ، نقـتبس منه نظـــام موكب الاعياد فى باردو ، قال :

موكب الاعياد في باردو

« واما ترتيب الاعياد فقد جرت العادة بالاحتفـال بليلة العيـد ، يحضرها أهل الدولة جميعاً عشية ليلة العيد في باردو وكذا كبار الفقهاء ، فاذا صُلي المغرب مُدَّ السِّمَاط بانواع الاطعمة ونفـائس الالوان ،فيجلس مولانا الباي في الصـدر ويجلس معـه جميـع الحاضرين ، فـاذا طعموا انتشروا ، ثم تجلس طبقة أخرى دون الاولى في الرتبة ، فإذا فرغـوا

جلست أخرى ، وهكذا الى ان لا يبقى أحد الا طُعِم ، ثم تنتهي الى طبقة فيُخرَج اليهم بالصِّحَاف مملوة طعاماً ، ثم بعد بُرهة يجلس الباي بِبَهْوِهِ ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكُتّاب ، ويقف حوله الخواصّ من أصحابه ، ويصطفّ باقي الناس صفّيْن عن اليمين وعن الشمال ، وقد أُوقدت الشموع وأُوتيَ بالمجامر فيها الطيب والمسك الغريب الرائحة الذي لا يصنع إلاّ في تونس فيما عَلمنا ، يحملها غلمانُ الفرنج [المماليك] ولا ينقطع ذلك الى تمام المجلس .

« ثم يدخل المغنون من الترّك بآلاتهم ، فيغنّون باللسان التركي بُرهةً ثم يقومون ، فيدخل بعدهم المطربون والمغنون بالغناء العربي ، فيضربون على آلاتهم البديعة ويغنّون برهةً أيضاً ثم ينفضّ الموكب ، وينهض الامير الى محلّ خلوته ويستدعي أهل سمره من الفقهاء والكتّاب، فيجلسون معه ويخلع عليهم ، ويفيض إحسانه لديهم ، هذا والنّوبة العثمانية تدقّ بمكان مُميّز من القصر الليلَ كلّه ، فاذا أصبح الصباح خرج الى صلاة الصبح ، ثم يجلس ببَهْوِهِ ويجلس حوله المذكورون ، ويُؤتى بانواع من الحلويات الملوكية ، فياكلون معه ويشربون القهوة ، ثم ينهض الى صلاة العيد من قصره في ترتيب عجيب ، والنوْبة تدقّ خلفه حتى يدخل الجامع فيصلي في المقصورة المعدّة له ، ثم يخرج فيجلس

على كرسيه بمحكمته السامية ، فيسلّم عليه وزراؤه وخواصه وكل من شمله قصر باردو المعمور ، فلا ينقضي سلامهم حتى تَصلَ أعيان الناس من حضرة تونس من الفقهاء وأكابر البلد ، فاذا انقضى سلامهم ، وضع له كرسي باعلى دُرُج القصر ، فيخرج ويجلس هناك ، ويأتي البلهوانات[1] فيتصارعون قدّامه وهو ينظر اليهم ، وهي عادة قديمة للاتراك ، ثم ينهض فيدخل قصره . . . . »

وهذه العادة المتّبعة في مواسم الاعياد من عصر وُلاة الاتراك الأُوَل أبطل العمل بها (احمد باي الاول) أو بالاصح غير نظامها ، فقد روى لنا الشيخ (احمد بن أبي الضياف) في تاريخه ، قال :

« وفي سنة ١٢٥٤ أبطل احمد باي الترتيب المعتاد للملوك الإيّاله من لدن الترك في ليالي الاعياد ، وقد كانوا يحتفلون « ببيْت الباشا » من باردو . . . . وقد ذكر هذا الترتيب الوزير حمودة بن عبد العزيز عند ما ذكر لمخدومه من التراتيب

« فانف احمد باي لسمو همّته من مَلِكٍ ان يجمع رجال دولته وديوانه لسماع الغناء على رؤوس الاشهاد في ليلة موسم شرعي وإمَامُه

(١) صواب مفردها (بهلوان) كلمة تركية معناها المصارع القدير الذي يبارز في (القراش) وهو ايضا مصطلح تركي يطلق على المصارعة بين شخصين .

في الصلاة حذوه ، فابدل ذلك بما هو مناسب ، وهو انه لما يجتمع الديوان يأتي الإمام بجامع السراية ، والخطيب بجامع باردو والخُوجَات ، فيجلسون ويقرأ باش خوجة رُبْع حزبٍ من القرآن العظيم . . .
ثم يقرأ الإمَام احاديث من « صحيح البُخاري » ثم يختم المجلس بدعاء أَمرني بانشائه على اقتراحه . . . »

على ان عزف « النَّوْبَة » كما كانوا يسمون الطاقم الموسيقي الاميري انما حُوِّل من أمام الباي في المواكب الرسمية فحسب ، وعيّن احمد باي لها مكانا خارجاً عن مجلسه ، فصارت النوبة تعزف فيه ، وهو صحن القصر لتكون بعيدة عن انظار الباي وجلسائه

طاقم الموسيقى العسكري

وبالمناسبة نذكر ان احمد باي هو أول من غيّر وضع طاقم الموسيقى العسكري ، وذلك لما أبدل اللباس التركي القديم لعسكره العصري ، وبتغيير الزي للجيش أبدل ايضا آلات العزف وهندام العازفين، وقيل انه اقتبس النظام الجديد في هيئة الطاقم الموسيقى العسكري من الامبراطورية النمساوية الموجودة اذ ذاك، وجلب منها معلّما شاطراً لترتيب جوقته وبعد ذلك تولّى رياستها موسيقيون من التونسيين درَبوا على العزف

بآلات النفخ والدقّ ، ومهروا في (السلفيج = Le Solfége) بتعلّمهم أرسام النغم (النوطة) على ايطاليين وغيرهم ، وإن كانت الموسيقى العربية ـ والشرقية عموما ـ لا تخضع في الحقيقة لاوضاع الالحان الافرنجية لما بين المنهجين في الاصل من خلاف وفوارق .

ومن المعتنين بالموسيقى في هذا العصر الشيخ (احمد بن حمودة السنّان) من ابناء مدينة تونس ، وبها قرأ وبرع في القراءات، وقد اصطفاه حمودة باشا لتعليم آل بيته ، فكان يعلم صغار الامراء وتابعيهم في القصور . وممن تربى بين يديه المشير احمد باي الاول .

قال ابن ابي الضياف في ترجمته : « كان جهوري الصوت ، حسن التلاوة في المحراب ، له مشاركة قوية في الفنون . له تاليف اسماه : « حِلْيَة العروس ، وبسط النفوس » رسالة حافلة في فن الموسيقى والالحان ، ينقل فيها عن الفارابي وغيره ، ومن غريب ما ذكر فيها :

« ومما يروى ان سوق الحضّارين الذي هو الآن سوق شواشية ، وهو شرقي جامع الزيتونة ، كان في الزمان القديم سوقا يجلس فيها الاطباء ، وكان إذا جاء مريض الى طبيب من أطبائه أدخله الى مقصورة حانوته واسمعه الطبوع [المقامات] والاصول الاربعة وهو

ينظر اليه في حال السماع ، فمهما حرّكه طبع [مقام] منها علم الطبيب طبيعته وعرف اذ ذاك كيف يدخله بالطبّ »

وكانت وفاة الشيخ السنّان سنة ١١٤٤ (١٧٣٠) [١] .

* * *

التاريـــة

وهناك مظهر آخر للعـزف الشعبي كان متعـارفاً من زمـان بعيد جداً ، ربما يرجع وضعه الى القرون الاسلامية الاولى ، مع تغيير اسمه ، وهو المشهور في المدة التركية (بالـتّارية) يعرّفـنا بها الشيـخ احمد بن أبي الضياف بقوله :

« والتارية ـ في المغرب ـ طبل من نحاس على شكل قصعة يضربه الضارب بعقال بعير ، ويـترنّم بنغمات حجازية وأبيـاتٍ موزونـة في التشوّق الى (بيت الله) تعالى وحَـرَمِ رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويذكر تلك المعالم المعظّمة والمنازل الكريمة ؛ فاذا سمعهـا من لَبّى عنه

---

(١) تاريخ ابن ابي الضياف جزء ٤ (مخطوط)

آذان الخليل ـ صلوات الله عليه ـ يحنّ ويشتـاق ويستعدّ للحج ان استطاع اليه سبيلا .

« وهذه عادة قديمة في هذا القطر حين كانت المشقّة في سفر البحر . ولا وجود للسُّفُن البخارية ، فكان الغَني من أهل المملكة إذا اراد السفر لقضاء فرضه في البرّ يستأذن الباي ، ويكتب له منشوراً في إمارته على رفقته ، فيضرب هذا الطبل تشويقاً للناس لتكْثُر رفقته . »

ويفيدنا مؤرخنا المتقدم في حوادث شهر ذي الحجـــة من سنة ١٢٣٨ (أغسطس ١٨٢٣) ان الباي حسين الثاني بن محمود « عيّن يوم عيـد الاضحى أميراً على ركب الحجّاج السيد الشريف (محمد بن عبـد الملك العوانى) القيرواني ، وضُربت (التارية) في صحن جامع الزيتونة بعد صلاة عيد الاضحى ، وطُلِعَ بها الى باردو بعد ان زارت الاماكن المعظمة ومعها صَنَاجق (أعلام) من مقامات بعض الاولياء »

ولي كلمة عارضة بهذه المناسبة : أشـار الشيـخ ابن ابي الضيـاف في وصف (التـارية) ان الضارب كان يدقّ على الطبل بعقال بعير لا بعصا كما هو المعتاد ، وقد سمعتُ من شيوخ أعرابنا بالمثاليث ان الطبل عندهم يُضرب بقضيب اذا كان في موكب فـرح ، ويضرب بعِقال بعـير إذا كان المقصود تجمهر الأعـراب للغـارة أو لدفع خطر مهـاجم ، ويسمّى

عندهم حينئذ (طبل الفَزْعَة) إشارة الى الفزع والخوف ، وتنبيهاً لرجال القبيلة بالتجمع وحمل السلاح للمقاومة ، ولعلّ هذه الطريقة من أقدم العادات عند أعراب باديتنا . والعادات قاهرات .

* * *

الاغاني البدوية

تكلمنا فيما سلف عن الالحان عند السكّان الحَضَر بتونس ، وبقي علينا أن نلمح بجملة موجزة الى الاغاني الجارية بين أعرابنا اهل المَدَر ، فان لهم طرائق مغائرة لما يوجد في المدائن من الاقوال والالحان ، لان الأصل في كل منهما مخالف للآخر . فاذا كان الغناء الحَضَري مولّداً عن التقاليد الفارسية والتركية والاندلسية ، فان التلحين والاشعار عند أهل باديتنا موروث عن أعراب الحجاز ونَجْد منذ أحقاب وأجيال خَلَتْ . وقد تمسّك أعرابنا بالمحافظة على سلامتها ، ورافقتهم في هجرتهم من جزيرة العرب الى افريقية الشمالية ،

وليس من شكّ ان السكّان الاصليين من البربر ـ من هوّارة وزناتة ـ في البلاد التونسية أقتبسوا من الهلاليين والسُّلَيْميين الطارئين

طرائق الغناء والانشاد ونسوا ـ بحكم الغلبة والمصاهرات ـ تقاليدهم البربرية القديمة ، حتى انه لم يبقَ الآن في القطر التونسي سوى الاصول العربية للغناء ، ولو ان البعض من هؤلآء البربر ما زال يتكلّم باللغة الزنانية العتيقة ، بخلاف ما نشاهده عند أجوارنا الجزائريين والمغاربة من بقايا بربرية راسخة في مذاهب أغانيهم ، لا سيما في جبال القبائل ـ بجاية وما حولها ـ وفي سائر بوادي المغرب الاقصى .

ولله عبقرية مؤرخنا الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون ، فانه أول من نَبَّهَ الى التفرقة بين الاغاني الحضرية وبين تلاحين الاعراب ، وقد نصّ على أشعارهم وأقوالهم في زمانه ـ القرن الثامن للهجرة ـ تلك الاناشيد المصوغة في قالب اللهجة البدوية الدارجة في وقته ، فليراجعها من أراد زيادة البسط في « المقدِّمة الخالدة » [١]

ومن عادة أدبائنا الاعراب ومشاهير قَوّاليهم انهم اذا صاغوا قصيداً من أي نوع كان ، فانهم يستنكفون من الانتساب الى قول الشعر ، ويتحاشون من الانشاد بانفسهم ، وانما كانوا يلقّنون أقوالهم

(١) المقدمة : فصل في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد ـ ص ٥٧٧
وراجع ايضا بحثنا : « مذاهب الشعر في كلام الاعراب » نشر في فصلين في مجلة « الفكر » التونسية عدد ١٠ ـ ١٩٦٢ وعدد ١ : ١٩٦٣

الى بعض عبيدهم ، أصحاب الحناجر الشجيّة ، لينشدوها في محافل الاعراس ومواكب الافراح ، مصحوبين بعازفي الشبّابات ودقّاقي الطبول . وهي سُنّة كانت متّبعة باطّراد فيهم . وفي نظرنا ان هذا من التقاليد العربية في الجاهلية والعصر المخضرم في الاسلام ، إذ كانت قصائد الفحول من الشعراء يرويها رَاوٍ مشهور مثل ما كان يفعل (أعْشى قيْس) حتى لُقِّب (بصَنَّاجة العرب) .

وفي ريعان الشباب حضرتُ بعض هذه المحافل فشاهدت ذلك عيَّاناً وبهذا الاسلوب كانت تنشد أشعار (طُويّر القَطَف) من مشاهير أدباء الناحية الجنوبية الصحراوية ، وكذا كان يَتغنّى العبيد بشعر (صالح بن خليفة) (من عشيرة نفّات المقيمة بالجنوب من سفاقس) واليه يُنسبُ اللّحن المعروف (بالصالحي)

طرق الصيد

يسمر أعرابنا قديما وحديثاً بنوع غريب من العزف الرمزي ، يُعرفُ عندهم (بطَرْق الصّيد) وهو يشبه تماماً ما يسميه الافرنج في موسيقاهم (بالسمْفونية) ، والمقصود بالصّيد هو الاسد ، ولا يوجد له مثيل في الاغانى الحضرية .

فهذا اللّحن يُعزَفُ به على « الشبابة » البدوية ، وهو يُعْرِبُ عن قِصّة غرامية موضوعها :شاب بدوي شجاع يهوى صَبيّة ذات جمال من بنات قبيله ، وهي ايضا تحبّه وتهواه ، فخطبها من اهلها فلم يسعف منهم بالاجابة ، فعمل على الفِرار بها بموافقتها ، وحدّدا لذلك موْعداً ، فجاءها ليلة تحت جناح الظلام على فرسه وأردفها وراءه وأركض حصانه ، سالكا بعض المسالك الخارجة عن الجادّة وقد انتبه أهلها لفرارهما بنبح كِلابهم ، واتبعوهما فلما أدركوهما تعرّض لهم العاشق ونازلهم بسلاحه ، ودار بينهم صراع وقرع السيوف ، وبعد كفاح يجرح الشاب فرداً منهم ، فيتخلّى أولياء البنت عن المتابعة ويفوز العاشق مع رفيقته بالفرار لجودة جواده .ويستْأنفَا سيرهما ، فيعترض لهما أسد شارس في الطريق ، فينزل اليه الشاب بسيفه ويتبارزا طويلاً ويفوز العاشق مرة ثانية بقتله السّبُع ويعود الى حبيبته .

واذا ما انصت الانسان الى هذه المَلْحَمة الغرامية ،وهي تُعزَف على الشبّابة ، سمع اولاً قدوم الشابّ الى خيمة الفتاة بوقع سنابك فرسه على الارض - نوع من الخَبَب - ثم تسرع خُطا الفرس حينما يردف العشيق البنت ورآءه ويفرّ بها ، ويصغى الى نبح كلاب القوم للتنبيه ، ثم يدْرك السامع اشتباك الشابِ عندما يدركه أهل البنت « ويسمع قرع

السيوف بينهما ، ثم نجـــاة المتحابّين بتواصل ركض الحصان ، ثم الى تعرّض الاسد الى سبيلهما ، فينصت السامع الى زئير السَّبُع المريع وما يدور من الصراع بينهما، وفي وقت المبارزة يصغى الى وَلْوَلَة (زغردة) الصبيَّة لتحريض صاحبها على الحمل على مُهَاجمه الحيواني،ثم تعلو الولولة لما ينتصر حبيبها على الوحش الضاري ، واستئنـاف السيْر في طريقهما الى الحبّ الصافي والسعادة .

ويخيّـل لي ان هذا اللحن الرمزي الطريف يمثّل بعض الاساطير القـديمة التي تذكّر بالاحاديث الخرافيـة المزخرفة الموروثة عن قدمـاء اليونان أو عن عرب الجاهلية، وقد تناقلها أعرابنا من عهد بعيد جداً .

وما يوجد من التقاليد الافريقية - وخصوصاً في البادية - منعادات عتيقة وعقائد مزخرفة انما توارثها السكّان المخيّمون على ضفتيْ البحر المتوسط ، وأحالوها لبعضهم بعضاً منذ ظهور الحضارة البشرية الاولى حول هذا البحر .

خلاصة ما تقدم

واذا ما بلغ بنا البحث إلى هنا فلنلخّص تاريخ الموسيقى فى البـلاد التونسية ونتتبع سيرها إجمالاً من القرون الاولى من الهجرة وما بعدها

تقدّم لنا أن الالحان كانت في أول الاستيلاء العربي على افريقية بسيطة على طريقة حُداة العرب وأهازيجهـا ، ثم أخذت تترقى بمـرور الزمان وبنسبة تقدّمهافي المشرق ، خصوصاً لما وفد الرئيس (زرياب) على القيروان وأقام بها شهوراً تحت رعاية زيادةالله الاكبر وفي ضيافته .

ثم زاد الفن انبعاثـاً ورسوخاً بمجيء مغن بغـــدادي مشهور هو (مونس) الذي استقر في البلاد واعتنى بتلقين الشباب المهذب وجواري القصور أوضاع التلاحين العراقية ، فقام يرشدويعلم مدة ثلاثين عاماًأو نحوها ، وصادف زمانه عصر النهوض والتوجيه والابتكار في الحضارة العربية شرقـاً وغرباً ، ثم كانت (الدولة الفاطمية)، وفي مـدتها قوي الانبعاث في سائر الفنون الجميلة من بنـآء ونحت وتصوير ، ولا سيما فنّ الالحان بفضل تشجيع الخلفـآء واعتنائهم بمجالس المنـادمة والطرب ، وقد بلغ البـذخ والزخرف في القصور والمنـازل منتهـاه في مظـاهر الحضارة .

ابن الجزار والموسيقى

في هذه الحِقبة نبغ أعلام في الصناعات والفنون على اختلاف مناهجها فرفعوا من شان البلاد وجعلوها في مقدمة الاقطار المشار

اليها بالبنان ، نذكر من بينهم « احمد بن الجزّار » القيرواني . مفخرة أطبآء تونس ، وقد جاء في احدى مصنفاته عبارة أعجبتُ منها وابتهجت بها أيّما ابتهاج ، وهي قوله :

« وقد صحّ عندي ان « الموسيقى » و « الرياضة » ملائمان ومُربيان للطبيعة ، والذي يمكنه استعمال هاتين الصناعتين استعمالاً جيداً فانه يورث بدَنه أدباً ، ونفسه حُسناً وسلامة . »[1]

ولا أدري ان كان طبيبنا الفــذ اقتبس هذا المعني من كلام فلاسفة اليونان فيما يخصّ الرياضة ، أم هي من مبتكراته ، وقد جرت عادته ان ينسب ما ينقل من الارآء الى اصحابها القدماء، اما فيما يتعلق بالموسيقى فلا أعلم ان وجد عند كتّاب الاغريق ما يضاهي هذا القول ، وعلى كل فاني لا أعهد ان كاتباً عربياً جادت قريحته قبل ابن الجزار بمثل هذا التحريض على العناية بالموسيقى والرياضة البدنية معا ، واعتبارهما من أصول المقوّمات لطبيعة بني الانسان .

---

(١) راجع ترجمة (احمد بن الجزار) المتوفى سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) في الجزء الاول من تاليفنا « الورقات » ص ٣٠٦ . اما الكتاب الذي وردت فيه العبارة المذكورة فهو « طب المشائخ » مخطوط ضمن مجموع في الطب موجود في مكتبة صديقنا سعادة (احمد بك خيري) في البحيرة (مصر) ومنه نسخة في مكتبتي.

ويا حبذا لو أن مؤسساتنا الرياضية تتخذ الجملة المتقدمة شِعاراً يرسم في طليعة برامجها ومطبوعاتها ، تخليداً لفكرة تونسية مضى الآن على وفاة قائلها اكثر من الف سنة .

وبعد انتقال الفاطميين الى مصر اقتفى نُوّابهم وخلفاؤهم (الصنهاجيون) أثرهم ، واتبعوا طرائقهم في الترّف ، وقلّدوهم في مجالس أنسهم ، خصوصاً في عهد المعز بن باديس ورجال دولته كالحاجب عبد الوهاب وإبراهيم الرقيق وغيرهما ، كما بسطناه قبل ، وظهرت في ايامه حركة تمدينية لا تقلّ عما كان يشاهد بمصر والاندلس ، واستمرت نصف قرن الى ان هاجمها أعراب هِلَال وسُلَيْم بخيلهم ورجلهم فقضوا على نضارة البلاد ، وخربوا قاعدة الملك (القيروان) .

وانزوى الفن إلى ساحل البحر والتجأ الى المهدية وسوسة وتونس وأقام هنالك مائة سنة كاملة - من وسط الخامس الى منتصف السادس - ما بين اضطراب وقلق وعنآء وشقاء .

وفي اثنآئها نبغ الشاعر الفيلسوف والحكيم الاديب - كما كانوا يسمونه - (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز) الذي خدم آخر الامرآء الصنهاجيين بعلمه وأدبه فإنه هذّب الفن الموسيقي ورتب أُصوله واتبعه الناس ، فصارت طريقته مسلوكة الى أوائل الدولة الحفصية .

ولما ملك (الموحدون) المغرب ووّحدوا ممالكه من أقصاها الى أدناها،سعوا في توحيد الاوضاع والنُّظُم والاذواق الى أن تحوّل الاتجاه الى اتباع التقاليد المغربية الاندلسية .

وقد أعان على جلبها وإقرارها في البلاد التونسية (ملوك بني حفص) لا سيا بعد ما اعترفت لهم مَمالِكُ المغرب والاندلس بالخلافة، فانساقت أوضاع الفنون الاندلسية وأساليبها واستحوذت على الاهوآء والاذواق ، ومن ذلك الحين تغيّر مجرى التاثير وأصبحت مَوْجَاته تاتي من المغرب والاندلس بعد ما كانت تاتي من المشرق .

ودام هذا التيار الجديد آخذاً بنفوس السكّان طيلة ثلاثة قرون ونصف ، وشاعت بينهم أغاني إشبيلية وغرناطة ، وارتكز الفن التلحيني على « النوبات » [الادوار] « والموشحات » وعرف باسم (المالوف الغرناطي) ، ولم يعتوره في تلك المدة تبديل ولا تنقيح .

ثم كان الاستيلاء التركي على الجانب الكبير من اصقاع المغرب سنة ٩٨١هـ (١٥٧٣م) فرجعت بواسطتهم موجة التاثير الى المشرق ثانياً .

وأدخل الاتراك على الفن الموسيقي المغربي عناصر جديدة امتزجت أجزاؤها بالغناء القديم ، وركِّبَتْ عليه مقامات وإدخالات (بَشْرَف)

تركية الاصل وفارسية ، وبعضها يوناني (بشرف إغريقي)،وتكوّن من مجموع هذا وذاك ما يمكن أن يطلق عليه الآن اسم (الفن الكلاسيكي) مع ما يغشاه من حين لآخر من التعديل بدخول عوامل إقليمية عليه .

وتسرّبت ألحان وأغان شعبية إليه باجتهاد بعض كبار المغنين ،

وقيل إن أكبر حدث حصل له في تلك المدة كان على يدي (محمد الرّشيد باي) ثالث أمرآء البيت الحسيني .

على أن هناك أمراً آخر كان له تاثير كبير على سَيْر الموسيقى في البلاد .

ذلك هو هجرة أهل الاندلس الاخيرة الى القطر التونسي ـ أوائل القرن الحادي عشر هجري ـ إذ أنهم جلبوا معهم ما بقي لديهم من أغانيهم الكلاسيكية وألحانهم الشعبية .

الحسن الحائك

ونبغ بمدينة تونس من بين المهاجرين فنّان ممتاز يسمى الحسن بن أحمد ، واشتهر بنسبة (الحائك الاندلسي التونسي) ، وقد تربّى

بالحاضرة وترعرع بها ، ثم انتقل الى مدينة « تِطاون » بشمالي المغرب الاقصى وبها كانت وفاته .

وإلى (الحائك) هذا يرجع الفضل في جمع تلك الاغاني وتنسيقها على النمط المتعارف الآن ، ورتبها على نَوْبَات - أدوار - وكل نَوْبة منها على مقام « طَبْع » مخصوص ، وكل نوبة تشمل جملةمن التَوْشِيَّات والمُصَدَّرَات والموشحات وما الى ذلك ، فصار جمعه الشامل هذا يعرف باسم « سفينة الالحان » وهو مجموع متداول بين المغنين عند أهل المغرب ، كما أن هذا الفنان ألف كتابا قيما آخر أسماه (الارتقا ، الى علوم الموسيقا) قيل انه جوّد فيه ما شاء ، ولم نقف عليه ، وقد سرت هذه الاغاني الاندلسية - وتسمى أيضا بالغرناطي - سريان الدم في شرايين الطبقات الشعبية بفضل خفة أوزانها، وقرب لغتها من اللهجة العامية، فعلقت بالنفوس وسرت الى الاذهان ، فحُفِظت أقوالها وتردّدت الحانها في البيوت وأسواق التجارة ومحلات الصناعة، ولم يقف انسياحها عند ذلك الحد، بل إنها هجمت على الطُرُق الصوفية ودخلت بواسطتها الى (الزوايا) فصارت ادوارها وأزجالها الغرامية تُنشَد في محافل الذّكر ، ويترنم بانغامها الشجية في مجالسها بِنِيَّة التواجد والشَّطَحَات.

وأكثر من ذلك : وضع بعضهم على إيقاعاتها أقوالاً موزونة في مدائح الاولياء والصالحين ، فغمرت البلاد المغربية باسرها .

ومن أشهر تلك الزوايا « زاوية سيدي علي عَزُّوز » الواقعة داخل مدينة تونس ، وهي تنتسب الى الطريقة العروسية ، وقد عمد فنانون من أصحاب تلك الطريقة الى عقد « مِيعاد » بها عشية كل يوم جمعة ، يتناشدون فيها اشعار الغرناطي «المالوف» ويوقّعون نوباته وموشحاته على رنّات الدفوف والنَّقَرَات ، وتخرَّج غير واحد من مهرة المغنين من تلك الزاوية العزوزية التي كادت ان تكون معهداً موسيقياً في تونس للاغاني الاندلسية وما أضيف اليها من الالحان الشعبية ، لكن بانتشار التعليم ووسائل الثقافة العصرية تلاشى أمر « الزاوية العزوزية » في هذا العهد القريب ، وأخذت اجتماعاتها تتراجع القهقرى ، شان كل الطُرُق الصوفية في هذه البلاد وغيرها من بلاد الاسلام .

وبعد ، فتلك هي المراحل التي اجتازها الفن التونسي للانغام ، عرضناها مع مختلف الظروف والملابسات التي رافقت العناصر التكوينية للفن وألّفتْ بينها ثم صهرتها على الوجه الذي نلمحه اليوم في الفن التونسي العتيق .

وها هو ذا دائب على محاولة البقاء تجاه موْجة التجدّد الشرقية الافرنجية ، ويعلم الله الى أين مصيره ، والقاعدة الكبرى في تطور الحضارة البشرية أنه لا شيء يدوم على حاله على وجه البسيطة .

* * *

مقارنة بين الاضداد

يطيب لجميع التونسيين - فيما أظن - ان يروا من بين شبانهم المتفنّنين المولعين بالموسيقى من يقوم يوما ببحث علميّ محقّق ومفصّل عن تاريخ النّغَم ، ويكون شاملاً لاصول الالحان العربية - حضرية كانت أم بدوية - والفوارق الموجودة بينها وبين الموسيقى عند أُمم الافرنج .

ولا نزاع ان النغم العربية هي شرقية المنبت،تولّدتمع الحضارات السامية الاولى : كنعانية وكلدانية وسريانية - ثم دخلها بعد الاسلام

تأثير بلاد فارس والهند ، بينما ورثت الموسيقى الافرنجية مباديها من الفن الاغريقي والروماني والبيزنطي .وما يقال عن الموسيقى ينسحب ايضا عن اللغة والفن المعماري وكذا التقاليد والعادات في كل من الطرفيْن .

وقد ادعى بعض كبار الموسيقيين من الاجانب : ان النغم العربية - والشرقية على الاطلاق - انما وضعت في أصلها بقصد «الطَرَب» والمتعة، ولذا كان تأثيرها على هيكل أعصاب السامع وتحريك سواكنه ، بينما ترتكز الموسيقى الغربية على علم الحِساب والتقدير لتنشيط السامع وتشجيعه على الحركة والعمل الجدّ في الحياة .

ويُروى من ناحية اخرى ان « هيرودوتس » كبير مؤرخي الاغريق ، قال : « ان قدماء اليونان كانوا منعوا تسرّب ألحان مصر الفرعونية الى بلادهم خوفاً من سريان التمتّع بسماعها والاعتكاف عليها مما يؤدي الى انحلال اعصاب افراد أمّتهم،ولذلك استعملوا آلات العزف والنفخ القوية الاصداع »

وبهذا الاعتبار تكون الموسيقى العربية وضعت من اولها للافراد

خاصة ينعمون بها في داخل بيوتهم . وهو ما يعــرفه التونسي باسم « الغناء المَقَاصِري » نسبة لمقاصير البيوت . بخلاف الموسيقى الافرنجية التي جعلت للجماهير ينصتون اليها في المعاهد الدينية وفي الكنائس والمجتمعات العمومية والشوارع والبطاح والمسارح وما الى ذلك .

وتجدر الملاحظة ان من الشباب الشرقي المتفرنج من يحضر حَفَلات الموسيقى الاروبية ويظهر إعجابه بما سمع ويرتاح اليه ، مع انه ـ في واقع الامر ـ لم يتأثر في باطنه بشيء من ذلك ، وانما يريد إشعار غيره بانه نال من التمدن الغربي ما يسمح له بتذوّق تلك الانغـــام ، ومثل هذا المظهر يشاهد اليوم بكثرة في اقطار المشرق ، وفي بلاد المغرب العربي بالسواء .

ومن المعروف ان غالب الافرنج لا يحصل لهم أي تأثير من سماع أنغامنا ، مهما كانت مُطربة لدينا وشجية ، وذلك راجع في اعتقادنا الى اختـــلاف تقسيم السُّلّم الموسيقي في كل من الطريقـــتين ، فربّما يبلغ الجسّ على العود الى مقام دقيق لا يصل اليه الغناء الاروبي مطلقاً ، ولهذا السبب نرى ان آلات الدقّ الافرنجية . وخصوصاً البيانو

منها . لا يَسَعُه ان يأتي بالاغاني العربية على أصولها بل يحرّفها عن مجراها الحقيقي، إذ انه لا يوافقها من الآلات الا ذات الاوتار، لمن يدرك ذلك.

وبواسطة الابحاث الفنية المدقّقة . ولستُ من رجالهـــا . يتيسّر الوقوف على الفروق الناجمة بين المنهجين العربي والافرنجي والتباين الواضح بينهما .

ولا مشاحّة ان لسائر الحضارات البشرية خصائص ومميّزات، فما يوجد في هذه لا يستوجب وجوده حتماً في غيرها ، وحينئذ لا يجوز الإدعاء بتفوّق بعضها على بعض، إذ ان مجموع ذلك كله هو ما تتالف منه حضارة الانسان على تعاقب الزمان .

ونحن لا ننكر ان هناك صنفاً من الالحان الافرنجية يروق لذوق كل مستمع مهما كان جنسه وهوَايته ، ونقصد بها الالحان الحماسية التي تبعث في النفس هـــزّة ونخوة واعتزاز ، ومن هذا النوع ما يُعرف « بالمارشات : Marches » التي تُعزف للجيش والمحاربين حين التقدم للمعارك وملاقاة العدو ، او في وقت عرض العساكر على الكبراء والقواد ، وهي تعزف غالباً على آلات النفخ النحاسية ومعها طبول صغيرة فقد يكون لها وقع وتاثير كبير لرنّاتها على نفس السامع .

وقد قلّد الشرقيون - من عرب وغيرهم - الموسيقى الافرنجية في النغم الحماسية ، واتخذ منها كل شعب شرقي نشيداً وشعاراً وطنياً لنفسه ، وهي بلا شك من البِدَع المستحسنة التي تسرّبت بلا ضير الى الموسيقى العربية .

وربما يقال مثل ذلك في بعض الاغاني الاروبية التي يبدو على اوزانها وإيقاعها التحمس والنشاط النفساني ، فهذا كله محبب ومرغوب فيه بشرط ان يدخل عليه بعض الاوضاع العربية لتهضمها موسيقانا وتُدمجها في بودقتنا المِلّية .

وعدا ما ذكر فان بقية النّغم الافرنجية من نوع « السَّمْفونية » وماشاكلها لا توافق ما اعتادت آذاننا سماعه ، ولا هو مما يتماشى مع طباعنا وذوقنا العربي .

ويمكن القول باجمال بانه لا يوجد على وجه الارض أمّة متمدّنة واحدة إلاّ استعارت العناصر الاولى لتمدينها من حضارات مختلفة سبقتها ، ثم اذا ما قُدِّر لها هضم المواد المستلفة من غيرها ، تسنّى لها خَلقَ حضارة خصوصية تُنسب اليها ، وتدوم ما تهيأ لها ان تدوم ؛ ولا استثناء لهذه القاعدة المطّردة « سنّة الله التي خلت في عباده ولن تَجِدَ لسُنّة الله تبديلا »

هواة الموسيقى التونسية ورواتها

ومن يُمن الطالع للموسيقى العربية ان قام فنّان كبير ذو سَعة وسُمعة وخُلق لطيف ،فصرف كامل عنايته للبحث عن الفنّ الغنائي في تونس،وهو: «البارون رُدُولف دَرْلنجي Baron Rodolphe d'Erlanger » فقد كرّس رُبع قرنٍ من حياته للتنقيب عن أصول النغم العربية بوجه عام ، وعن الالحان التونسية بوجه أخص ، فجمع لهذا الغرض أشهر رجال الفن من ابناء البلاد ، والّف منهم فرقة كانت تعمل تحت رعايته وباشرافه الفنّي القيّم بقصره البديع في سيدي أبي سعيد .

فمن أفراد هذه الثُّلّة الشيخ « احمد الوافي » كبير الفنّ والعمل فى زمانه ، وكذا المرحومَيْن « محمد غانم » للرباب ، والاستاذ النابغ « علي درويش الحَلَبي » الذي جلبه للعزف بالنّاي ، و « مريدخ سلامة » للقانون ، وسواهم من هو بقيد الحياة اليوم. فكانت هذه النخبة المختارة النواة الاولى التي قامت عليها « الجمعية الرشيدية » عند تأسيسها - سنة ١٩٣٣ - وقد انضاف اليها المرحوم « خُمَيْس الترنان » لتعليم العود.

وعلاوة على ما تقدّم فقد اهتمّ « البارون درلنجي » بوضع تاليف في ستة أجزاء ضخمة في أصول الموسيقى العربية ، أورد فيها غالب

ما كتبه قدماء فلاسفة العرب ،مثل الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وشرف الدين الأرْمَوِي وغيرهم في فن الغناء مع ترجمة ذلك الى اللغة الفرنسية[1] وأفرد الجزء السادس من هذه الموسوعة للموسيقى التونسية خاصةً ، وهو غاية في نوعه، واعانه على انجاز هذا العمل العظيم، الفنان المجتهد السيد « المنوبي السنوسي » من ناشئتنا الموفّقة فقد تفرَّغ بعد وفاة المؤلف الى اخراج الاجزآء الاخيرة من هذه المأثرة الخالدة .

فلا يسع الآداب التونسية الاَّ الاعتراف بالجميل لما قام به ذلك العالم المبدع « ردُولف درلنجي » من خدمة الفن العربي والتونسي ، خدمة لم يسبق لها نظير .

* * *

ومن هُواة الاغاني التونسية المتأخرين ، عالم كان يشغل منصب

(١) ونلاحظ في هذا الخصوص : ان الغالب على ما كتبه فلاسفة العرب في أول الامر ـ انما هو مستوحى او منقول عن فكر كتاب الاغريق القدماء وفلاسفتهم ، وذلك قبل ان تتفاعل معه الثقافة العربية ، ويشذ عنهم في سلوك هذا المنهج : « شرف الدين الارموي » المتأخر العصر بالنسبة لمن ذكر فانه لم ينتحل المذاهب اليونانية في الموسيقى ، لارتقآء فن الغناء الاسلامي في منهجه الخاص واستغنائه عن الاخذ من غيره .

مدرس في « معهد الموسيقى » ببرلين ، قاعدة الامبراطورية الالمانية قبيل الحرب العالمية الاولى ، وهو الاستاذ « روبرت لَخْمَان » Robert Lachman الذي أخذه التجنيد الالماني في عام ١٩١٤،فكُلِّف بالحراسة على بعض أُسرآء الجيش الفرنساوي المجلوبين من الشمال الافريقي ، وكان في حصَّته الأُسَارَى التونسيين خاصة ، فاختلط الاستاذ بهم ، وتعرَّف على جماعة من سُكَّان بلد « تستور » ، وكان يسالهم عن الاغاني الرائجة في بلدهم ويسعى لفهمها وتذوّقها من الناحية الفنية،ولا يخفى ان غالب أهالي ذلك البلد التونسي هم من بقايا الاندلس « الموريسكوس »اللاجئين الى القطر التونسي في اوائل القرن السابع عشر للميلاد ، وقد وجد لخمان عندهم خبرة وحفظاً للانغام الاندلسية المعروفة « بالمالوف الغرناطي » ، وأخذ عنهم كلما حَوَتْ ذاكرتهم من تلك الاغاني وسجَّلها بطريقته العلمية ، ثم انه بمجالستهم صار يفهم لهجتهم التونسية .

وبعد ان وضعت الحرب الاولى أوزارها ، وتمَّ الصلح النهائى ، رُخّصَ له التجوّل في بلاد المغرب ، فزار جبال زواوة بالجزائر ، ثم قدم الى تونس ـ سنة ١٩٢٥ ـ وقد تعلّقت همّته بزيادة التعرف بالاغاني التونسية،وكنتُ إذ ذاك بجبنيانة فورد عليَّ مصحوباً بتوصيات بعض

معـارفي المستشرقين ، وأعلمني بشديد رغبته في الوقـوف بنفسه على انواع الاغاني التونسية ـ الحضرية منها والبدويـة ـ وسَماعها من افواه اصحابها ، فاحضرت له زُمرةً من قوالي المثاليث المقيمين هناك ، فاخذ اكثر ما امكن ان يسمعه منهم ، ورسمه على مقتـضى منهاجه الفـني ، وقد استرعى نظره بصفة خصوصية العزف البدوي على القصبة المشهور « بطَرْق الصيِّد » واعجب به أيما إعجاب ، فكان يقول لي : « ما كنت أتوقع ان اعثر على مثل هذه « السمفونية » التي لا أثر لمثلها في بقية الجهات » .

وبعد عودته الى المانيا كتب عنها فصلاً ضافيا في احدى كبار المجلات الفنية حاول اثبات تشابه « طرق الصيد » بالاساطير المتقادم عهدها والاحاديث الخرافية الشائعة في عصر الحضارة اليونانية .

ومن جبنيانة تحول باشارة مني الى « قصر هلال » واقام بها اياماً ، وكلّنا يعلم ان هذا البلد الساحلي مشهور « بالقوّالين » للاغاني الشعبية ، وان كل ما ينشده الادبـاء القوالين لا يعتبر ذاقيمـة إلاَّ اذا عُرض في محافل الادب هناك ، فيحكم عليه أهل الخبرة لهـذا الفن بالجوْدة او بالرداءة ، لدرجة ان اصبح « قصر هلال » كالمعهد الفني لتمييز الاغاني الساحلية قَوْلاً ونغما .

والجدير بالذكر ان هذا البلد له صيغة معروفة باسمه ، وهي « الغناء الهلالي » الذي كان محصورا في الساحل ثم دخل ـ في هذه المدة القريبة ـ الى مدينة تونس واصبح مندرجاً بين اصواتها ومقاماتها في الغنـاء الشعبي .

ولنعد الى الاستاذ « لخمان » فانه كان اصدر كتابا حافلا بلغته الالمانية خصّصه للموسيقى العربية في تونس ، وهو من انفس مـا أُلّف في الموضوع ،وقد اجتمعت بهذا الاستاذ لآخر مرة في «مؤتمر الموسيقى الشرقية » المنعقد بالقاهرة في افريل عام ١٩٣٢ ، فكان في هذا المهرجان المستشار المعتمد ، وتوفي بعد سنين قليلة ، أظنـه في حدود عام ١٩٤٥ او ما يقرب منها .

* * *

أدرك القارىء ـ بلا ريب ـ في اثناء مطالعته ـ أني لم اقتصر في هذا البحث عن اخبار الموسيقى المحلية فحسب ولم آتِ بانبائها مجرَّدة ، بل اني ألحقت بها ما اتسع له الموضوع من احداث وتقاليد وملابسات .

ويعلم الله تعالى ان غايتي كانت ـ ولم تزل ـ مساعدة من يقف على هذا ليتصوَّر مظاهر الحيـاة في المجتمع الافريقي طيلة المراحل التي

مرّت بها الهيئة التونسية عبر التاريخ الاسلامي، وما كان حظ الاغاني والادب فيها ، وبخاصة كل ما له صِلَة بالنهضة الفنيَّة .

وينبغي ألاَّ ننسى ان المؤرخين واصحاب الطبقـــات المتقدّمين شَحُّوا علينا بوصف حياة الشعب في أوقات انبساطه ومِرَاحه، وملاهيه وأفراحه ، وبخلوا علينا بتفاصيل نرغب الآن بكل حرص للوصول الى معرفتها والوقوف عليها . فكان لِزَاماً عليَّ أن أجمع شتات الفقرات المتفرقة في غضون المصنَّفات لِأُلخِّص من مجموعها الاغراض التي حاولتُ عَرضها في فصول سعيتُ أن تكون واضحة وملتئمة .

واني لأرجو لهذا البحث أن يَقع من هُوَّاة الفنون التونسية مَوْقع الاستحسان والرضا ، وان يستفيد منه القاري الكريم بأوفر نصيب، ان شآء الله تعالى .

إنـــــارة

تمّ تحرير هذا البحث في اثنآء الحرب الكبرى الثانية عندما افتكت الدولة الانقليزية من ايطاليا جزيرة (بنطلارية) واتخذتها قاعدة لسلاح طيرانها الجوي في البحر المتوسط ، وقد شاع وقتئذ في بعض الدوائر السياسية بان دوَل الحلفآء تنوي بعد الحرب عدم ارجاع هذه الجزيرة الى حكومة رومة ، بل انها عازمة على اضافتها الى المملكة التونسية ، تعويضاً لها لما لحقها من المضار الجسيمة والويلات ، فعنّ لي ان اثبت بهذا البحث اثباتاً تاريخيّاً واجتماعيّاً ان لتونس حقوقاً قديمة العهد ، متينة الحجّة ، قوية البرهان على بنطلارية ، وذلك لانّ ابنآء تونس ملكوها دهراً طويلاً ، وعمروها بعناصر عربية وبربرية جلبوها من بلادهم ، وكذا بفرَق من رعاياهم المسيحيين المقيمين بصقليّة ، كما فعلوا بمالطة بالسواء . فالاغالبة هم الذين نصبوهم هناك واقطعوهم ما فيها من الاراضي الصالحة للفلاحة على حين كانت قوصرة قبلهم خالية من السكان أو كادت . فالمستوطنون فيها اليوم هم بقايا تلك الجاليات التي غرستها الدولة التونسية ، فظلّوا هناك من ذلك الزمان الغابر الى الوقت الحاضر. واستمرت إقامة المسلمين الافريقين بجوار مسيحييها،وكل متبع لدينه،

متمسك بتقاليده مدة لا تقل عن الستمائة سنة كما هو موضح في غضون هذا البحث .

فكان أملي ـ وأمل كثير من أمثالي ـ ولطالما يطرق الرجا جانب من الخيـال ـ أن تُسْنَد بنطلارية الى التراب التونسي ، مكافاة لوطننا على مشاركـته للحلفاء مشاركة فعلية في كـفاح دول المحور وخصوصا بعدمـا تحوّلت الحرب في آخر الامر الى اراضي ايطاليـا حيث دارت معـارك دموية ـ مثل وقعة (كاسينـو) وغيرها ـ ومع شديد الاسف لم ينـل تونس ادنى فائدة من مشاركتهـا ومعاضدتها بالرغم من الخسائر الفادحة في النفوس والمتاع التي أدركت بلادنا من جرآء تلك الحرب الضروس ، ولم يُعتبر لها اي نصيب لتعويض جانب من خسائرها المادية والادبية ، وكان من الانصاف والعدل ـ وأين هما ؟ ـ أن تُرَدّ جزيرة قوصرة الى الحضيرة التونسية لجبر بعض ما لحقها من المصائب المتوالية والنوائب ، لا سيـما وان (قوصرة) في الواقع هي اقرب ما تكـون تونسية من كل الجوانب : الجغرافية والعمرانية والعنصرية ، ثم انها لا يتجاوز بُعدها عن الساحل التونسي أكثر من ثلاثين ميلاً بحرياً لدرجة ان أهالي مدينة قليبية يسمون الى الآن الريح الشمالية الشرقية لما تهبّ على بلدهم (بالريح القوصري) إشعاراً بالجوار القريب الذي يدني بينهما.

ومن ناحية أخرى فقد يوجد في دائرة قليبية الترابية جالية وَفَدت عليها من بنطلارية منذ مائة عام ، ويقرب عدد النازحين من المائة نفرا او يزيدون ، فاشتروا هناك بعض الاراضي واقبلوا على غراسة الاشجار ولا سيـما الكروم لتجفيف محصوله من العنب بعد نضجه وبيع زبيبه في الاسواق الخارجية ، على الطريقة المالوفة عند سكّان قوصرة. وتمتاز بقايا هذه الجالية بتعرّبها في لغتها وعوائدها ، وامتزاج افرادها امتزاجاً كبيراً بابنآء البـلاد ، ما عـدا ذهابهم صبيحة كل يوم أحد الى الكنيسة المحلية لادآء فرضهم الديني .

أجل ! ما كادت تضع الحرب أوزارها حتى أعيدت (بنطلارية) الى دولة ايطاليـا ، ونال كل واحد من الحلفـاء حظه الاوفر من الغنائم الطويلة العريضـة ، ولم تحظ تونس باي نصيب من الغُنم ، وما نالها من الانفـال سوى الغُرم ، بل ربما اشتدت وطأة الاستعمار عليها من ذلك الحين ، وكأني بها وهي تنشد :

مَن يلتمس غُنماً فغنمي تخلّص — وانجو كَفَافًا لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

* * *

كان صديقي المرحوم الاستاذ (شفيق غربال) اطلع على بحثي عن

قوصرة فاعجبه لغرابة موضوعه ونزارة مراجعه ، فطلب مني اصداره في « مجلة الجمعية التاريخية المصرية » التي يرأسها ، فكان ظهور هذا الفصل بها ، وذلك منذ عشرين سنة مضت ، ثم ان المستشرق الاستاذ Le Comte تعلقت رغبته بترجمته الى اللغة الفرنسية ، وظهرت الترجمة في مجلة

وأودّ الآن أن أعيد نشر هذا البحث هنا ، لاني اعتبر دائماً « قوصرة » جزيرة تونسية بالرغم من العراقيل والمشاكل التي اعترضت انضمامها الى أم وطنها أثناء الحرب الاخيرة ، وقديما قيل :

تعدُو الذئابُ على من لا ـكِلاَب له وتتقي صولة المستأسد الضاري !

سلام بو ــ يولية ١٩٦٦

قــوصرة العربيـــة

في الضفة الغربية من البحر المتوسط جزائر متعددة، منها الكبيرة التي تجاوز مساحتها رقعة البلاد التونسية ، ومنها الصغيرة التي لا يبلغ شأنها أحد الولايات التونسية ، وما من هذه الجزائر ـ بين كبيرة وصغيرة ـ إلا وقد عرفه العرب وفتحوه بأساطيلهم مدة انتشار سلطانهم وملكوه زماناً طويلا ، ونقلوا اليه وسائل حضارتهم وأسباب تمدنهم، زيادة على نصبهم طوائف من العرب وأجناساً من البربر في أراضيه .

ومن ضمن هذه الجزائر (سَرْدَانيـة) و (كُرْسِكَة) والجزائر الشرقية للأندلس (ميورقة، ومنورقة ، ويابسة) التي وقع فتحها كلّها على يد مسلمي المغرب ، سوآء من أسبانيا أو من إفريقية التونسية .

ومنها (صقلية) جزيزة البحر المتوسط العظمى ـ واتساعها ثلاثة أضعاف البـــلاد التونسية ـ وقد قيض الله الأغالبة أمراء القيروان فامتلكوها ، بعد غزوات وحروب عنيفة شغلت ابنآء إفريقية طوال القرن الثالث للهجرة ، ثم ألحقوها بملكهم المتسع العتيد ، فكانت من ملحقاته .

ومن صغار الجزر (**مالطة**) وتوابعها ، تلك التي رسخت قدم العربية فيها وتغلغلت في عروقها الروح الشرقية ، فلم تكن لتتركها إلى اليـــوم .

وهناك جزيرة صغيرة أخرى تجاور البلاد التونسية ، وتسامتها من الشمال الشرقي ، وتنظر دوماً اليها، وقد حافظت على كثير من الآثار التي ورثها الحفدة عن الأجداد ، ونعني بها جزيرة قوصرة المشهورة اليوم باسم (بَنْطَلَارِيَّة) (١) تقع هذه الجزيرة في منتصف الطريق بين صقلية وإفريقية ، وتبلغ جملة مساحتها نحو مائة كيلوميتر مربعاً ، وعدد سكانها لا يتجاوز الاربعين الف نسمة . وبعبارة اخرى هي بمثابة

---

(١) قوصرة (Cossyra) اسم يوناني ، ومعناه السلة او السفط او الزنبيل ، وكان هذا الاسم اطلق عليها للمشابهة الموجودة بين صورة الجزيرة وتلك الاداة ، ومن غريب الاتفاق ان كلمة قوصرة في اللغة العربية لها هذا المعنى بعينه ، قال الليث :

« القوصرة ـ بالفتح ثم السكون والصاد المهملة ـ وعاء التمر ، وهي القفة والزنبيل وما جاء على شكلهما » واثبتها ابن القطاع الصقلي فقال بالالف : قوصرا . (راجع معجم البلدان : ياقوت ٧ ـ ١٨٣) .

وانشدوا لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه :

أفلح من كانت له قوصرة ... يأكل منها كل يوم مرة

إحدى المدائن المتوسطة من البلاد التونسية ـ مثل المهدية او نابل ـ ولها مرسى مأمون اتخذته الحكومة الإيطالية في هذا الوقت القريب مركزاً أساسياً للطيران الحربي .

تعريف القدماء

وقبل الإحاطة بما بقي في قوصرة من الآثار والتقاليد ، يناسب ان نشير الى ما عرّفها به الجغرافيون العرب ، وما قال عنها أصحاب تقاويم البلدان .

فهذا الشريف الإدريسي ـ صاحب الملك رُجَار ـ يكتب عنها في القرن السادس للهجرة :(١)

فالقوصرة هنا إناء يجعل فيه التمر . (راجع الاقتضاب لابن السيد وتحفة العروس التجاني ، ص ١٥٤)

ومما يزيد الامر غرابة ان بنطلارية (Pantellaria) وهو نفس الاسم الذي اطلقه الاسبان عليها فيما بعد ، معناه ايضاً الحصفة والقرطلة، فالمعنى واحد في مختلف اللغات .

وهناك توجيه آخر ربما كان اقرب للواقع ، وهو اشتقاق هذا الاسم من اللغة الفينيقية التي كانت شائعة قديماً في شمال افريقية وجزائر البحر المتوسط وهو (قيصرة) تصغير قصر ، والمعنى واحد في الفنيقية واختها العربية .

(١) كتاب نزهة المشتاق للادريسي .

« وجزيرة قوصرة توازي حصن قليبية من ارض افريقية، وتوازي بين مدينة الشَّاقَّة (Sciacca) ومُازَرة (Mazzara) من صقلية، وبينها مجرى ، وهي جزيرة خصيبة فيها آبار وسواحل واشجار زيتون ، وفيها معز كثير برية متوحشة ، ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون من الرياح .

ويقول ياقوت الحموي [١] : « هي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وصقلية ، فتحها المسلمون فى ايام معاوية ، وبقيت بأيديهم ثم خرجت، وقيل ان في ايامنا هذه – يعني القرن السابع – فيها قوم من الخوارج الوهبية . »

ويصفها ابن سعيد الغرناطي – المتوفى بتونس سنة ٦٨٦ ﻫ (١٢٨٧ م) – بقوله [٢] :

« جزيرة قوصرة التي يجلب منها شريحة التيّن والقطِرَان ، وهو يلتقط من شجر الضرو ، وبها المصطكى ، وهي للمسلمين تحت عهد

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (طبعة مصر) ج ٧ ، ص ١٨٣

(٢) كتاب « بسط الارض في طولها والعرض » لنور الدين على بن سعد، نقلا عن مجموعة أمارى ص ١٤٣ .

فرنج صقلية ، شرقي (الحمامات) على ساحل مدينة سوسة ، ومنها فتح المسلمون جزيرة صقلية . »

وأورد ذكرها الملك المؤيد أبو الفداء - المتوفى سنة ٧٣٣ ﻫ (١٣٣٢م) في تقويمه للبلدان ، فقال :

« وجزيرة قوصرة قبالة إفريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى ، ويوجد بها شجر المصطكى، ويجلب منها (إلى إفريقية التونسية) التين والقطن الكثير . »

وسنتكلم عن قطنها فيما يلي :

وفي « المسالك » لابن فضل الله العمري [١] – من القرن الثامن للهجرة – :

« وجزيرة قوصرة المقاربة لتونس ، وبها جماعة من المسلمين تحت الذّمّة على مقرّر لهم، ومثل هؤلاء المسلمين- إذا كانوا تحت أيدي الفرنج- يعرفون في بلاد المغرب باسم (المدّجنين)

وسنعود الى تفسير هذا اللفظ .

---

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار – لابن فضل الله – خط بمكتبة جامع الزيتونة .

هذه خلاصة ما قاله جغرافيو العرب عن قوصرة .

الفتح العربي

وإذا ما أردنا البحث عن تاريخ استيلاء المسلمين عليها يتلخص لنا :

وأن انتصاب غزاة العرب بإفريقية ، وامتلاكهم قرطاجنة ـ أم البلاد وعاصمتها الكبرى ـ من يد الروم البيزنطيين ، في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة (آخر السابع للميلاد) ، دعاهم بحكم الضرورة القاهرة إلى توجيه انظارهم إلى غزو الجزائر المتوسطة في البحر بين العدوتين الافريقية والاروبية .

وقد حملهم على ذلك أمران متأكدان : الاول ـ وجوب التوقّي من هجمات الروم البيزنطيين ، ودفع غائلتهم عن التراب الذي امتلكه الإسلام ، ثم اتخاذ الوسائل لبسط نفوذهم على ما وراء البحر المتوسط من البلاد. الامر الثاني ـ التفكير في مدّ سلطانهم على المراكز الحائلة بين سلطنتهم والبر الكبير ، وقد كانت هنالك نقط مقاومة لعدوهم ، لذلك ترى أن أول ما شرع فيه الولاة الامويون ـ بعد الاستيلاء على افريقية ـ هو إنشاء دار صناعة بحرية ـ وهي الاولى من نوعها ـ في الإسلام .

ولم يكن اختيارهم مكان تونس لهذا الانشاء من باب المصادفة ، وانما

كان عن تدبّر حكيم وخبرة سياسية بما ينجز للعرب الغرض الذي قصدوه والغاية التي طمحت اليها نفوسهم .

أسس حسان بن النعمان الغساني ـ حدود سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) دار صناعة لإنشاء السفن في مدينة تونس ، وجلب اليها العدة المناسبة ، وأقر حولها ألف قبطي بعيالهم ، نقلهم من مصر ، كل ذلك بموافقة الخلافة الاموية وتدبير ساستها الافذاذ .

ومن ذلك الحين شرعت الأساطيل الافريقية في خوض عباب البحر المتوسط ، والتعرّف بساحاته ، والتحكّك بساكني سواحله من الإفرنج ، بغزوات متوالية وغارات متتابعة أدت في النهاية الى نصب سلطان الاسلام على كثير من المراكز .

العرب والبحر

ويناسب في هذا المقام أن نورد هنا فكرة العلامة ابن خلدون في أسباب تفوّق العرب في البحر ، وما كان لذلك من الشأن ، قال [١] :

(١) المقدمة لابن خلدون .

« وكان المسلمون لعهد الدولة العربية قد غلبوا على هذا البحر (يعني : البحر المتوسط) من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قِبَل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ،ومنورقة ، ويابسة ،وسردانية ، وصقلية ، وقوصرة ومالطة ، وإقريطش ، وقبرص ، وسائر ممالك الروم . والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من لُجّة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم ....

« وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة والجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضرآء الاسد بفريسته . »

وأول من غزا قوصرة – وما جاورها من الجزائر – هو القائد المغوار عبد الملك ابن قطن الفهري ، في ولاية موسى بن نصير لافريقية – سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) ، وكان خروج الاسطول إليها من دار صناعة

تونس . ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة الفهرى ، في مدة ابن الحبحاب – في حدود سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م) .

وفي اعتقادنا أن استيلاء المسلمين النهائي على هذه الجزيرة كان في حوالي سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) ، على يد الامير عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، حفيد عقبة بن نافع ، رضي الله عنهم أجمعين . وقد كان عبد الرحمن هذا استقل بأمر إفريقية والمغرب ، في آخر الدولة الاموية بالمشرق ، وتزوج هو وإخوته بأميرات من بني أمية لجأن الى القيروان عند سقوط آل بيتهن ، فيكون فتح قوصرة قد وقع ثلاثة أرباع القرن قبل حملة الاغالبة على صقلية .

ثم كان امتلاك بني الأغلب لجزيرة صقلية – سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بقيادة أسد بن الفرات ، وقد اتخذوا قوصرة مدة حملتهم محطاً وسطاً لاساطيلهم في الغدو والرواح ، ونصبوا بها مركزاً معتبراً لحمام الرسائل في المخابرة السريعة .

التعمير العربي

وقد أفادت قوصرة الجيش الفاتح بموقعها الوسط إفادة من الاهمية

بمكان ، إذ أنها ساعدت الإفريقيين على الاحتماء بقلعتها والتحصن بمرفاها المنيع . ونظراً لحصانة هذا الموقع الحربي اعتنى بنو الأغلب بشأن قوصرة عناية خاصة ، وفكّروا في تعميرها لقلة ساكنيها وقتئذ ، إذ كانت غير آهلة ، فجعلوا ينقلون إليها من نصارى صقلية الداخلين تحت ذمتهم الثلة بعد الثلة ، بواسطة سفائنهم الشراعية ، ونصبوهم بها ، ووزعوا عليهم من سهول أراضيها الخصبة ما يكفي حاجتهم الزراعية .

وانتقل إلى سكناها بعد ذلك بشرٌ من فلاحي الساحل التونسي ـ من عرب وأفارقة ـ ونزلوا بها مجاورين للنصارى الإيطاليين المنتصبين بها . فلم يمض زمان بعيد حتى أصبحت قوصرة تضم بين جوانبها عدداً كبيراً من نصارى الذمة والمسلمين الافارقة ،وقد فعل الدهر فيهم مفعوله فمزجهم وأدمجهم في البوتقة الإسلامية ، فأضحوا بعد حين كتلة واحدة متقلدة للاخلاق العربية ، ولا تعرف غير الضاد لغة .

ومن هنا يتضح لك بُعْد مرمى الأمرآء من بني الأغلب ، ومهارتهم في أساليب السياسة ، وخبرتهم التامة بنواميس العمران وقواعد الاجتماع .

حقاً إنه لمنهج جديد فتحه الأغالبة في نظرية الاستعمار المفيد ، ولا إخال دولة سبقتهم إلى سياسة تشريك العناصر المختلفة في تعمير الارض

وإحيائها ، من غير التفات إلى جنس او تحيّز الى معتقد ، لا سيما أنا نعلم علم اليقين ان الأغالبة هم الذين أدخلوا الى صقلية ومالطة ـ وخصوصاً الى قوصرة ـ أسباباً من الفلاحة الملائمة لتُربتها الجبلية . فمن ذلك زراعة القطن التي انتشرت في عهدهم ، ولم تكن معروفة من ذي قبل ، وظلت في نمو وإثمار الى اليوم ؛ وقد أشار الى ذلك أبو الفداء فيما تقدم . وكان القطن وقتئذ من أهم منتوجات البلاد الافريقية ، أدخله إليها العرب بعد الفتح ، وانبثّ زرعه في ناحية الواحات ـ قابس وبلاد الجريد ـ ، فوفّقت الادارة الأغلبية الى نقل زراعته الى ممتلكاتها كما مر .

وما زالت قوصرة تنتفع بزراعة القطن الى اليوم الحاضر، محافِظة على الأسماء العربية العتيقة في صنعه وآلات نسجه ، كقولهم مثلا : محلوج (Malugiu) ويقصدون به القطن المندوف قبل غسله،وقولهم: ردّانة (Ruddana) وهي آلة صغيرة من خشب تدار باليد ويغزل بواسطتها القطن ، وهي آلة معروفة،غير أنهم يضمون الراء من الكلمة وهي مفتوحة في العربية .

ولا مراء أن قوصرة أضحت من لدن العصر الأغلبي مستعمرة ذات صبغة عربية زاهرة ، اتخذت بها السلطة القيروانية مركزاً حربياً معتبراً ، يشمل محطة « لحَمَام الرسائل » الذي تستعمله الدولة في

المخابرات السريعة بتحميله البريد المستعجل تحت أجنحته ، يغدو ويروح بين البر الافريقي والاساطيل ؛ واستمرت الحال على ذلك سائر مدة الدولة العبيدية الوارثة للأغالبة . وقد نشطت هجرة الافارقة الى قوصرة ، فقصدوها زرافات ووحداناً ، لا سيما أبناء الخوارج من البربر الذين اضطهدتهم الدعوة الفاطمية الشيعية فاضطروا للالتجاء الى الجهات القاصية . (١)

تقلص السلطة السياسية

ثم ظهرت قوة النورمان في البحر المتوسط ـ منتصف القرن الخامس (الحادي عشر م) ، وقد زحزحت بالتدريج السلطة العربية من صقلية وبقية الجزائر ، على حين إخفاق دولة بني زيري الصنهاجيين في افريقية وما والاها ، بسبب زحفة بني هلال وبني سليم على البلاد ، وقضائهم على التمدن الإفريقي العتيد . وعبثاً حاول المعز بن باديس استرجاع صقلية وتوابعها ، إذ جهز أسطولا ضخما شحنه بالعدة والعدد نجدة لمن بصقلية من المسلمين ـ سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٣ م) . وكان الوقت

---

(١) كتاب « سير المشائخ » للشماخي ـ طبع حجر ـ بالاسكندرية .

شتاء ، فلما كان الاسطول بحذاء قوصرة هاجت عواصف البحر ، فغرق اكثره ، وتفلّل الجميع ، ولم ينج منه الى الساحل الافريقي الا القليل .

وانضوت سائر الجزائر التي كانت للمسلمين في تلك النواحي الى مملكة (رُجَار) كبير النورمان ـ سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، وقد أسس بصقلية ملكاً قوياً ،تولاه هو وذووه من بعده ، والملك لله وحده!

وكان من سياسة النورمان أن أمّنوا المسلمين في النفس والمال ، وأقروهم بمنازلهم ، واحترموا معتقدهم فلم يسوهم بسوء ، بل استمالوهم بالعدل ، وقربوا علماءهم فدوّنوا لهم المصنفات الجليلة ، واستنشدوا شعراءهم ، فمدحوهم ببديع الاشعار ، وبالجملة اتخذ النورمان من المسلمين البطَانة والحَرَس والعشير ، تشهد بذلك رحلة ابن جبير الوزير الاندلسي .

وبتلك السياسة طمحت نفس ملك صقلية النورماني الى الاستيلاء على الساحل التونسي ، فجهز القمط رُجَار (Comte Roger) جيشاً عرمرماً شحنه في أساطيله ، وقصد به المهدية ـ عاصمة إفريقية ـ على عهد آخر ملوك صنهاجة ـ ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ونزل الصقليون في

مكان الدياس ـ حذو قرية البقالطة الآن ـ ، والتقى بالجند الصنهاجي وما انضم اليه من المتطوعة ، وبعد مقاتلة عنيفة كانت الدائرة على جيوش النرمان ، وتفللت صفوفه .

وفي هذا الانهزام يقول شاعر صقلية الفحل (عبد الجبار بن حمديس) من قصيدة عصماء ، يمدح بها آخر ملوك صنهاجة الحسن بن علي ، ومطلع القصيـــدة [1] :

أبى الله الا يكون لـك النصر   وأن يهدم الايمان ما شاده الكفرُ

ومنهـا :

فما للعلوج امتدّ في الغيّ جهلُهم   أما كان فيهم من لبيب له حجر
فكم قسموا في الظن أميال أرضنا   ولم يطئوا منها مكاناً هو الشِبْرُ

ومنها ، وقد ذكر أنه كان بجزيرة قوصرة صرح مؤلف من رؤوس قتلى الحرب :

وقوصرة فيها رءوس جدودهم   الى اليوم ملآن بافلاقها العَفْرُ
فلو تسأل الريح المعاطيس منهم   لأخبرها عن كل شلو بها ذفـر

---

(١) راجع ديوان ابن حمديس ، طبعة رومة سنة ١٨٩٧ ، ص ٢٢٣ .

ومنها ، وقد أشار إلى استيلاء النورمان على صقلية وقوصرة :

وما قَتَلوا من شدّة البأسِ أهلَها   ولكنّهم قلٌّ أحاط بهم كُثْرُ
أتعجم نبع العرب عجم ولا يرى   لما اشتد منها في نواجذها كسر
توالت عليها منهم كل صيحة   كما روع الاعيار من أسد زأر

وهي قصيدة طويلة كلها عيون .

وبعد وقعة الدياس جدد القُمّط رُجَار ـ كبير النورمان ـ حملته على المهدية فامتلكها هي والساحل التونسي ـ ٥٤٢هـ (١١٤٨م) ، وتشرد الحسن بن علي آخر الصنهاجيين الى المغرب ، في خبر طويل مبسوط في التاريخ التونسي ، وكان ذلك آخر عهد للسلطان الاسلامي بجزائر البحر

أما صقلية ومالطة وقوصرة وما سواها ، فقد دامت بيد النورمان الى أن خلفهم عليها رؤساء الإفرنج من الجرمان ، وما كادوا يبسطون نفوذهم على تلك الاصقاع حتى تغيّروا على بقايا المسلمين المُدَجَّنين المقيمين تحت ذمتهم ، فساموهم سوء العذاب ، وأنزلوهم منزلة الذل والهوان ، وألحقوا بهم ألواناً من القساوة والاضطهاد .

انتجت سياسة الارهاق التي سلكها الجرمان من أسرة هوهنشطوفن (Hohenstaufen) ، وبعدهم الافرنج من سلالة آنجو (Anjou) ان هاجر

جماهير من مسلمي صقلية والجزائر الاخرى الى افريقية التونسية ، لاجئين اليها بحشاشة أنفسهم ودينهم ، فرحّب بقدمهم وُلاَة الموحدين والامرآء الحفصيون وفسحوا لهم المجال . فانخرط بعضهم في الجيش الافريقي لما كانوا يحسنون من فنون الحرب ، واتّجه قسم كبير منهم الى فلح الارض وإحيآء الموات ، واشتغل أهل المعرفة منهم بتدريس العلوم. ومن بين هذا الصنف الاخير (آل الصقلي) الاشراف الادريسيون فإنهم استقلوا بصناعة الطب في الحضرة التونسية ، وتداولوا عليها خلفاً عن سلف ، ونالوا من الشهرة الكبيرة ما هو معلوم . ولا يبعد أن يكون أفراد هذا البيت الصقلي من ذرية الشريف الصقلي ، صاحب الملك رُجَار ومدوّن الكتب النادرة له .

وبطبيعة الامر فإن هؤلآء المهاجرين ، انما كانوا من طبقة السُرَاة والمياسير، أما لفيف القوم والرعاع - وهم القسم الاوفر - ، فقد اضطروا للبقآء في أوطانهم عرضة للظلم والعذاب .

قوصرة وبنو حفص

ولطالما تدخّل أمراء الدولة الحفصية في بداية أمرهم في شؤون تلك الجزائر وهددوا الطغاة من ملوك الافرنج بالانتقام إن لم يرتدعوا عن

سيرهم الغاشم ، ويرعوا حقوق من لنظرهم من ضعفاء المدّجنين . وآخر الامر استقرت الحال على انبرام معاهدة صلح ومهادنة بين المولى أبي زكرياء الاكبر - أول مالك من بني حفص - وفريدريق الثاني (Frederick II) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك صقلية بتاريخ ١٥ جمادى الآخر من سنة ٦٢٨ هـ (٢٠ إبريل ١٢٣١ م) ، لمدة عشر سنين. وبمقتضى هذه المعاهدة وقع الاعتراف من لدن الدولة الحفصية باستيلاء فريدريق على جزيرة قوصرة (بنطلارية) ، لكن بشرط رجوع نصف محصول ضرائبها الى الحكومة التونسية، تتقاضى ذلك في كل عام . وقد نصّ هذا الصلح على وجوب احترام المسلمين المقيمين بمملكة فريدريق في عقائدهم الدينية ، واستقلالهم من ناحية احكامهم الشرعية والعرفية . [١]

دام العمل بنص المعاهدة المتقدمة ما دام الامير أبو زكرياء الاول في قيد الحياة ، وكانت له أياد بيضاء في موالاة من بقي من مستضعفي المسلمين بجزائر البحر ، وعناية مشكورة بشؤونهم ورقة لحالهم ، وامدادهم بما يحتاجون إليه من مرشدين ووعّاظ . فلما قضى أبو زكرياء

---

(١) راجع نص المعاهدة في كتاب Traités de paix et de Commerce تأليف Mas Latrie ص ٨٢ ، ١٢٣ ، ١٥٣ ، ١٥٥ .

نحبه – رضوان الله عليه – تنكّب الافرنج للمدجنين ، وصوّبوا نحوهم أنواعاً من المكر والخداع . قال ابن خلدون [1] :

« ولما بلغ الخبر بهلك الامير أبي زكرياء – ٢٣ جمادى الآخر ٦٤٧هـ (٤ أكتوبر سنة ١٢٤٩ م) – الى صقلية ، وكان المسلمون بها في مدينة (بلرم) قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشتراك في البلاد والضاحية ، فتساكنوا ، حتى اذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى العيث فيهم . فلجأوا الى الحصون والاوعار ، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس . وحاصرهم طاغية صقلية بمعقلهم في الجبل ، وأحاط بهم حتى استنزلهم ، وأجازهم البحر الى عدوته ، وأنزلهم لُوجَارَة (Lucera) من عمائرها ، ثم تعدى الى جزيرة مالطة وقوصرة ، فأخرج المسلمين الذين كانوا بهما ، وألحقهم بإخوتهم ، واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها ، ومحا منها كلمة الاسلام بكلمة كفره ، والله غالب على امره »

الدجن بقوصرة

يظن الواقف على هذا الكلام من تاريخ ابن خلدون أن آثار الاسلام

(١) تاريخ ابن خلدون ، طبعة الجزائر ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

بعد ذلك انقطعت تماماً من تلك الجزائر – ولا سيما من قوصرة التي نبحث عنها هنا بصورة خصوصية – والواقع أن الافريقيين لم ينقطعوا عن تلك المستعمرات ، ولم يتركوها ، بل استمروا على الاقامة بها والتردّد عليها في كامل مدة الدولة الحفصية . وقد تقدم لنا ما وصفها به ابن فضل الله العمرى في القرن الثامن للهجرة ، حيث قال : « وبها جماعة من المسلمين تحت الذمة على مقرّر لهم » . ومثله ما رواه ابن سعيد الغرناطي المعاصر لتلك الحوادث ، حيث يقول : « وهي للمسلمين تحت عهد فرنج صقلية » ، وهؤلاء المسلمون الخاضعون لحكم الافرنج كانوا يعرفون في بلاد المغرب – وخصوصاً في اسبانيا – باسم المدّجنين (Mudejare) [1] .

يستفاد من خبر ساقه ابن ناجي عرضاً أن جزيرة قوصرة – في أوائل القرن التاسع للهجرة – كان يقطنها المسلمون والنصارى معاً ، وأنها كانت خاضعة وقتئذ لحكم نصارى الاسبان ، وأن للمسلمين المقيمين بها قاضيا ينظر في شؤونهم الدينية وأحكامهم الشرعية ، وانهم كثيراً ما كانوا يترددون على مراسي إفريقية ، وبالخصوص على مُدُن

(١) اطلق نصارى الاسبان اسم (Mudejare) المحرف عن كلمة «مدجن» على من اقام تحت حكمهم من المسلمين في الجهات التي افتكوها من الاندلس

الساحل الشرقية ، مثل سوسة والمهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة فيما ذكره ابن ناجي . ويتبين من كلامه أن العلماء كانوا ينكرون على هؤلاء المسلمين رضاهم بالاقامة تحت حكم الكفّار ، وعدم هجرتهم الى بلاد الاسلام ، واليك عبارة ابن ناجي بنصها [1] :

« وجَرَى لي ، وأنا قاضي بجربة — حدود سنة ٨٠٠ه (١٣٩٨م) — أن قُدّم لي رسم فيه شهادة قاضي قوصرة يذكر حق شهود من علمه ، فطلب مني العارض أن أوقع على خطّه ، فلم أُمكّن صاحبه من ذلك لانهم (أي مسلمو قوصرة) قادرون على التحيل في الخروج منها ، وربما يخرج بعض من فيها ويعود اليها ، وهم تحت حكم الكفار . »

ويؤيد ذلك أيضاً الفتوى الصادرة من عالم تونس في وقته — وهو الامام البرزلي — ، التي يقول فيها [2] :

---

(١) راجع شرح رسالة ابن ابي زيد (طبعة مصر ١٣٣٢ ، ص ٤٠٦) تاليف القاضي ابي القاسم بن ناجي القيرواني المتوفى في رجب ٨٣٩ (يناير ١٤٣٦) .

(٢) راجع « المعيار » للونشريسي ، طبع فاس ، سنة ١٣١٤ ، ج ٢ ، وكذلك « جامع مسائل الاحكام » خط بمكتبتي ، تاليف ابي القاسم محمد بن احمد البرزلي مفتي تونس المتوفى سنة ٨٤١ ه (١٤٣٨ م) . واقول بالمناسبة انه لو امكن استقراء المؤلفات المحررة في الفتاوي ومسائل الفقه وفروعه خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر بالاقطار المغربية - تونس والجزائر والمغرب - لتيسر اخراج ما لا يحصى من مسائل التاريخ الصحيح بالوثائق الثابتة عن اخبار المغرب والاندلس ، وبخصوص علائقه ببلاد الافرنج وجزائر البحر المتوسط ، ونحن في حاجة اكيدة الى ذلك لفقدان ما يعتمد عليه في هذا الشان من كتب التاريخ العربي .

« ومثله عندنا بإفريقية أهل قوصرة ، فإنها تحت إيالة اهل الكفر ، وقد اختار بعضهم الاقامة بها ، فمن غلب على أمره منهم فله مندوحة وليست بجرحة في حقه لانه كالمكره ، ومن كان باختياره فهو جرحة وحكم ما له يجري على ما سبق ، وهم — أي مسلمو قوصرة — ونحوهم من أهل الاندلس يسمون بالدّجن . »

نظام الحكم بقوصرة

في المصادر التاريخية التي لدينا لم نقف على أي نص يفيد ما كانت عليه هيئة الحكم ونظام الادارة بالجزيرة ، في مدة الاستيلاء العربي . أكان فيها حاكم بانفراده من لدن الدولة الافريقية ، أم كانت راجعة بالنظر الى والي مالطة أو صقلية ؟ هذا ما لم تحطنا بخبره الانباء الواصلة الينا .

ولا خفاء ان الامراء من بني الاغلب كانت لهم عناية تامة بممتلكاتهم ، واهتمام خاص بسيرها وعمرانها وتقدمها ، فقد كانوا لا يتخلون عن تفقّدها بأنفسهم من حين الى آخر ، ومهما مسّت الحاجة الى ذلك . وقد يفيدنا التاريخ ان الامير محمدا الثاني — الملقّب بأبي الغرانيق — ركب البحر مرة من مرفأ سوسة الى جزيرة قوصرة ، وأقام بها بضعة أيام

للكشف عن أحوالها ، ثم عاد الى القيروان عاصمة ملكه . ولا شك ان أمراء تلك الاسرة كانوا يقصدونها ، كما كانوا يزورون مالطة وصقلية ، للوقوف على حالة البلاد والاستماع الى الرعايا .

والرأي الذي نعتقده أنه كان لقوصرة عامل مستقل بذاته ، ينظر في شؤونها الادارية ومصالحها الحربية والاجتماعية، كما كان لها قاضٍ شرعي مستقل يقضي بين سكانها المسلمين في أمور دينهم وأحوالهم الشخصية معيّن من قبل حكومة القيروان أو المهدية ؛ وكذلك كان الشان في بقية الممتلكات العربية المنقطعة عن العدوة.

ثم لما انفصلت قوصرة عن حكم الاسلام صار مسلمو الجزيرة هم الذين ينتخبون من بينهم قاضياً ، ترتضيه حكومة النصارى وتمضى أحكامه الشرعية ، حسبما يستفاد من كلام ابن ناجي المتقدم آنفاً . ودام الامر على هذا النظام الى القرن التاسع للهجرة - وربما الى القرن العاشر غير اننا لانعلم بعدها ما كان مصير المسلمين المدّجنين بها ، ولا شك انهم بتوالى الزمان وانقطاع المدد المادي والمعنوي عنهم من افريقية العربية لعجز الدولة الحفصية في آخر عهدها ، انتثر عقدهم ، وتبدّد شملهم بالتدريج الى ان آل أمرهم في النهاية الى التلاشي والاضمحلال .

والظن الغالب - البالغ درجة اليقين - أن الإسبان في مدة تغلبهم

على قوصرة عفوا على بقايا المسلمين بها ، وألزموهم التنصر قسراً ، مثلما فعلوا مع اخوانهم المدّجنين - في الوقت نفسه - في أصقاع الاندلس ، ولا غالب الا الله .

جزيرات عربية اخرى

ومـا ذكرناه عن حـال سكان قوصرة في العصر الحفصي يمكن ان يقال مثله عن مسلمي بعض الجزائر الصغيرة الاخرى ، مثل لنبدوشة (Lampedusa) ونمـوشة (Linosa) الكائنتين في الشرق من البـلاد التونسية ، والتابعتين فى النظر الى قوصرة.وقد يجد الباحث عنها نتفاً مبعثرة هنا وهناك أثنـاء المطالعة في المطولات ، فقد خصها أبو عبيد البكري في « مسالكه » [1] بمجرد الذكر ، ورسمها أمام جزيرة قرقنة التونسية - يعني في شرقيها - وهو الواقع ، وأثبتها الشريف الادريسي في نزهته بقوله [2] :

(١) ص ٨٥ ، طبعة باريس ، ١٩١١ .

(٢) مجموعة أماري ص ٢٤ ، ٢٥ ونزهة الانظـار لمقـديش الصفاقسي طبعة تونس ج ١ ص ٥٣ .

« وأما جزيرة لنبدوشة فبينها وبين اقرب بَرّ من افريقية حيث قبودّية [مكان بلد الشابة الآن] مجريان ، وبها مرسى مامون من كل ريح ، ويحمل الاساطيل الكثيرة . وهذا المرسى منها في اللباج [او : الباش وهو ما بين الغرب والجنوب] ، وليس في جزيرة لنبدوشة ، شيء من الثمار ، ولا من الحيوان البري . وجزيرة نموشة في الشرق مع الشمال يسيراً ، ثلاثون ميلا ، وليس بجزيرة نموشة مرسى ولا شعراء، والارساء بها يكون مخاطرة » .

وهذا الوصف ـ فيما رايت ـ اشمل ما وقع لجغرافي العرب عن تينك الجزيرتين الصغيرتين .

ووقفت على فتوى للإمام ابي عبد الله المازري جاء من ضمنها [1] :

« وسئل الامام المازري عمن دفع لرجل مالاً قراضاً ليسافر به الى المشرق وكتب بينهما وثيقة،واشترى الرجل بضاعة وحملها في مركب،

---

(١) الامام المازري هو محمد بن علي ينسب الى مازرة (Mazzara) من مدائن صقلية ، وتوفي بالمهدية ٥٣٦هـ(١١٤١ م). وقبره بالمنستير ، وله مصنفات في علوم الشريعة وغيرها ، ووردت الفتوى المذكورة في « المعيار » للونشريسي ج ٨ ، وقد عرفت بالامام المازري تعريفا وافيا في الرسالة التي وضعتها في ذلك وطبعت بتونس

فلما وصل إلى جزيرة (أنبدوشة) انفتح المركب وخشي عليه الغرق، فرد سالماً الى المهدية ، ورفع البضاعة الى رب المال فطلبه بالوثيقة ... » الى آخر ما بالفتوى .

ومن هنا يستفاد أن السفر بين المهدية والاسكندرية بالسفائن الشراعية ـ في القرن السادس للهجرة ـ كثيراً ما كان يقع على طريق لنبدوشة هذه .

قوصرة والاتراك

ولنعد الى أخبار قوصرة بالخصوص ، فإنها بقيت تحت حكم الاسبان الى أن ظهرت سلطة الاتراك العثمانيين في البحر المتوسط ، وطمحت نفوسهم الى الاستقلال بالسيادة عليه .

أثبت التاريخ ان الزعيم التركي طورغود باشا ـ ويسميه التونسيون درغوث ـ افتتح قوصرة باسم السلطنة العثمانية ، وافتكها من يد الاسبانيين ، بعد ما استولى على مرسى المهدية الحصين ، وذلك في سنة ٩٦٠ (١٥٥٣ م) ، وقد اتخذها معقلا ماموناً لسفائنه الحربية .

وقد دامت قوصرة في تصرفه ما دامت المهدية تحت يده ، ثم

استرجعها طائفة (الاسبتارية) المعروفين بفرسان مالطة ، فبقيت تابعة لحكمهم زماناً طويلا الى أن اغتصب الانكليز عليهم جزيرة مالطة وألحقوها بامبراطوريتهم الكبرى سنة ١٢١٥ (١٨٠٠ م) .

وإنا لا ندري ـ كما قدمنا ـ أكان يقيم بقوصرة في تلك الاثناء شرذمة من بقايا المسلمين ، أم أنهم أجبروا جميعاً على التنصّر من لدن الاسبان ، ثم من فرسان مالطة ، وهو المحتمل الغالب على الظن .

لكن الامر الذي نعلمه يقيناً هو أن لغة التخاطب بين سكان تلك الجزيرة كانت العربية لا محالة ، وأن لباسهم ـ الى عهد غير بعيد ـ كان لباس مسلمي البلاد التونسية بالسواء .

قوصرة واللغة العربية

وبين ايدينا من ذلك العصر رحلة حرزها شاب فرنساوي اسمه جان بوني (Jean Bonnet) أسّرة القرصان التونسيون ، وأقام مأسوراً في تونس خلال سنتي ١٦٦٩ و ١٦٧٠ م (١٠٨٠ و ١٠٨١ هـ) ، يعني على عهد الامراء المراديين . ثم انه امكنته الفرصة من الفرار من

مرسى سوسة على سفينة شراعية ، فعاد الى وطنه فرنسا ، بعد ان اجتاز على جزيرة قوصرة [1] .

يستفاد من هذه الرحلة ان ذلك الشاب ـ وكان ربّاناً بإحدى السفائن ـ لما حل في جزيرة قوصرة بعد فراره ، وهي أول ما وصله من ارض الافرنج ، لم يقدر على التخاطب مع سكّانها ـ وإن كانوا نصارى ـ إلا بواسطة ترجمان مالطي ، اذ كانت اللغة التي يتكلم بها أهل بنطلارية تشبه كثيراً اللهجة الجارية بين سكان جزيرة مالطة . ومن هنا يتّضح لك أن العربية ظلت مستعملة بين قاطني قوصرة الى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ، بل أنها كانت لسان تخاطبهم الوحيد ، ولا يعرفون غيرها من اللغات الافرنجية . ولا شك ان لهجتهم هذه لم تكن بالعربية الخالصة ، بل كانت لهجة أصولها عربية منحرفة كثيرا ، في مستوى ما يتكلم به اليوم في جزيرة مالطة أو أقرب بقليل منها الى الفصحى ، بالنظر لقرب ما بين قوصرة وبلاد تونس العربية .

---

(١) راجع الرحلة المعنونة « Relation de l'esclavage d'un marchand de Cassis à Tunis » rédigée par A. Galland ,Paris 1810 وكذلك الفصل المنشور في مجلة (الكاهنة) Un Marchand provençal esclave à Tunis par Grandchamp « La Kahena » , Tunis , oct. 1938 P. 134.

وليس أدل على ذلك من أعلام الاماكن وأسماء البِقاع الموجودة في قوصرة ، فإنها عربية بنسبة ثمانين في المائة .

أذكر أن بعض المعارف الإيطاليين قال لي ذات يوم :

– أليس من العجب أن تبقى أعلام البقاع في قوصرة عربية بهذه النسبة العظيمة، بعد ان امتلك النصارى اللاطينيون ناصية الجزيرة ما يقرب من سبعمائة عام ؟ .

فقلت له : لا غرابة البتة في ذلك لما نعلم من قوة استيلاء العربية على النفوس ، واستحواذها على القلوب استحواذاً لا ينازعها فيه فاتح ، ولا يشاركها في سلطانه متغلب . وليس الامر مقصوراً على قوصرة وحدها ، بل هو مشاهد في سائر الاصقاع التي شاء القدر أن يتملكها العرب ، كصقلية ، والاندلس ، ومالطة وسواها كثير .

اسماء البقاع

ولنورد هنا – على سبيل التذكير فقط – بعض الاعلام العربية لاسماء اماكن موجودة الآن بقوصرة ، فمن ذلك :

– المرسى (Limarse)

– بيت المرسى ، وترسم الآن بالحروف اللاطينية (Beccimursa) كما ينطق بها الآن السكّان .

– الشّرَف (Scirafe) وهو مكان مرتفع .

– جبل (Gibele) اسم لارفع مكان بالجزيرة .

– جبل أحمر (Gel hamar) .

– الشمالية (Gimillia) لمكان بها من الناحية الشمالية .

– المنية (Mugna) بمعنى الجنان ، وهو كثيراً ما يقع في الاعلام الجغرافية في الجزيرة .

– الحمّة (Hamma) قرية صغيرة بها عيْن حمية من آثار البرقان الموجود في وسط الجزيرة ، ومن أجلها سميت بها.

– كدية الحمّة (Cudia di hamma) .

– حَرُّوشة (Caruscia) وهي اسم لارض متحجرة على معنى ما نسميه بالحِرش في تونس .

– سلوم (Sollume) أي السُّلّم، وهي طريق متصعدة في الجبل ، ونطقهم سلوم – بزيادة الواو – يشبه تماماً ما باللهجة التونسية

– خربة (Harbe) .

– زيتة (Zita) .

ـ كدية (Cuddia) لكل مكان مرتفع ، وهذه التسمية تدخل على جملة من الاماكن .

ـ الحجر (hagiar) .

ـ بو قُرّة (Buccura) والمظنون أنه اسم عَلَم في الاصل اطلق على المكان .

ـ كدية ابن سلطان (Cuddia Bonsultan) .

ـ طريق ابن سلطان .

ـ بو جابر .

ـ بني قائد (Beni Cuad) .

ـ بويرة (Buira) تصغير بئر مع التانيث .

ـ بلاطة (Balata) .

ـ طريق الريح .

ـ خنقة ،وينطقونها حنكة (Hanaca) اسم مضيق بين جبلين.

ـ الغلقة (Le galche) .

ـ كدية التنُّورة (Cuddia attalora) .

ـ سداري (Sidere) .

وسواها كثير جداً ، وربما عُدّ بالمئات ، اقتصرنا على جلب المهم منها ،

مفردات عربية

أما لو أردنا احصاء الكلمات العربية المستعملة الى الآن في اللهجة القوصرية الايطالية ، للزمنا افراد معجم صغير مستقل ، لذلك نكتفي هنا بالاشارة الى شيء منها :

ـ زبيب (Zebibo) للعنب المجفف .

ـ بيفرة (Bifra) لباكورة التين (وينطقها التونسيون بالثاء بدل الفاء) وكلاهما صحيح ، والاصل في هذه الكلمة يوناني معرب .

ـ سواقي (Scivachi) جمع ساقية ، محل مسيل الماء .

ـ دكّانة (Duccana) وهي المصطبة .

ـ سكّارة : القفل (وينطقون بها سكالة) ، وقد يستعملون مثلاً جارياً الى اليوم في اللهجة التونسية وهو قولهم « كيف بيت كيف سكالة » ومعناه : الباب يساوي القفل في الرداءة .

والقوصريون يعرفون شخص جحا الذي تنسب اليه الحكايات الطريفة ، وهم يلفظون اسمه جُفَا (Giufa) بقلب الحاء فاءً ، كما هو جار في بعض كلمات أخرى وينسبون اليه حكايات ونوادر مضحكة.

ـ داموس (Damusso) ويعنون به كل بناء معقود (مقوس). كما هو في التونسي

ـ ساسي (Sessi) تحريف أساس ، ويعنون به كل بنـآء مقام من الحجارة الكبـيرة ، ويلاحظ ايضـاً أن هذه الكلمـة يستعملها سكان جزيرة سردانية للدلالة على بنآءات قديمة منتشرة في بلادهم .

ـ خفّاف ، حجر من نوع اللخاف الذي يطفو على الماء

ـ بَلاَطه : حجارة كبيرة منبسطة (Balata) .

ـ شميشة : تصغير شمس .

ـ حربوشة : القطعة من العجين تُدَوَّرُ ثم تلقى في الرماد السخن حتى تستوي ، وهو ما يسمى عند فلاحينا بخبز الملة .

ـ مطيرة : القطعة من الارض تعد للحراثة ، وكذا هو في التونسي

ـ سَبَّالة : السبيل الذي يشرب منه الماء .

ـ حِفيان : وينطقون أفيـانو (Afiano) يصفـون بها الرجل إذا كان حافياً من غير حذاء .

وسوى ذلك كثير من الكلمات العربية الاصل لا محالة ، وقد يصعب الوصـول الى تحقيقها وارجاعها الى اصولها . وفيما ذكرنا كفاية لمن يريد ان يثبت ان العربية دأبت مستعملة في قوصرة الى عهد غير بعيـد ، كما قدمنا.ثم طغت عليها الايطالية ـ أو بالتحقيق لهجة صقلية ـ لما آل امر هذه الجـزيرة الى حكومة رومـة ، وبقيت كلمـات عربية مندسّة في المفردات التى لم يصلها التعليم والتقليد والحضارة الاوربية .

العادات والتقاليد

وما قيل عن لغة التخاطب يقال عن العادات والتقاليد ، فقـد ظل سكّان قوصرة الى زمان ليس بالبعيد مقلدين أهـل افريقية في عاداتهم العربية ، وأنظمتهم الاجتماعية وتقاليدهم في كثير من مظاهر الحياة.فقد كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء (الطربوش المغربي)،ويكتسون (القَشّـابية) الصوفية من صنع الساحل التونسي وجزيرة شريك؛ثم بانقطاع العلائق التجارية بينهم وبين تونس ـ من نحو مائة سنة أو اقل من ذلك ـ تحوّلوا الى لبـاس البرنيطة والاكسية الايطاليـة ، وكانوا لا يعرفون من الاواني والماعون الا ما يرد عليهم من فخار جزيرة جربة كالجِرَار لخزن الزيـت ، والخوابي للخمر ، والقِـلاَل واكواز المـاء ، وهلم جرا . وكذلك كان نساؤهم الى أمد قريب يحتجبن ، واذا خرجن من البيوت لعمل ما او الى الكنيسة يتعجرن بلحاف اسود ، ولايتركن ظـاهراً من وجوههن الا العيون ، وكانهن قلدن في اتخـاذ ذلك الازار الاسود الذي ترتديه نساء الساحل التونسي عند الخروج من بيوتهن، لا سيما من بينهن نسآء مدينة سوسة .

وخلاصة القول ان غالب العادات العائلية والاجتماعية بقوصرة كانت تمتُّ الى التقاليد العربية بصلة .

ويناسب ان نذكر انه طالما وقع العثور في سواحل قوصرة وفي بريتها على نقود عربية مضروبة بالبلاد التونسية ، في ايام الاغالبة والعبيديين وبني حفص ، كما ان البحوث الاثرية كشفت بها عن عدد لا يستهان به من الكتابات العربية المنقوشة على الحجارة وألواح الرخام (مشاهد) كانت موضوعة على قبور اعيان من سكانها في المدة الاسلامية [1] ، مما يدل على اندماج هذه الجزيرة في بوتقة المدنية العربية كغيرها من البلاد .

* * *

(١) راجع بحث الاستاذ اورسى (Orsi) في مجموعة ١٨٩٩ ، ص ٤٠ وما بعدها ، ج ٩ من Monumenti Antichi dei Lincei ، وكذا بحث العلامة ميكالي اماري ، طبع بلرم ١٨٧٩ ، وعنوانه Le epigrafi arabiche di Sicilia ص ١١٨ وما بعدها .

يتلخص مما تقدم من البحث ان كثيراً من عادات اهل قوصرة في زيهم وكلامهم ، وطرائق بنائهم وفلحهم للارض وصناعتهم اليدوية ، يرجع باصله الى التقاليد التي ورثوها عن أبناء افريقية الاسلامية ، كما ورثها غيرهم عن العرب ايضاً من سكان صقلية ومالطة وسواهما من جزائر هذا البحر .

وهكذا جرت سنن الكون في عملها الفعّال منذ انبلج صبح الحضارة على ضفاف البحر المتوسط ، فقد حملت رياحه وامواجه الغادية الرائحة بين جوانبه بذور مدنيات مختلفات ، تأتي بها تارة من المشرق الى المغرب وتنقلها اخرى من الجنوب الى الشمال طرداً وعكساً ، وتمزجها بالتراب والرقاب حتى اذا ما تالف منها هيكل منسجم الظاهر ، متماسك الاجزاء ، انسجمت في ثناياه مؤثرات خفية اندست في باطن التربة وفي اعماق النفوس ، وسرت فيها سريان الماء في العود ، وجرت جريان الدم في الشرايين ، صنعة الله ، ومن احسن من الله صنعاً !

فمن تلك البذور ما يضمحل بعد حين ويندثر لحقارته وعدم

صَلاَحِيَّته ، ومنها ما يظلّ حياً نامياً دهر الداهرين ، لمتانة في اساسه ، وقوة في وقعه ، وفائدة في بقائه ، مصداق قول الله تعالى :

(فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

عن تونس - مارس ١٩٤٤



أحد غزاة العرب كما نتخيله

مَواعظ وَنوادِرُ وملح تونسِّية

وَلَوْلا أحاديثٌ أبقتها أوائلُنـا   من النَّدَى والرَّدَى لم يُعرَف السَّمَرُ

كنت ايام الصبا ـ في اثناء مطالعتي لكتب التاريخ وتراجم الرجال وموضوعات الادب ـ جمعتُ جملة وافرة من المواعظ الحكيمة لاسلافنا الابرار مشفوعة بنوادر لطيفة مقتبسة من سيرهم واخلاقهم وشيئمهم، اعتقـاداً مني ان ذلك هو لُبـاب الادب وعصارته الشهيـة ، اذ بفضلها يتعـرّف القـاري الى جانب عظيم من نفسية الامـة ومُيولهـا في مجالس وعظهـا ، والى طرائف احـاديث نواديها ، وفعلات اجوادها، وظريف فكاهـاتها ، ما يصلح أن يكون مرآة صافية تنعكس فيها صورة من رقي حضارتها ، وبرهاناً صادقاً على رقّة شعورها وجودة عواطفها

وقديماً اعتبر الفلاسفةُ الفكاهةَ معياراً لحضارة الشعوب ، والدعابة عنوانا لتمدنها ، فبقـدر ما تَرقّ (النكتة) ، وتجود الملحـة ، يدرك الباحث رقة طبع العنصر المنسوبة اليه وعراقته في الثقافة والتهذيب.

ومن خـلال المواعظ والنوادر والمُلح التي ستعرض عليك يجوز لك ان تجزم برسوخ الحياة الحضرية في هيئة المجتمع التونسي في عصور فيْض التمدن العربي .

على اني لم اذكر من هذه النوادر الاّ جزءاً يسيراً مما تجمع لدي ، وقد يكفي من القلادة ما احاط بالجيد .

ولا يفوتني ان أشير هنا الى ان جانباً كبيراً من كتّابنا المعاصرين ينقلون عما ينشر باللغات الاعجمية من نوادر وحكايات فكاهية ربما لا يفهم مغزاها قرآء العربية لبعد ذوقنا من مماثله الغربي ، بينما يوجد من هذا النوع في مجاميع ادبنا ما لا يعدّ كثرة ولا يقلّ دعابة ورقّة ، غير انا فتنّا بتقليد البعيد الغريب ، والزهد في الميسور القريب .

* * *

كان صديقي الكاتب البليغ والخطيب المصقع المرحوم (إسعاف النشاشيبي) نشر تباعاً في مجلة «الرسالة» المصرية جملة محترمة من النوادر العربية الرائعة ـ ما بين نثر وشعر ـ اسماها: «نُقْل الحبيب»[1] فجاريته في هذا المضمار واهديت اليه فصولاً من نوع ملتقطاته كانت ظهرت

(١) النقل - في اللغة ما يتفكه به الشارب عند الشراب مثل الجوز والفزدق واللوز والبندق او من الكوامخ المملحة ، وقد اطلق صديقنا المرحوم اسعاف النشاشيبي معناها الى النوادر اللطيفة ،واشتق منها مفردا وهو (النقلة) للواحدة، وليست هي بمجمعية .

حينذاك في مجلة « الجامعة التونسية» بعنوان: «نقل الحبيب الى الاديب» حوَت جانباً من النوادر والملح مما كنت التقط من مصنفات قدماء الافريقيين خاصة ، فحظيت بالرضا والقبول من لدن المطالعين ، ولما احتجبت « الجامعة » عن البروز تعطل نشر ما بقي لدي من تلك النوادر والفكاهات .

والآن طلب مني بعض الاصدقآء الاوفيآء اعادة نشر تلك « النقل والزيادة لما تجمّع لدي منها لتكون عبرة للمتشوفين الى حكم الاسلاف وطرائف الاجداد الامجاد . فها انا اجيب المطلوب واوفي بالمرغوب . والى الله ارغب ان يوفق اعمالنا وينفع باقوالنا ، انه سميع مجيب.

ســـــانحــة

جرت عـادة المشتغلـين بتاريـخ التمـدن الاسلامي ـ في افريقيـة التونسيـة وفي غيرها من البـلاد ـ ان يبحثوا عن الحركات الاجتماعيـة والفكرية والاقتصادية من خلال المصادر الاخبارية الواصلة الينا،وعدد هذه الدواوين التاريخية ليس بالقليل ، إذ وجد في كل عصر من اعتنى بأحداث مدته ، وتقييد اعمال الامرآء والملوك ، وضبط سِنيها ، إرشاداً للاجيال الآتية ، وتخليداً لذكر مشاهير الرجال النابغين .

فإذا ما تعلّقت همة بعض أبنآء الزمان الحاضر بالتنقيب عن شيء من مظاهر الحضارة الاسلامية الماضية ، وحاول ادراك مدى تاثيرها في المجتمع ، رجع ـ بطبيعة الامر ـ الى تلك الاصول التاريخية،وفي نظرنا ان المراجع القديمة تتجزأ الى قسمين عظيميْن :

فاول المصادر ـ دواوين أخبــار تسرد علينا الحوادث السياسيـة الحاصلة فى البلاد كصدى الحروب والثورات ، واعتلاء المتغلبين على ارائك العروش،واستقلالهم بالحكم المطلق،والظروف التي ساعدتهم على الوصول الى ذلك ، وما قام به اولئك المتغلبين من قمع ثائر على سلطانهم او خارج عن حكمهم ، أو وصف بعض المنشآت العمرانية التي احدثوها

في البلاد ـ وهذه الطريقة تنحصر فيا نسميه (بتاريخ الدول) ـ ومن الواضح ان هذا المنهج يبعد عن افادتنا بما من شانه ان يرشد الى حيـاة الشعب وميوله ورغباته ، وعن نظام المجتمع والتقاليد الخاصة به .

وثانى المصادر ـ هي كتب الطبقات وتراجم الرجال ، وهذه المادة . وان كانت في الظـاهر أوسع دائرة من القسم الاول من ناحيـة البحث الاجتـماعي ـ الاَّ انها مقصورة على حيـاة اشخاص معينـين او رجال اشتهروا من بـين الفقهآء والعباد ، والنسـاك ، والصلحـآء ، وهم في الحقيقة طبقة خاصة من طبقات الامة وفيئة معيّنة من المجتمع،وليست هي كل الامة ، وقد شآء مترجموهم ان يظهروا فى مناقبهم تجرّدهم عن الدنيا فوصفوا لنا زهدهم وتخليهم عن الحياة وزخرفها

وقد الـتزم اصحاب طبقات الصالحـين الانكار على كل ما يُذكَر بالرفاهية والتمتع بالطيبات من الرزق،فحادوا عن تشخيص الحياة الواقعية كما هي جارية في كل امة؛وسيرة افراد الشعب في مساعيهم ورغائبهم مغائر لذلك،ولا يمكن ان يحيى كل النـاس على نسق واحد ، وفكرة واحدة ونظام واحد حينما يوجد من بينهم الصالح والطالح ، والعاقل والغافل ، والعالم والجاهل ، والحـاكم وصاحب الحرفـة ، ولكل من هؤلاء طبائع غريزية ، واخلاق موروثة او مكتسبة ، فلكل منهم وجهة هو موليها.

ساقتنى هذه الاسباب الى بحث طويل عن خصائص التمدن الاسلامي التونسي من خلال المواعظ ، والنوادر ، والملح ووصف مجالس الانس التي التقطها من هنا وهناك ليكون الواحاً تصويرية تشخص - في أحسن مثال - مناهج الحكمة والادب والفكاهة سوآء أكان ذلك في الطبقة الارسطقراتية او في الاوساط الشعبية .

وقد قسّمت هذه المقتطفات الى «مواعظ» تجيء في طالع الفصل، ثم تاتي بعدها « النوادر » التي ترشد الى التربية الاخلاقية ، وتختم هذه الصور «بالملح والفكاهات» والمرح الذي طبع عليه الانسان في جِبِلّته، ويرتبط باصل خلقته وفطرته - سنّة الله التي خلت في عباده

بَابُ المَوَاعظ

ما انتهى شيء الا رجع

المـــالكي :

لما عاد القائد موسى بن نُصيْر من فتح الاندلس ، اقام اياماً بالقيروان للاستراحة مع وجوه جنوده،ودخل عليه اعيان البلد لتهنيته بانتصاره العظيم ، وكان من جملة الداخلين عليه : علي بن رَبَاح [1] .

فقال موسى بن نصير في ذلك المجلس :

«ورد عليّ اليوم بشائر ثلاث: منها كتاب امير المؤمنين - وامر بقرآءته. ومنها كتاب ولدي عبد الله يخبرني بفتح كبير بالاندلس - وامر كاتبه فقراه - ومنها ما صحبنى من الاموال والغنائم في مقدمي هذا .

---

(١) علي بن رباح بن اللخمي من وجوه التابعين الفاتحين لافريقية ومن العلماء العاملين يروي عن جماعة من الصحابة كعمرو بن العاص وابي هريرة وعائشة ام المؤمنين : قدم غازيا واستقر بالقيروان واختط بها دارا ومسجدا وانتفع به وتفقه على يديه اهل القيروان وكانت وفاته بها ١١٤ هـ (٧٣٢)

فهناه جميع من حضر ، وعلي بن رباح ساكت ، فالتفت اليه موسى وقال : ـ الا تتكلم ؟ فقال : ـ ايها الامير ، ما من دار امتلات حبرة[١] الا امتلات عبرة ،ولا انتهى شيء الا رجع ، فارجع قبل ان يرجع بك!»

فنكس موسى بن نصير رأسه ولم ينبسْ ببنت شفة .

* * *

تجارة رابحة

المــالكي :

كان بالقيروان رجل خياط له بنات ، وكان ليس يقوم به عمله الا عن جهد شديد ، فلما كان ليلة عيد الفطر دخل على بناته فوجدهن فى الظلام،وليس في البيت شيء يردّيده اليه،فخرج من بيته هائما حزيناً، وشق عليه ان يرى بناته منكسرات القلوب بين اترابهن من بنات الجيران اللا تي يلبسن يوم العيد الثياب الحسان والزينة ، لما عند آبائهن من كفاية العيش ، فسولت له نفسه الخروج من القيروان حتى ينقضي

(١) الحبرة في اللغة : النعمة التامة .

العيد ، فمر بمسجد (اسماعيل تاجر الله) [١] وقد حضرت صلاة العشآء الاخيرة ، فصلى معه ، فلما انصرف الناس ولم يبق في المسجد الاّ الرجل ، رآه اسماعيل وعلم ان له قصّة ، فمضى الشيخ الى داره وبعث وراءه فادخله وساله عن قصته فذكرها الخياط له ، فتوجع اسماعيل لذلك وبكى وقال له : ـ كم عندك من البنات ؟ فقال : خَمْسٌ. فصاح اسماعيل لامهات اولاده وقال لهن: «ايتينني بحلي بناتكن وما صنعتن لهن في هذا العيد من الثياب والزينة ، فأتته بجميع ذلك ، فقال لهن : . ايتينني بمائدة العيد ، فاتينه بها وفيها انواع الاطعمة واصناف الحلوى . ثم قال لهن : ـ ايتينني بما عندكن من الطيب والحِنّاء ـ فدفع جميع ذلك الى الخياط ، ودفع اليه دنانير كثيرة ، وقال له : اكسِ بناتك من هذه الثياب والحلي ، وطيبهن بهذا الطيب، وكلْ معهن من المائدة، واوسع على نفسك وعليهن بهذه الدنانير ، ثم ان اسماعيل امر عبيده فحملوا

(١) اسماعيل بن عبيد الانصاري ، ويعرف (بتاجر الله) اشتهر بهذا اللقب لانه جعل ثلث كسبه لله عز وجل يصرفه في وجوه البر من اعانة المعوزين وجبر حال الفقرآء ، وهو من وجوه التابعين استوطن القيروان وانتفع به خلق كثير من اهلها، وبنى بها مسجدا كبيرا يعرف الان (بجامع الزيتونة) ولم يزل مقيما بافريقية الى ان حضرته نية في الجهاد فخرج متطوعا الغزو صقلية فغرق في البحر فمات سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥)

ذلك الى دار الخياط ، فضرب عليهن ففتحن الباب ،فوجدهن على حالهن فادخل العبيد جميع ما معهم الى داره وذهبوا ـ ففرح بناته بذلك فرحاً شديداً، وكان في داره سرور كبير ، ولبس بناته الحلي النفيس والثياب الجميلة ، واجتمعن حول المائدة ، ووسَّع عليهن في النفقة

* * *

يجلب الى السوق ما ينفق فيها

أبو العرب :

حدث عبد الله بن الوليد ، قال : ان عبد الرحمن بن زياد بن انعم[1] خرج في وَفْـدِ اهل القيروان للشكاية مما نال افريقية من مظالم الولاة ، فدخل يوماً على الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي ، فقال له :

ـ يا ابن انعم ، ألا تحمد الله ربك الذي أراحك مما كنت ترى بباب هِشَام وذوي هشام من بني امية ؟

(١) عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري من قدماء علماء القيروان سمع من جلة التابعين وتولى قضاء افريقية مرتين وكان زاول العلوم بالكوفة والبصرة صحبة ابي جعفر المنصور الذي تولى الخلافة بعده وكان عبد الرحمن أسره الروم في البحر ففداه المنصور وله اخبار مشهورة مدونة وتوفي سنة ١٦١هـ (٧٧٨م)

فاجابه عبد الرحمن : ـ ما أمر كنت أراه بباب هشام الا ارى اليوم منه طرفاً ، رايت ظلماً فاحشاً وامراً قبيحا

فقال المنصور : ـ لعله فيما بَعُدَ من بابي ؟

فقال له عبد الرحمن : ـ بل كلّما قربت من بابك استفحل الامر وغلظ

فقال المنصور : فما منعك ان ترفع ذلك الينا ، وانت تعلم ان قولك عندنا مقبول ؟

فقال عبد الرحمن : ـ انى رايت السلطان سوقاً ، وانما يُرْفَع الى كل سوق ما يروج فيها .

* * *

الهداية والامانة

أبو العرب (طبقات)

حكى ابو عثمان المعافري ، قال : « كنت يوماً عند عبد الرحمن بن زياد القاضي حتى اتاه شاب ومعه مخلاة بصل ، فقال لمن كان بحضرته من الاعوان : ـ قُلْ لهم ـ يعني أهله ـ يبعثوا الينا بشيء من البصل مع الفول الذي كنتم طبختموه البارحة ـ فبعثوا اليه بذلك ، فقال لي :

يا ابا عثمان ، كُلْ معنا - فقلت له : - لا - فقال لي : وَلِمَ ، يا ابا عثمان اظننت ظناً ؟ - فقلت : نعم ! - فقال - « أحسنت يا ابا عثمان ، إذَا رايت الهدية دخلت دار القاضي من باب الدار ، فاعلم ان الامانة قد خرجت من الكُوَّة (١) ، وليس هذا هدية ، انما هو أتاني به تابعي من ضيعتي . »

* * *

قاضي الحق

الخشني :

كان أبو كريب(٢) ربما أُبْصِرَ في مجلس قضاه بالمسجد الجامع وحده ، فقيل له : - أتقعد وحدك ؟ لو انصرفت الى منزلك ؟ - فيقول : ومن لي بالملهوف اذا قصد اليّ ولم يجدني ؟

وكان اذا عاد الى منزله واضطجع للنوم فربما تبين له وجه الحكم في قضية عرضت عليه في النهار ، فينهض من فراشه وياتي ليلا دار من

(١) الكوة : فتحة تكون فوق الباب او بجنبه تسمح بدخول الضوء والنور الى المحل

(٢) ابو كريب عبد الرحمن بن كريب المعافري ، رجل صالح مامون من اهل مدينة تونس مشهور بالعلم والتقوى ، يروي عن جماعة من التابعين وعنه اخذ كثير من الناس وتولى قضاء الجماعة بالقيروان بالحاح من الامير ومات شهيدا في سنة ١٣٩ (٧٥٦ م)

ثبت الحق له ، فيقرع عليه بابه ويستخرجه ويامره بان يُحْضِرَ له صالح جيرانه ليشهدهم له ، فيقول له صاحب الحق : لو تركت هذا الى غدٍ - فيقول أبو كريب : - فإن متُّ أنا في ليلتي هذه ، أما اكون انا الذي اتلف عليك حقك ؟ »

* * *

امانة الصحبة

قال عبد الملك بن ابي كريمة : (١)

« صاحبت خالد بن أبي عمران (٢) وانا صغير ، فمشيت خلفه بقرطاجنة فسكت وسكتُّ ، ثم التفت اليّ وقال :

- يا بني ! ان الصحبة لها امانة ولها خيانة ، واني اذكر الله في السر فاذكر الله بصدق

(١) عبد الملك بن ابي كريمة من ابناء مدينة تونس وكبار محدثيها ، وهو من شيوخ اسد بن الفرات وسحنون وتوفي سنة ٢١٠ (٨٢٥)

(٢) خالد بن ابي عمران زيد التونسي ، من جلة رواة الحديث وحملته في افريقية التونسية ، تولى قضاء مدينة تونس في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٣ - وتوفي عام ١٢٩ (٧٤٧)

انت حرة !

المـالكي :

كانت لِرَباح بن يزيد[١] جارية سوداء تخدمه ، فذهبت مرة تستسقي له ماء فابطات ، فقام رباح في طلبها ، فوجدها وضعت جرتها الى جنبها وهي نائمة ، فاخذ رباح كِسآءه ووضعه برفق تحت راسها وقد استثقلت نوماً ، وانطلق رباح بالجرة الى بيته ثم عاد وجلس قريباً من السوداء ينتظر ان تهبّ من نومها ، فانتبهت الخادم ولم تر الجرة ورأت رباحاً جالساً ، فارتاعت خوفاً منه ، فجعل يقول لها : « انت حرة ! انت حرة ! » لتامن عن نفسها بعتقها .

* * *

اتقاء منصب القضاء

المـالكي :

كان عبدالله بن فرّوخ[٢] من اشد الناس كراهة لمنصب القضاء ، وكان يقول :

(١) رباح بن يزيد اللخمي من جلة علماء القيروان سمع بالمشرق من الاوزاعي وسفيان الثوري وغيرهما وتوفي سنة ١٧٢ (٧٨٨ م) ودفن بباب سلم من القيروان

(٢) عبد الله بن فروخ الفارسي الاصل، مولده سنة ١١٥ هـ (٧٣٣) وقرأ على الامامين مالك بن انس بالمدينة وعلى ابي حنيفة النعمان في بغداد وعاد الى سكنى بلده القيروان فبث فيه علماً كثيراً ، واخذ عليه جماعة كبيرة الحديث والفقه وهو اول من نشر آراء اهل العراق — اي المذهب الحنفي في افريقية ، وكان عالما فاضلا صالحا قليل الهيبة للملوك في حق يقوله ، وكانت وفاته بمصر عند رجوعه من الحج ودفن بسفح جبل المقطم سنة ١٧٦ هـ (٧٩١م)

« سالتُ الامام أبا حنيفة في بغداد حين قراءتي عليه :

ـ ما منعك أن تَلِيَ القضآء ؟

فقال لي ـ : يا ابن فروخ ، القضاء على ثلاثة أوجه : مثل رجل يحسن العوم فاخذ البحر طولاً ، فما عسى أن يعوم ، يوشك أن يكلّ فيغرق ،

ورجل لا باس بعومه ، عام يسيراً وغرق

ورجل لا يحسن العوم ، القى نفسه في البحر فغرق من ساعته ، فهذا الذي منعني من القضاء والدخول فيه

الرفق بالحيوان

المالكي :

خرج عبد الله بن فرُّوخ يوماً يصلّي على جنـازة في مقبرة باب نافع من القيروان ، فرأى اسحاق بن الامير يزيد بن حاتم وقد أغْرَى كلاباً كانت معه على ظبي ليضربها به ، فنهشت الكلاب الظبي ومزّقت جلده ، فلما انصرف ابن فرّوخ من الجنازة لقي اسحاق بن يزيد الذي كانت كلابه معه ، فاستوقفه ابن فرّوخ ، فوقف له اسحاق فما كنّاه ابن فرّوخ ولا زاده على ان قال له : ـ « يا فتى ، اني رأيتك آنفاً

تغري كلابك بشيء من البهائم ، وما أحبُّ لك ذلك ، لانَّ النبيء ﷺ نهى أشدَّ النهي عن ذلك » ـ فقبل منه اسحاق وقال له ـ : « صدقت يا أبا محمد ،جزاك الله خيراً » مُكَنِّيًّاله ومعظما ، ثم قال الفتى : « والله لا فعلتُ ذلك بعدها أبداً ! » ثم مضى لوجهه .

* * *

دم البراغيث

أرسل يزيد بن حاتم ـ أمير افريقية ـ الى عبد الله بن فرّوخ يسأله عن دَمِ البراغيث فى الثوب ، هل تجوز الصلاة به ؟ ـ فقال : « ما أرى به بأساً » وقال لاصحابه بحضرة الرسول : « يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تُسْفك ! »

* * *

غرائب الاتفاق

المـــالكي :

حدّث أبو زكرياء القصير عن عبد الله بن فَروخ ، قال : « سافرتُ من افريقية الى الحجاز ، ومنه أتيتُ الكوفة ، وأكبر أملي سماع الحديث من سليمان بن مَهْرَان الاعمش ، فسألت عنه ، فقيل لي : انه

غضب على طلّاب الحديث ، فحلف انه لا يسمعهم الى وقتٍ ذكروه ، فكنتُ اختلفُ الى داره طمعاً أن أصل اليه . فلم أقـــدر على ذلك ، فجلست يوماً على بابه وأنا مفكّر في غربتي وما حُرمته من السماع منه ، الى ان انفتح الباب ، وخرجت جارية فقالت : « ما بالك على بابنا ؟ ـ فقلت : ـ أنا رجل غريب ، وأعلمتهـــا بخبري وبرغبتي ـ فقالت : ـ وأين بلدك ؟ ـ فقلت : افريقية ـ فانشرحت وقالت : ـ أتعرف القيروان ؟ ـ قلت : ـ ومن أهلها أنا ـ قالت : ـ لعلك تعرف دار ابن فرّوخ ؟ ـ ثم تأملتني وقالت : ـ عبد الله ؟ ـ قلت : نعم ! فاذا هي جارية كانت ببلدنا ، واظنه قال : « كنت رضيعاً لها فبعناها وهي صغيرة ، فصارت الى الاعمش ـ فدخلتْ الى سيّدهـــا وقالت له : ـ ابن مولاي الذي كنتُ أُخبرك بخبره بالباب ـ فأمرها بادخالي ، وأسكنني في بيت قبالته ، فكنت أسمع منه وحدي ، وقد حُرم سائر الناس ، الى ان قضيتُ أربي منه » .

* * *

الارش أم الحديث

المـــالكي :

روى عبد الله بن فرّوخ الحديث عن الامام أبي حنيفة في بغداد وكتب عنه مسائل كثيرة في الفقه غير مدوّنة ، يذكر انها نحو العشرة

الآف مسالة . وقال : « كنتُ يوماً عند أبي حنيفة فسقطت آجرّة من أعلى داره على رأسي فأدمته ، فقال لي : « اختر : ان شئتَ أرْش الجُرْح [1] وان شئت ثلاثمائة حديث » فقلت له : « الحديث ـ أصلحك الله ـ خير لي » فحدثني بها قبل رجوعي .

* * *

تزكية شهادة

المدارك لعياض

مرّ رجل يوماً بالبهلول بن راشد [2] فقال له : ـ يا مُرَائي ! ـ فقال له البهلول : ـ أخبرتها بذلك ـ يعني نفسهِ ـ فابت عليّ ولم تقبله مني ، فاجتمع عليها الآن شهادتك وعلمي بها ، فشهادة الاثنين خير من شهادة واحد »

* * *

(١) الارش : الشجة ونحوها – ودية الجراحة – وجمعه : أروش

(٢) أبو عمر البهلول بن راشد ، من كبار زهاد القيروان وعبادها ، سمع بالمدينة من مالك بن أنس وعليه اعتماده ، ومن الليث بن سعد بمصر وغيره ، ومولده سنة ١٢٨ (٧٤٥) . وتوفي سنة ١٨٣ (٧٩٩) وقبره مشهور

الجبر على التواضع

أبو العرب :

أخبر أبو عثمان بن الحداد ، قال : حدثنا بعض مشائخنا ، قال : جاز رَبَاح بن يزيد الزاهد [1] بعبد الله بن غانم [2] وبيد رباح قسط زيت ، فقام ابن غانم وقال له : ـ أحمل القسط لك ، يا أبا يزيد ؟ ـ قال : ـ شانك. وابن غانم إذ ذاك على القضاء بالقيروان ،فدفع اليه قسط الزيت وجعل رَبَاح بن يزيد يشقّ به مجامع الناس ، فسلك به على الاسواق وحوانيت البزّازين حتى انتهى الى داره ، فلما وصلها قال رباح : أتعلم لِمَ فعلت ذلك ؟ فقال له ابن غانم : لا ـ فقال له رباح : ـ بلغني أنك تجد في نفسك [3] فاحببت أن أضع منك ـ فقال ابن غانم : جزاك الله ـ يا أبا يزيد عني خيراً.

(١) رباح بن يزيد من رواة الحديث بالقيروان ، اشتهر بالفضل والزهد وكان يضرب به المثل في العبادة وكثرة الاشفاق بالضعفاء والتواضع ـ توفي سنة ١٧٢ هـ

(٢) عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ـ مولده سنة ١٢٨ بالقيروان . ورحل في طلب العلم الى المشرق فأخذ عن مالك بن انس مباشرة ، كما روى عن سفيان الثوري ، وعن ابي يوسف صاحب ابي حنيفة ، وتولى قضاء الجماعة بالقيروان ، وبها كانت وفاته سنة ١٩٠ هـ وصلى عليه الامير ابراهيم بن الاغلب وكان يجله ويعظمه .

(٣) قوله : تجد في نفسك ، أي لك شيء من الاعجاب بنفسك .

صبرت فظفرت

رياض النفوس

ذكر حمدون النحوي المعروف بالخِرْنَق ، قال : « كنتُ مع عبد الخالق القتّات [1] ذات يوم نحو باب سَلَم بالقيروان إذ أبصر جماعة من الناس ، فسألني عن شأنهم ، فقلت : « قعدوا يشرفون على خيْل تستبق » فقال لي : « محضر صالح » ثم توجه وتوجهتُ معه الى تلك الجماعة ، فجلسنا حتى أقبلت الخيْل وقد تقدمها فارسان وأحدهما يقدم صاحبه ، فلم يزل الذي كان صاحبه متأخراً يحثّ فرسه حتى حاذى صاحبه وسبقه فأخذ مالكه قَصَبَاتِ السبق ، فجعل عبد الخالق يتخلّل الناس حتى انتهى الى الفرس السابق جَعل يقبّل جحفلته [2] ويقول : ـ « بارك الله فيك ! صبرت فظفرت ! » ثم التفت عبد الخالق اليّ وقال : ـ اني لما رأيت الفرس الذي من خلف صار أمام الذي كان أمامه واخذ قَصَبَة السبق ذكرتُ تقدم قوم كان من خلفهم هو المقدم ، وصاروا هم خلفه. »

* * *

(١) عبد الخالق المشهور بالقتات ، ابو خالد ، من صلحاء القيروان وزهادها ، توفي بها سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥)

(٢) جحفلة الخيل افواهها وما تناول به العلف

من سار على الدرب وصل

المـــالكي :

كان أبو الاحوص احمد بن عبد الله من العباد الصالحين ، قدم مدينة سوسة بنية المرابطة بقصرها الكبير ، فاقام بها مدة حتى نفدت نفقته ، فعزم على الرجوع الى بلده بالمغرب، فاتى الى جامعها ليركع فيه وينصرف فبينما هو راكع إذ رأى عصفوراً دخل الجامع وفي منقاره شيء يطعمه فِرَاخه ، فسقط من منقار العصفور ما كان فيه ، وخرج من خلف الحصير فأرٌ ، فاكل ما سقط من فم العصفور ، فخاطب أبو الأحوص نفسه قائلا لها : « إن كان فأر ، خلف الحصير قيض الله له من يرزقه كما قد رأيت ولم يضيعه ، فكيف أضيع أنا ؟ .... لله عليّ ان لا أدَعُ مدينة الرباط الى غيرها أبداً » فاقام بسوسة واشتهر بها حتى مات، رحمه الله [1]

* * *

براءتي عندك

المالكي :

كان ابراهيم بن الاغلب الاكبر [2] ، يصلّي بالجامع المكتوبات كلّها ،

(١) وكانت وفاته في سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م) راجع ترجمته في صحيفة ١٣٧ من هذا

(٢) ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي ، مؤسس الاسرة الاغلبية ، كان عالما شاعرا خطيبا مصقعا قرأ على الامام الليث بن سعد بمصر ، وتولى امارة افريقية بعهد من هارون الرشيد ولم يل البلاد احسن سيرة ولا اراف بالرعية منه وتمهدت البلاد في ايامه ، وتوفي سنة ١٩٦هـ(٨١٢م) وعمره ٥٦ عاما .

فخرج ليلة من الليالي من دار الامارة بالقيروان ـ وكانت ملاصقة لمسجد عقبة ـ فدخل الجامع لصلاة العشاء الاخيرة ، وكان مشغول القلب ، فعثر في حصير فسقط ، فلما صلى بالناس وانصرف الى منزله بعث في طلب قاضيه عبد الله بن غانم،فلما أتاه الرسول وقال له : ـ الامير يدعوك، تغيّر ابن غانم عند ذاك وقال : « في مثل هـذا الوقت يوجه ورائي ؟ » ولم يجد بداً من أن قام اليه ، فلما دخل عليه قال الامير : « يا أبا عبد الرحمن ، اني لم ابعث اليك الا لخير ، اني لما دخلت المسجد اشتغل قلبي عن حفظ نفسي ، فعثرتُ في حصير فسقطت ، فظننت بالناس انهم حسبوا اني منتبذ ، فاحببت ان تكون برآءتي عندك ، فاستنكهني » فاستنكهه القاضي ابن غانم فوجده بريئاً ، فشكر له ذلك »

وهذا غاية التحفظ والاحتياط من الامير

* * *

أدفع بالتي هي احسن

المالكي :

كان طريق زيد بن بشر[1] الى جامع الزيتونة بتونس على طريق

(١) زيد بن بشر ، أبو البشر الازدي ، من فضلاء الفقهآء المحدثين ،قدم من المشرق على افريقية في حدود سنة ٢٣٥ (٨٤٠) وكان ثقة مأمونا ، ذا عقل وادب وصيانة ، واستوطن مدينة تونس وبها توفي في القرن الثالث للهجرة

سوق الخرّازين[1] فاقبل يوماً يريد الجامع وحوله الطلبة الذين يحضرون دروسه في الحديث والفقه، فاذا بشاب خرّاز يقول لجاره : ـ ما رأيتُ أوحش من هذا الشيخ ولا أوحش من لباسه ! »

وكان زيد يلبس المُفَرّج[2] فلما سمع زيد ذلك نكس رأسه وتمادى مع طلبته الى الجامع ، فلما انصرف من تدريسه عاوده الشاب الخراز بقبيح اللفظ ، فمر زيد ولم يلتفت اليه ، فاتفق طلبة زيد على انهم يضربون الشاب الوقيح ، فلما بلغ ذلك زيداً قال لطلبته : « ما هذا الذي أردتم ؟ وما بلغني انكم تنفستم به في شأن الشاب ؟ » فقالوا « هو ما قيل لك ـ أصلحك الله ـ لاستخفافه بحقك وامتهانه لقدرك وعلمك »ـ فقال لهم : « أعطي الله عهداً إن تقدم اليه أحد منكم الا بالتي هي أحسن ما وَطِيَ لي بساطاً ، أنا أصلح شأن هذا الشاب »

فصرّ زيد صُرّة فيها عشرة دراهم وجعلها في جبته ، واستعمل لفردة نعل من نعليْه قبالاً واهِياً ، ثم توجه الى الجامع ، فلما مرّ بالشاب عاود اللفظ القبيح حسب عادته ، فلما حاذاه اتكأ على القِبال فقطعه ، ثم مال الى الشاب فسلم عليه وقال له : « يا بني ، لعلّ عندك قبالا ؟ » فاعطاه الشاب قبالا ، فدفع اليه زيد الصرة ، فقال له الشاب : « ما هذه

(١) يظهر ان سوق الخرازين هو (سوق البلغة) القريب من جامع الزيتونة

(٢) الثوب المفرج هو المفتوح من امام ، مثل القفطان المشرقي

الصرة ؟ » فقال : « انك صنعت لي هذا القِبال فهي مكافأة لك عليه »
وانصرف مع الطلبة الى الجامع ، فلما انصرف من الزيتونة وقرب من
حانوت الشاب قام الشاب على قدميه وقال باعلى صوته : « الحمد لله الذي
اختص بلدنا بهـذا الشيخ الفاضل ، اللهم أبقه لنا واحرزه للمسلمين ،
فلقد انتفع به شبابنا ، وحظى به شيوخنا ، ليت في بلدنا آخر مثله . »
استعمل زيد ـ رحمه الله تعالى ـ أدب ما انزل عزّ وجل في كتابه :
(ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كانه وليّ حميم)

★ ★ ★

ايثار الغني على الفقير

قال أبو السرى واصل بن عبد الله المتعبد (٢) :
« كنت مرة بالساحل ، فبينما أمشي في آخر النهار إذ عرضت لي
طريقان، أحدهما تنتهي الى قرية رجل فقير ، والاخرى تنتهي الى قرية
رجل صالح غني ، وهما جميعاً صديقان ، فوقفت ساعة أتدبّر لمن

---

(١) القبال : زمام النعل ، وهو السير الذي يكون بين اصبعي الرجل

(٢) ابو السرى واصل بن عبد الله اللخمي ، من الزهاد المرابطين كان يسكن بقصر الرباط بالمنستير ، وله مناقب كثيرة تدل على شفقته بالفقراء والمساكين توفي بالمنستير سنة ٢٥٢ (٨٦٦) ودفن تحت الرباط

أقصد منهما ، فقالت لي نفسي : « إن قصدت الفقير فعسى لا تجد عنده
ما يتعشى به عياله وأطفاله ، وان كان عندهم ما يتعشون به فانت تضيق
عليهم في عيْشهم وتشق عليهم وان لم يظهر لك ذلك ، وإن قصدت الغني
وجدت عنده خبزاً طيباً من القمح من حرثه في أرضه التي ورثها عن
ابيه وجدّه ، وتجد عنده زيْتاً طيباً وتيناً فاخراً ، وعسى ان يذبح لك
خروفاً ، من غنمه ، وهي ترعى أراضيه وزيتونه ، فتسرّه ولا تدخل
عليه بضرّة وتجد بغيتك وتأكل شهوته .

فخطوت في الطريق ثلاث خطوات ثم استيقظت من نومة الجهل
والهوى ، فقصدت الطريق الى قرية الفقير ، فاجتمعت به ، فرحّب بي
وفرح ، وأنزلني عنده ، فلما حضر العشآء ضرب علينا انسان الباب ،
فخرج اليه صاحب الدار ، فدخل رجل وعلى يده صَحفَة كبيرة فيها
ثريد بخبز القمح ، وعليها لحم خروف سمين ، فقال لي : كُلْ ، أيدك
الله ـ فأكلنا حتى شبعنا ، وحمل الفضلة الى عياله ـ ثم ضرب الباب مرة
أخرى، فاتى بطبق في وسطه صحفة فيها زيت فاخر وحولها تين فاخر ،
فقال لي : ـ كل ، يرحمك الله ـ فأكلت حتى بلغت أمنيتي من ذلك ، فقلت
لصاحب الدار : ـ من أين هذا ؟ فانا أعرف ان هذا ليس من مقدرتك ـ
فقال : ـ صدقت ، ولكن أتاني من عند جاري ـ فقلت له : ـ صحّ به ـ

فاتاني الجار ـ فقلت له : « من عندك هذا الطعام ؟ » فقال : ـ نعم ـ فقلت : « أكنت منا على وعد ؟ فقال : ـ لا ـ لكن عندنا خروف سمّناه ، فلما كان في هذا اليوم حلاً لقلوبنا ذبحه ، فذبحناه وطبخناه وصنعنا له الخبز وبردناه ، فلما رأيت جارنا قد نزلتَ به ، وليس نعرفه ، وليس يستضيف به الاّ رجل صالح مثله ، واعرفُ ان ليس عنده طاقة ، فقلت للزوجة : « نحن نجد العوض عن هذا في غير هذا الوقت ، فهل لكِ ان نطعم ما هياناه من الطعام لجارنا وضيفه ، ونسالهما في دعوة صالحة ، فيحفظ الله علينا اولادنا ويبارك فيما اعطانا ؟ فساعفتني على ذلك ، فاخذت الصحفة على المائدة ، واتيت بها اليكم ، ثم قالت لي زوجتي : « لا بدّ من حلاوة تكون بعد الثريد ـ فاعطتني هذا التين وهذا الزيت . »

قال الراوي : « لما آثر واصل بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ الفقير على الغني ، اعطاه الله عزّ وجلّ جميع ما اشتهى ان ياكله عند الغني من غير سؤال ولا استشراف ـ وهذا كلّه من ميراث الصدق .

★ ★ ★

يا شاب ! يا شاب !

المالكي :

خرج عبد الجبار بن خالد من داره يوم الجمعة يريد الجامع بالقيروان

للصلاة ، فإذا شاب جميل الصورة له هيئة حسنة ، ولباس رفيع قد اتبع صبيّةً يمشي خلفها ، فلما رآه عبد الجبار شقّ عليه ذلك ، فاتكا برجله على رجله الاخرى وقطع شسع نعله ، ثم صاح : « يا شاب ! يا شاب ! » فالتفت الفتى اليه ، فمشى عبد الجبار اليه ، فوقف الشاب فقال له عبد الجبار : « قد كبُرت سني وضعف بصري ، وقد انقطع شسْع نعلي ، فاصلحه لي » فأصلحه له ، فنظر عبد الجبار الصبية وقد أمسكت في مشيتها ، فاخذ النعل من الشاب وادخله في رجله ، وتمادى الشاب في أثر الصبية ، واتكأ عبد الجبار على نعله ثانية فقطعه ، فصاح : « يا شاب يا شاب ! » وكانت لعبد الجبار هيئة عظيمة ، فعاد اليه الشاب ، فقال له : « اصلح النعل ، يا مبارك ، ما اصلحته إصلاحاً جيداً ، اظنك اصلحته وانت مستعجل ؟ » فاخذه الفتى واصلحه ، فعطف عليه عبد الجبار وقال : « يا شاب ! أنا قطعت النعلَ في المرة الاولى والثانية ، وانما فعلت ذلك إشفاقاً عليك ورحمة ، وبكى عبد الجبار وبكى الشاب وقال : «جزاك الله خيراً ، فوالله لاعدت الى ما كان مني ابداً » ثم انه صحب عبد الجبار الى الجامع وحسُنتْ توبته وإناباته »

---

(١) ابو الاحوص عبد الجبار بن خالد السرتي ، من عقلاء شيوخ القيروان ومن اعيان تلاميذ سحنون توفي سنة ٢٨١هـ . وهو ابن ٨٧ عاما ، ودفن بباب سلم

ومن الحِكم المأثورة عن عبد الجبار بن خالد انه كان يقول : « كلّ كلمة لم يتقدمها نظر ، فالكلام فيها خطر ، وان كانت من اسباب الظفر »

★ ★ ★

الخروف المعلوف

رُويَ ان العالم الورع عيسى بن مسكين[1] - بعد انفصاله عن القضاء العام بالقيروان - عاد الى قريته « مسجد عيسى » بالساحل ، وانه اشتهى يوماً لحماً ، فكلّف من يشتري له ذلك ، فلما اتى به اعجبه ، فقيل له : « هذا من المعلوف » - فابى عيسى ان يطعمه، وسئل عن ذلك ، فقال : ان « المعلوف » عندنا هو الذي يجني على زيتون الناس وعن زروعهم»

يقصد ان المعلوف من الغنم هو الذي يسمن من اكله زروع الفلاحين عند غيابهم ، ويتناول اغصان زياتينهم المتدلية من غير اذن اصحابها

ومن حِكَم عيسى بن مسكين في الوعظ والنصيحة :

« كفاك ادباً لنفسك ، ما كرهته لغيرك »

« من حصر شهوته ، صان قدره، ومن اطلق طرفه ، كثر اسفه »

« قارب الناس في عقولهم ، تسلم من غوائلهم »

---

(١) تقدمت ترجمة حياة عيسى بن مسكين في فصل « سوسة الاغلبية » فلتراجع في ص١٠٢ من هذا الجزء

من رحم يرحم

المالكي :

حكي محمد بن سلام قال :

كنتُ أمشي مع أبي [1] الى ان انتهينا الى « موقف الخيل » بالقيروان فبينما نحن نمشي إذ جذبني جذبة شديدة ثم دخل الى سقيفة هناك وادخلني معه ، فقلت لأبي : - ما القصة ؟ - فقال « يا بُنَي رأيتُ غريماً لي فخفتُ ان يراني فيرتاع مني ، وذكرت قول الله عزّ وجل (وَإِنْ كَانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةَ الى مَيْسرة) فقعدنا ساعة في السقيفة ثم خرجنا ، فلما مشينا قليلاً التفت اليَّ أبي وقال:

« يا بُنَي ، انه قد جاء في حديث النبي ﷺ (مَن رَحِمَ يُرحَم) .

★ ★ ★

---

(١) يقصد بأبيه : يحي بن سلام بن ابي ثعلبة التيمي ، من أبناء البصرة وبها ولد سنة ١٢٤ هـ . (٧٤٢) ولقي بالمشرق من المحدثين عدداً كبيراً فروى ما شاء ثم قدم القيروان في سبب التجارة وبث بين ابنائها علماً كثيراً ، وتوفي بمصر عند رجوعه من الحج سنة ٢٠٠ هـ . (٨١٥) ودفن في جبل المقطم ، وله تفسير للقرآن الكريم من اقدم التفاسير - اما ابنه محمد - الراوي لهذه الحكاية - فانه خلف اباه في رواية العلم والتفسير ، ودام العلم في بيت ابن سلام نحواً من مائتي عام .

تضييق الطريق

المالكي :

أراد رجل من القيروان ان يبني دكانة أمام داره ، فمنعه جاره ، فتداعيًا الى القاضي حِماس [1] وكان لا يعرفانه ، فسالا عنه ، فالفياه في الطريق وفي يده قُلّة ، وهما يسألان عن دار حماس القاضي ، فقال :

ــ ما تريدان ؟

قالا : ــ نتحاكم لديه في مسالة

قال : ــ تحاكما . . . وأخذ القُلّة ووضعها على رجله ولم يضعها بالارض .

فقال له المدعي : ــ أصاحك الله . . ولِمَا لم تضعها على الارض ؟

قال : ــ لانّ الارض مملوكة للمارّة فلا أضيّق عليهم

فقال المدعي : ــ يا سيدي ، يا سيدي ، قضيت الحاجة . وقال الرجل في نفسه : ــ اذا كان القاضي لم تسمح نفسه بوضع قُلّة في الطريق

(١) حماس بن مروان الهمداني ، احد ابناء القيروان وقضاتها العادلين ، توفي عام ٣٠٤ (٩١٦م) .

ثم يرفعها ، فكيف يحكم لي أنا بان أبني دكانة ؟ ـ وانصرف وقد رجع عما قصده .

* * *

الحمار النبيه

المالكي :

كان يزيد بن الطُّفَيْل قاضي القيروان يركب حماراً له من داره حتى يأتي المسجد الجامع ، فينزل عنه ويجلس في محل قضائه ، ويحلُّ الحمار ويأخذ لجامه فيتركه عنده ، فينطلق الحمار يريد دار يزيد بلا قائد ولا سائق ، فيقمّم في الازقة من حشيش وبَقْلٍ او ما اشبهه ، وهو مع ذلك يمشي حتى يأتي دار ابن الطفيل ، فيؤخذ ويدخل به الدار ، ويجلس ابن الطفيل في الجامع ، فربما يجلس فلا يأتيه أحد لقلة الخصومات في ذلك الزمان ، فاذا كان الوقت الذي يعلم أهله ان القاضي ينصرف فيه ، سرّحوا الحمار فيذهب حتى يأتي باب الجامع ، فيخرج القاضي فيركبه ويعود الى منزله .

(١) يزيد بن الطفيل التجيبي ، من علماء القيروان ، وتولى القضاء بها في خلافة بني امية ، وتوفي في اواسط القرن الثاني للهجرة .

تذكر أبناء الفقرآء

المالكي :

ختن الامير ابراهيم بن احمد الاغلبي اولاده ، فمضى أهل العلم من شيوخ القيروان لتهنيته في مدينة (رقّادة) وكان فيمن مضى اليه ; عبد الجبار بن خالد ، فلما أتى الى الامير أكبره وعظّمه وسرّ برؤيته ، وأخرج اليه أولاده فدعا لهم وبارك عليهم ، ثم قال :

ـ أيها الامير . هل علمتَ مقدار هذه النعمة التي أنعم الله تعالى عليك بها ؟ ـ فإنه أعطاك هؤلاء البنين ، وعلّمتهم كتاب الله وأحييت فيهم سنّة رسول الله ﷺ ، وقد بلغني انك أكثرت فيما عملتَ من الطعام ، ودعوتَ الى ذلك الاغنيآء والاعيان » فقال الامير : ـ أجل ! لموضع المسرّة بذلك » فقال له عبد الجبار : فلو استكملت هذه المسرة بأن تذكر الفقرآء فيها ؟ » فقال له : « صدقت وبررت » ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار ودفعه لعبد الجبار وسأله ان يفرّقها على الفقرآء والمساكين ، فأجابه عبد الجبار الى ذلك ، فسرّ الامير بفعله وشيعه الى باب القصر ، وقال لغلمانه : « احملوا الشيخ على دابته » وقال « والله ما برحتُ حتى تركب » فركب عبد الجبار والامير قائم ، فلما استوى على

مركوبه وأصلح الغلمان ثيابه وانصرف ، التفت الامير الى كاتبه رجآء ابن محمد وخاطبه : « يا رجآء ! أ رايت ما أعقله،وما أظرفه ؟ أتعرف في رعيتي مثله ؟ انه قضى ذمامنا ، وتعافى عن طعامنا، واخرج ما لنا فيما يرضي الله ويرضينا ! »

وتصدق عبد الجبار بجميع الدنانير على من يستحقها من المساكين .

* * *

القناعة غنى

المالكي :

قال ابو عثمان سعيد بن الحداد [١] : قدمت من طرابلس في سفرة كنتُ سافرت اليها في محمل ، ونحن في رِفقةٍ فيها سبعون جمل بزّ من شداد البصرة ،وجميع الرفقة من الجمال والاحمال والاعوان لرجل واحد هو في صحبتنا فيها يقال له (أبو عَوانة) يركب على حمار مسرج ، محزَّم الوسط بمنطقة ، وكان يستظل بظل محلى .

---

(١) ابو عثمان سعيد بن الحداد الغساني من فلاسفة القيروان ومشاهير متكلميها الفصحآء ; له مصنفات كثيرة جليلة ; مولده بالقيروان عام ٢١٩ هـ (٨٣٤) ووفاته في رجب ٣٠٢ (٩١٥) ودفن بباب سلم .

قال ابو عثمان : « قال لي ابو عوانة يوماً وهو تحت ظل محملي : « يا ابا عثمان ، ما يقول اصحابكم ـ اصحاب الحديث ـ في القناعة ؟ فقلت له من تلقائي : « القناعة غنى ، لانه من قنع على ما في يديه استغنى عما في يدي غيره ـ فقال لي : ـ لكن اصحابنا السوادين يقولون القناعة فقر ، لان من قنع لم يطلب ، ومن لم يطلب لا يكسب ، ومن لا يكسب فهو فقير ! »

قال ابو عثمان بن الحدّاد : ـ فسكتُّ عنه ولم اكلمه بشيء ، ثم انه نزل القيروان وكان له رَيْع بها ، فباع فُنْدُقاً في باب سَلَم ، وباع داراً له وغير ذلك ، ثم اشترى ثلاثين جَمَلًا حتى أ كملها مائة جمل باحمالها وأعوانها ، ثم توجه يريد بلاد السودان .

قال ابو عثمان : فانقطع خبره من الوقت الذي خرج فيه الى هذا الوقت ، فما أدري ما فعل الله به وبجميع ما معه .

قال : فذكرت خبره لبعض من يسافر الى تلك الجهة ، فاعلمني انه بَرَك في بعض الرمال فاسفت عليه الريح فدفنهم اجمعين .

قال ابو عثمان : فوقع في قلبي انه عوقب بما كلمني به في القناعة .

التوبة النصوح

كان أبو عِقَال غلبون في رقادة مشهوراً بين صغار الامرآء الاغالبة باللهو والخلاعة والمجون،وقد بلغ به الاستهتار انه كان يتنكّر فيتزىء بلباس النسآء ويندسّ من بينهن ، فيشاهد الاعراس والمآتم كسائر النسآء ، فحضر يوماً عرس بعض الامرآء على الهيئة المشار اليها ، وبعد حين من جلوسه ضاعت دُرّة نفيسة لبعض أهل الدار ، فامروا بغلق الابواب وأخذوا يفتشون النسآء الحاضرات الواحدة بعد الاخرى ، فكل إمرأة لا يجدوا عندها شيئاً اخرجوها .

حكى أبو عِقال عن نفسه ، قال : « تمادوا في التفتيش حتى لم يبق الاّ أنا وامرأة واحدة ، فصارت ترادفني وتريد ان تكون وراءي ، وأنا ادفعها اليهم الى ان أخذوها فوجدوا الدرّة عندها ، فقالوا لي : ـ انصرفي يا هذه المرأة » فما كنت اصدّق بنجاتي حتى وصلت الى بيتي ، فازلتُ عني الخُفّ والمعجر والردآء التي كانت عليَّ من زي النسآء ، ومن ذلك الحين عقدت النيّة على التوبة ، وأنبت الى الله . »

---

(١) غلبون بن غلبون ؛ ابو عقال ؛ من بيت الامارة الاغلبي ؛ وتربى في القصور في رفاهية عظيمة ! واجتهد والده في تعليمه حتى كبر ! وكان من اماجد الشعرآء ؛ وتوفي متعبداً في مكة سنة ٢٩١ (٩٠٤ م)

الحب القاتل

حكى ابراهيم الرقيق :

ان شاباً بالقيروان دعا بعض اصدقائه الى داره للشراب ، فلما كان بعض الليل ساله عن حاله ، وشكى اليه شغفه ببنت عمّـه ، وانه أرسل الى أبيها في زواجها فامتنع بها عليه لضعف حاله .

قـال صاحب الدار فآنسته بما استطعت ، فلما أخـذ الشراب منـه أخرج من نصفه سكين شَفْرَة فوجا بها لبَّته [1] وترامى ممـا كان يجد ، فلما رأى صاحب الدار حبيبه يتخبط في دمائه أيقن بالشرّ وحذر أن يؤخذ عنه . وكان حاكم القيروان لا يحجب عنه طارق ليل ، قـال : فسرت اليه ووصفتُ له ما جرى ؛ فقال : ـ قف بالباب وسال عن اسم البنت ونسبها وامر لي بالدخول اليه ودفع اليَّ رقعة فيها :

هاجتك عزّة شوقاً   وهيّجتك الشمول
وبعتَ نفسك بخساً   من مشترٍ لا يقيل
من قال ان قتيلا   في العالمين ذليل
سوى قتيل يديه   فباطل ما يقول

(١) لبته ـ اي عنقه

وقال لي الحاكم : ـ سِر الي منزلك ؛ فان وجدته ميّتاً فادفعه الى أهله يدفنونه ؛ وان عاش فأنا أجبر عمّه على زواجها منه ؛ قال الراوي: فلما عدت الى الدار وجدته ميتاً » .

اخشى ان يبتلي بها غيري

كان أبوبكر اللبّاد[1] متزوجاً امرأة سليطة تؤذيه كل يوم ويقاسي منها الشدائد ، فخاطبه ذات يوم طلبتُه وقالوا له : ـ طلّقها ونحن نزوّجك بخير منها ، وندفع عنك الصداق ـ قال لهم : ـ « انما ابقيتها من أجل أحسان والدها ، وذلك اني خطبتُ الى جماعة من الناس فردّوني كاسفاً وقالوا لي : ـ نحن لا نزوّج صاحب محبرة وقلم ـ

وكان ابو بكر فقير الحال،قال : « ثم خطبت الى أبي هذه فزوجني ابنته لله عزّ وجل ، وكان يفعل معي الجميل ويرفقني بما يقدر عليه ، أفتكون مكافاتي له طلاق ابنته ؟ ـ ثم اني أخشى إن طلقتها أن يبتَلَى بها غيري ، ولعلّ الله سبحانه يدفع عني بمقاساتها بلاءً عظيما » ثم يقول: ـ كل مؤمن له محنةٌ وهذه المرأة محنتي » .

(١) ابوبكر بن محمد بن اللباد، من علمآء القيروان وافاضل فقهائها المشهورين له مناقب جميلة وخصال حميدة ؛ وله تآليف جليلة . توفي سنة ٣٣٣ (٩٤٤) وهو من شيوخ عبد الله بن ابي زيد وغيره وقبره معروف بالقيروان .

رفع جاه الفقراء

أخبر أبو بكر الصِقلّي ، قال :

« كنت أخدم الشيخ أبا هارون الاندلسي ، فجئت معه يوماً الى حانوت حجّام عند المسجد الجامع بسوسة ليأخذ له من شعره ، فوجدنا الحجام يحلق رأس رجل ، فسلمنا وجلسنا ننتظر فراغه ، حتى أتى رجل من أهل الدنيا ، فسلّم وجلس فرد عليه الحجام وقال له : ـ « ارتفع يا سيدي » وأعظمه،فلما قام الرجل الذي بين يديه قال للرجل الدنياني: ـ « اعزم ، يا سيدي » وصبّ المآء على رأسه ولم يلتفت الى ابي هارون.

قال ابو بكر الصقلّي : فغضبت من فعل الحجام اذ لم يعط الشيخ ابا هارون حقّه ، لا سيما انه سبق ، فقلت للشيخ بيني وبينه : ـ قم بنا الى غيره ـ فقال لي : لا ـ فقلت له : « ألاّ تراه قدّم عليك رجلا من أهل الدنيا ، وانت سبقت ، ولم يعرف قدرك ؟ » فاشار الي ان اسكت ، فسكتُّ ولم اقدر أخالفه ، فلما فرغ من الرجل بلّ رأس الشيخ واجلسه بين يديه وحلق رأسه .

(١) ابو هارون الاندلسي من كبار العباد ، وكان مرابطا بسوسة توفي سنة ٢٩١ (٩٠٤ م)راجع تفصيل ترجمته في فصل « سوسة الاغلبية » المتقدم

قال ابو بكر : وحلقت رأسي بعده فلما فرغنا اخرج الشيخ هارون من جيبه خرقة حلّها واخرج منها دينارين ودفعها الى الحجام وخرجنا ، فبقي الحجام باهتاً ينظر اليه ، فلما خرجنا قلت للشيخ : ـ لِمَ فعلتَ هذا ـ أصلحك الله هـذا رجل لم يعرف قدرك ، وقدم عليك من سبقته انت دوننا،وحقرك فاعطيته دينارين ليس معك غيرهما ؟ ـ فقال لي : ـ انما أردت أن أقيم جاه الفقر والفقرآء عنده حتى لا يعود ابداً يقدم دُنيانياً[1] على فقير ولا يرى فقيراً الاّ نظر اليه بعيْن الاجلال !.... »

* * *

تواضع الصالحين

تولى الشيخ ميمون بن المعلوف [2] قضاء صقلية ، فخرج اليها في البحر وركب من مدينة سوسة ، فشيعه أعيان اهلها الى مرساها ، فخاطب من حضر منهم بقوله : « يا أهل سوسة ، هذا كسائي ، وهـذا

(١) قوله : دنيانيا ، يقصد رجلا غنيا ذا ثرى مادي

(١) ابو عمرو ميمون بن عمرو بن المعلوف من تلاميذ سحنون وتولى خطة المظالم في آخر مدة الاغالبة ، واشتهر بالعفاف والاستقامة وتوفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ودفن بمقبرة باب سلم .

فَرْوِي وجُبَّتي وخُرْجُ كُتبي ، وهذه السوداَء تخدمني ، ومعها جُبَّة وكساء ، بهذا فارقتكم وانظروا باي شيء أرجع »

واخبر سعيد بن عثمان من أهل صقلية ، قال : ـ ان القاضى لما وصل الينا قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها » ـ فقال : ـ هذه دار عظماء مالي حاجة بها ـ ونزل في دويرة لطيفة ، وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك، فاذا ضرب أحد من المتخاصمين الباب خرجت اليهم وقالت : ـ الساعة يخرج القاضي اليكم » .

وأقام الشيخ مدة طويلة بصقلية الى ان اعتلّ فأقام ثلاثة لم يخرج، فقرع ذات يوم بعض أصحاب القضايا الباب ، فخرجب اليهم السوداَء وقالت : ـ أدخلوا عودوا القاضي فانه مريض ـ فدخل عليه من دخل فاصابوا وِسَادتَيْن محشوتين بتبْن عند رأسه ، وحَصِير بَرْدِي[1] تحته .

قال الراوي : فلما رأى الشيخُ الزائرين بكى ثم قال :ـ «اللهم انك تعلم اني اجتهدت ما استطعت » ثم حمل من صقلية وهو مريض ، فقال

---

(١) البردي ـ ويسمى البربير ايضا ـ نبات مائي يشبه نخل الدوم الصغير كان يتخذ منه الحصر الرفيعة والحبال ـ كما كان يصنع من اغصانه ورق الكتابة المعروف بورق البردي وبالقراطيس المصرية ـ ويوجد بكثرة في مناقع الماء بصقلية (راجع الفصل المخصص للبردي والرق والكاغذ) في هذا الجزء .

لمن كان حاضراً من اهلها : « أخلف الله عليكم بعدي بخير منّي » ثم ركب البحر الى سوسة ، فلما وصلها تجمهر الناس للاقاته ، فقال لهم :

ـ يا أهل سوسة كما خرجنا من بينكم كذلك نرجع اليكم،هذا كسائي وجُبَّتي وخُرجي فيه كُتبي ، وهذه السوداَء التي تخدمني . »

ولم يقم في بلده القيروان الّا قليلا والتحق بجوار ربه ، رحمه الله تعالى .

★ ★ ★

ارم بها الارض

اللبيدي : (المناقب)

أخبر الثقة محمد بن سهلون قال :

« لما حججتُ أتيت معي بحصيات من حصباَء المسجد الحرام بمكة فقلت لابي اسحاق الجبنياني[1]

---

(١) ابو اسحاق ابراهيم بن احمد المشهور بالجبنياني ـ عالم ورع وصالح جليل القدر عرف بالنصح والعبادة ـ توفي سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠) وقبره في بلدة جبنيانة من مدائن الساحل التونسي بمقربة من صفاقس .

- اني أتيت معي بحصيات من المسجد الحرام،أتحبُّ ان أعطيك منها شيئاً تسبّح به ؟

فقال لي : – يا أحمق ، أرمْ بها الارض ، فعلى أقلّ من هذا عُبدت الحجارة !

* * *

شهادة أخرس

روى ابو عُبَيد البكري :

ان رجلاً شيخاً خرج مع إمرأته وكانت شابّة يريد قلعة حمّاد[1] فصحبه في بعض الطريق فتىً شابٌ كلف بتلك المرأة وكلفت به ،فتواطيا على ان يدّعي كل واحد منهما زوجية الآخر ويسقطا الشيخ ، فلما وصلا الى القلعة شكى ذلك الشيخ الى الامير حمّاد ما دهمه من أمرهما ووصف له حاله معهما ، فوقّف حماد الشابّ والمراة فتقارّا على نكاحهما وانكرا

(١) قلعة بني حماد - مدينة بين الجبال بالقرب من بجاية كان اسسها الامير حماد بن يوسف بن زيري الصنهاجي حين خرج على ابن اخيه الامير باديس واستقل بالمغرب الاوسط - سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٣ م) واتخذ هذه القلعة قلعة لحمايته فنسبت اليه وسكنها أبناؤه من بعده .

ما يدعيه الشيخ ، فجعل حمّاد يباحث الشيخ هل صحبهم في الطريق أحد ، او هل له شبهة ؛ فقال الشيخ ما صحبنا في طريقنا غير هذا الكلب ، وأشار الى كلب كان معه ، فامر حمّاد بربط الكلب الى وَتَد كان هناك ، ثم أمر المرأة بحلّه ، فذهبت اليه فارسلته ، ثم أمرها بربطه والكلب لا ينكر شيئاً من ذلك ، ثم قال للشابّ : - قُمْ فارسل الكلب ثم اربطه ، فلما همّ الشاب بذلك نبحه الكلب وانكره ؛ فقال حماد للمرأة : هذا الشيخ زوجك ، وهذا الفاسق يخلفك عليه،وأمر بضرب الفتى ضربا مبرّحاً ، وأبعده عن البلد .

* * *

ان مع العسر يسرا

أبوبكر الزبيدي (طبقات النحاة)

قال أبو الوليد المهري[1]: اغتممت ليلة غمًّا ما مرّ بي مثله ثم سُررت سروراً ما سررت مثله .

(١) ابو الوليد عبد الملك بن قطن المهري شيخ اهل اللغة والعربية والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم في زمانه في القيروان – وقد تقدمت له ترجمة في هذا الجزء – ويضاف اليها انه كان مع علمه الواسع قليل النظر في تدبير معيشته ، لا يمسك ديناراً ولا درهماً على كثرة ما كان يوصل ويعطى من جانب الامراء والرؤساء ،

قال : ـ كانت ازمة وشـدّة عـظيمة بالقيروان ، وضاق بي وباهلي الحال ، فبلغني ان رجلاً من أشراف مَهْرة عنده طعام كثير يَصِلُ منه ويُعطي ، فحسُن عندي ان أقصده اذ كان من قبيلي ، فركبت دابتي ومضيت حتى وصلتُ منزله خارج البلد فى فحص الدوارة ، فوجدته جالساً في مسجده وعنده جماعة من الناس ، مشترون وغيرهم ، فسلّمت عليه وجلستُ ، ثم عرّفته بنفسي، فلم يكن منه انشراح يرضيني، فصلى المغرب ثم دخل منزله ، ثم رجع فصلى بنا العشآء الاخرة ، ثم دخل فلم نشعر الّا بالموائد نصبت للناس ، فأكلنا ثم أمر من علّف دوابنا ، فلما كان آخر الليل سمعتُ حركة الناس للادلاج، فاذا بغلام ينبهني، فقلت له : ـ مالك ؟ ـ فقال : ان الناس راحلون، فامتنعت، فقال لي : ـ بهذا أمر مولاي ـ وقدّم لي دابتي ، فركبتُ وانا اكثر الناس همًّا ، وجعلت أقول في نفسي : "هـذا الكذا ، لم يكترث بقدومي عليه ، وندمت على اتيـاني اليه ، ومضى الغـلام معي حتى لقينا النـاس ، واذ ذاك قـال لي الغلام : « ان مولاي في خجل منك و من لقائك والاجتماع بك والاستماع لحديثك إذ لم يستقبلك بما يجب لك » فزادني كلامه هذا غماً ، وقال لي : ـ وهل أصلحت موضعاً ؟ ـ فقلت : ـ لماذا ؟ ـ قـال : هذه العشرون حملا المحمَّلة هي لك كلها ـ فسرى عني وسررتُ سروراً لا مزيد عليه ، وكان القمح بالقيروان في ذلك الوقت القفيز منه بدنانير كثيرة ـ فسرت

وأنا أفـكر فيما أبيع منه ، ومـا أبقي ، وكيـف أصنـع ، فبينما أنا على ذلك اذا بقوم محاربين قد خرجوا علينا وأحاطونا وأخـذوا كل شيء كان معنا ، ثم عرّونا من ثيابنا ، وأخذوا دوابنا، وكتّفت فيمن كتف، فما مرّ عليّ طول عمري غمّ مثله .

فبينما أنا على تلك الحال ـ وكانت ليـلة مقمرة ـ اذ مرّ واحد من السلاّبة فنظر اليّ وتاملني ، ثم قـال لي : ـ من أنت ؟ ـ قلت : ـ أنا ابو الوليد المهري ـ فطـأطـأ عليّ وقبَّلَ رأسي وعانقني ، ثم مضى مسرعاً واتى باصحابه وهو يقـول لهم : ـ كانت سفرتكم الليـلة سفرة خائبة ـ ثم أُتيتُ بثيابي فلبستها ، وبدابتي فركبتها ، وهو آخذ بركابي ، وردّ عليّ جميع ما كان برفقتي بسببي ، ثم قال لي : ـ أتعرفني؟فقلت: ـ لا،الّا انك أنعمت عليّ وأحسنت لي ـ فاجابني : ـ واين هذا من احسانك ؟ ثم قـال لي، ـ أتعرف الفتىَ الحدث الذي قُدِّمَ للامير زيادة الله بن الاغلب ليقتل مع اصحابه،فسالتَه العفو عنه وخلّصتني منه؟ ـ قلت: نعم ـ فقال : ـ أنا هو ـ فجعلت أشكره،فقال : ـ وكيف لي بمكافاتك ؟ خلّصتني من القتل وانا انما كففتُ عنك شرّى »

ثم ودَّعني وانصرف مع أصحابه بعد ان مشوا معنا الى ان أصبح الصبح » .

* * *

ما كنت لاكسر غزوة

روى سليمان بن سالم : [1]

لما غزا أسد بن الفرات صقلية، كان من جملة أصحابه يحي بن قادم[2] وكان قد اختلف مع أسد ، وذلك ان الجيش العربي لما حلّ بصقلية أبطات عليه النجدات والاقوات من افريقية ، فاضر الجوع بالناس حتى أكلوا لحوم الخيل ، وأسد صابر ، فمشى المحاربون الى ابن قادم واشتكوا اليه ما حلّ بهم من العُسر ، فمضى ابن قادم الى أسد وقال له فيما قال : ـ ارجع بنا الى افريقية فان حياة الرجل المسلم أحبّ الينا من بلاد الشرك كلها » ـ فاجابه اسد بقوله : « ما كنتُ لاكسر غزوة للمسلمين وفي المسلمين خير كثير » فانكر عليه الناس ذلك، واراد اسد حرق

---

(١) سليمان بن سالم الكندي ويعرف بابن كحالة ، من اصحاب سحنون وبه تخرج ، كان عالما ثقة مأمونا ، تولى مظالم مدينة القيروان ، ثم تولى قضاء جزيرة صقلية وبها توفي سنة ٢٨٩ هـ. (٩٠٦م.) .

(٢) يحي بن محمد بن قادم ، من اعيان علماء القيروان في القرن الثالث ، واهل بيته – بنو قادم – مشهورون بالعلم والفقه على مذهب ابي حنيفة النعمان ، وكان لهم مسجد قرب منازلهم يدرس عليهم فيه الطلبة ،

المراكب لئلا يخامر الناس الرجوع ، فبدرت من ابن قادم كلمة اذ قال: ـ على أقلّ من هذا قتل عثمان بن عفّان ! » فتناوله اسد بالسوط، وضربه اسواطاً يسيره ـ قيل ثلاثة او اربعة ـ وتمادت عزيمة اسد على الحرب ، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى هزم جموعهم وفتح جانباً كبيراً من الجزيرة قبل ان يستشهد امام عاصمتها سَرَقُوسَة .

* * *

ولا تركنوا الى الذين ظلموا

حسين بن علي تركي ـ مؤسس أسرة البايات ـ كان يرغب في منادمة الشيخ (محمد زيتونة) لعلمه[1] وفضله ، فكان هذا الفاضل ياتي كل ليلة جمعة الى قصر (باردو) للسمَر والمبيت هناك، فقدم ليلة من الليالي الى المقعد المعتاد للباي ، وكان احد الاتباع يصحبه في الطريق لانه كان ضريراً لا يرى شيئاً ، وكانت الشموع الكبيرة تتّقد في أطراف القاعة،

---

(١) الشيخ محمد زيتونة من ابناء المنستير ، وقرأ بالقيروان ثم بتونس على اعلام زمانه وتبحر في العلوم النقلية والعقلية ، وكان فصيح اللسان ، قوي الجنان ، وأوتي على بصره في حال صغره ، وله مؤلفات كثيرة ، وتوفي سنة ١١٣٨ (١٧٢٦) .

فمرّ الشيخ بالقرب من احداها ولم ينتبه ، فالتهمت النار طرف اكمامه واحرقته ، فقام جميع الحاضرين وتداركوا اللهيب وأطفؤه .

وجلس الشيخ قريباً من الباي فهناه بالسلامة ، فالتفت اليه الشيخ زيتونة - وكان صريحاً في أقواله - وتلا قول الله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسّكم النار) - فتحملها الباي ولم يواخذه بما قصد .

* * *

احترم حق غيرك

أبو القاسم اللبيدي (مناقب) :

سأل جماعة من الزيّار الشيخ الصالح أبا اسحاق الجبنياني عن الزروع التي تكون على حافة الطريق في زمن الربيع ويمرّون بها ؛

فقالوا له : - « ربما غلبتنا دوابُّنا على الاكل من تلك الزروع »

فقال لهم : أرأيتم لو قيل لكم : « أنها ان أكلت منها هلكت ، ما تصنعون ؟

قالوا كنّا نتحفظ منها، ولو لم نجد الاّ أرديتنا لربطناها على أفواه دوابنا

قال : - كذلك فاصنعوا إذا مررتم بها

ومن حكم الشيخ أبي اسحاق انه كان يقول لجلسائه : - لا تعلموا أولادكم إلاّ عند رجل حسن الدين ، فدين الصبي على دين معلمه .

لطائف النوادر

فرض الشتاء والصيف

الدباغ (معالم الايمان) :

كان سعيد بن عباد [1] يخدم المرمّة وياخذ كل يوم سبت أجرته فيقتات بما ياخذه في تلك الايام ، جاءته يوماً امرأة وطلبته في شهادة على غريم لها ، وكان الطين الى أنصاف ساقيه ، فقال لها :

- أنا أجير ولا يجوز لي ان اترك عملي ، ان أردت كلّمي صاحب العمل ليأذن لي .

فكلّمته المرأة فاذن له، فمشى معها وهو على حاله وعلى يديه ورجليه أثر الطين وأدّى الشهادة لابن عبدون قاضي القيروان، ولم يكن يعرفه ، فقال له كالمستهزئ به .

---

(١) سعيد بن عباد السرتي - من كبار تلاميذ سحنون - كان عالما زاهداً وفقيراً صابرا يعيش من كد يده ولا يقبل شيئاً من احد ، توفى سنة ٢٥١ (٨٦٥) ودفن بالقيروان .

ـ يا شيخ ، كم يُصلىّ في الشتاء وكم يصلىّ فى الصيف ؟

فقال له سعيد : « حدثني سحنون عن ابن القاسم عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر عن النبيء ـ ﷺ ـ انه قال (فرض الشتاء والصيف سوآء) وخرج .

فطاطا القاضي رأسه خجلا ولم يحر جواباً

* * *

لم يبق الا الروح

يزيد بن أبي اليُسر [١] (فى كتاب الامثال)

دخل رحمون الفارسي [٢] على أبي في مرضه الذي مات منه ، فقال له : ـ كيف أصبحت يا أبا اليُسْر ؟

فقال والدي :

يكاد جسمي من نحول الضنى   تحمله أنفـــاس عُـوّادي

(١) يزيد هذا هوولد أبي اليسر ابراهيم الشيباني ـ الاديب المرسل ـ الذي كتب لبني الاغلب حتى انصرمت ايامهم ـ انظر شيئاً من التعريف به في الجزء الاول من هذا ص ٢٤٤

(٢) رحمون الفارسي من شعراء القيروان في آخر الدولة الاغلبية ،

فقال رحمون : ـ هل ترى أن أزيد عليه ؟ يا أبا اليسر

فقال : نعم ، فانشد رحمون :

لم يبق الاّ الروح في مهجة   يروح أو يغدو بها الغـادي

* * *

الكرم والشهامة

ابن الخطيب (في اعمال الاعلام) :

بعث روح بن حاتم المهلبى ـ أمير افريقية ـ الى كاتبه ثلاثين الف درهم مكافاة له وكتب معها : « لا استقلّها لك تكبّراً ، ولا استكثرها تمُنّناً ، ولا استبثكّ عليها ثناءً ، ولا اقطع بها عنك رجاءً ، والسلام .

* * *

نفرح إذا فرح الناس

الطرطوشي :

كان عندالبهلول بن راشد العابد طَعَامٌ فَغَلاَ السعر في القيروان، فأمر ببيعه في السوق ،ثم أمر ان يُشترَى له رُبع قفيز من القمح ، فقيل له :

ـ تبيع ما بيدك وتشتري من السوق ؟

فقال : نفرح إذا فرح الناس ونحزن إذا حزنوا !

* * *

من يصن المال ولا يعش به

الخشني :

حكى ابو العباس بن زُرْزُر [١]، قال : لما كنت ببادية الحجاز خطرتُ باعرابي وهو على بئر وهو يقول :

مَن يُهِنِ المالَ ولا يُرَبِّه — يَهُنْ على الناس هَوَانَ كلبه

قال : فقصدته وقُلتُ له : أخطأتَ :

من يَصُن المالَ ولا يَعِشْ به — يَصِرْ لِشَانِيهِ جميعُ كَسْبِهِ

* * *

(١) ابو العباس محمد بن عبد الرحمن بن زرزر ، كان عالما باللغة والغريب وشاعراً وراوية للشعر ، توفي بالقيروان سنة ٢٩١ (٨٠٧ م)

دوآء الحفظ

الخشني :

القاضي ابو جعفر بن شهرين ، قال :

قلت مرة لابي العباس بن زرزر :أخبرني عن دوآء الحفظ .فقال لي:

ـ أوَ ما تعرفه ؟

قلت : ما أعرفه

قال لي : الدرس بالليل والمناظرة بالنهار .

* * *

ماء السبيل

المالكي :

قال أسدبن الفُرات [١]: «كنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن

(١) اسد بن الفرات اصله من خراسان ومولده سنة ١٤٢ (٧٥٩) ودخل مع ابيه وآل بيته الى القيروان في الجيش القادم مع محمد بن الاشعث ١٤٤ هـ. فأقام بها مدة ثم انتقل واهله إلى تونس وقرأ بها على علي بن زياد التونسي صاحب الامام مالك ، ثم سافر سنة ١٧٢ (٧٨٨) الى الحجاز ولقي الامام مالك وواضب عليه الدرس ، ثم انتقل الى العراق واجتمع باصحاب الامام ابي حنيفة حتى ملا وطابه من العلوم الدينية ، وفي طريق عودته اقام مدة بمصر اخذ فيها عن كبار اصحاب مالك ، ولزم منهم عبد الرحمن بن القاسم وكتب عنه مدونة عرفت باسمه « الاسدية » وقدم بها الى القيروان ورواها عنه خلق كثير منهم الامام سحنون ، وقد اشتهر اسد وانتشرت إمامته وتولى القضاء سنة ٢٠٣ (٨١٨) فاقام عليه الى ان خرج رئيساً للمجاهدين في فتح جزيرة صقلية وتوفي من جراحات اصابته وهو محاصر لعاصمتها سرقوسة في ربيع الآخر ٢١٣ (يونية ٨٢٨) ودفن تحت اسوارها ـ وفضائله اكثر من ان تحصى في اسطر قليلة ـ رضي الله عنه .

الشيباني ببغداد أروي عنه العلم في جملة من الطلبة ، فصاح صائح : « الماء للسبيل » فقمت مبادراً اليه وشربتُ من الماء ثم رجعتُ الى حلقة، فسألني محمد بن الحسن : « يا مغربي، شربتَ ماء سبيل؟ » فقلت له : « وأنا ابن سبيل » ثم انصرفتُ بعد الدرس الى منزلي، فلما كان الليل إذا بانسان يدقّ عليّ الباب ، فخرجت اليه ، فاذا خادم محمد بن الحسن يخاطبني : « مولايَ يقرئك السلام ويقول لك: ما علمتُ أنك ابن سبيل الّا في يومي هذا ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك » ثم دفع اليّ صُرّة ثقيلة فقلت في نفسي : ـ هذه كلّها دراهم ، وفرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً ذهبا »

* * *

انفتح دماغ المغربي

المـــالكي :

لما وصل (أسد بن الفُرَات) الى العراق ودخل بغداد لقي أصحاب أبي حنيفة : أبو يوسف، والشيباني وغيرهما فسمع منهم ودارسهم ، فلم يفتح له ما أراد أخذه من الحديث ومسائل الفقه ، وكان يجلس في حلقة محمد بن الحسن الشيباني فلا ينفتح له شيء مما يتكلّم فيه ، وكان يـدرس

الليل والنهار ولا ينتفع بشيء من أصول القوم ، وفي الاثناء كان يتعهد رَقّاقًا يشتري منه رقوق الكتابة،فشكى أسدُ اليه قلّة انتفاعه وقال له : « اني غريب طالب علم،وقد نفدت بضاعتي ولم ينفتح لي شيء من العلم» فقال له الرقّاق : « اقرأ عليَّ وانا أُبيّن لك أُصول القوم »

قال أسد : « فكنت اقرأ عليه فيبيّن لي ويفسح لي الطريق، فكنت أتردّد عليه حتى انكشفت لي طرائقهم في البحث، وظهرت لى مذاهبهم» ـ فلما جلست بعد ذلك في حلقة محمد بن الحسن تكلّمت مع من يحضر وناظرتهم » فقال الشيباني لاصحابه :

« انفتح دماغ المغربي ! »

* * *

آتني بشهودك

الخشني :

تخاصم رجلان من القيروان الى القاضي سليمان بن عمران [1] ، فاقام

(١) سليمان بن عمران ، من مشاهير قضاة القيروان ، وكان من اذكى العلماء ذهنا واحدهم فراسة واحضرهم جوابا مولده سنة ١٨٣ هـ وبقي مدة طويلة على خطة القضاء حتى لقب بقاضي الحق ـ انظر صورة قبره فيما نشرنا من ك . « اعمال الاعلام » لابن الخطيب ط . بلرمو ١٩١٠

المدّعي على خصمه شهدآء اربعـة ، فشهدوا عنـد القاضي فقبلهم ، ثم اعذر الى المطلوب ، فلما نظر المطلوب انه أَزِفَ (١) الحكم ولم يبق إلاَّ التنفيذ ، وعلم انه بريء في الباطن مما شهدوا عليـه في الظاهر ، قصـد القاضي سليمان بعد صلاة المغرب ، فاستاذن عليه فـلم ياذن له ، فالحّ المطلوب في الاستئذان وقال :

– ان لم ياذن لي القـاضي بِتُّ على باب داره حتى اكون اول من ألقاه صباحـاً .

فاذن له سليمان ، فدخل عليه فقـال له : – عزم القاضي على ان يسجّل عليّ ، وبقي في قلبي شيء اخبره به ،

فقال له : – قُلْ !

فاخرج الرجل مصحفاً من كُمِّه وحلف له به ، ثم اتبع ذلك بيمين الطلاق والعِتق والمشيء والصدقة (٢) انه بريء من ذلك المطلب ، وان الشهود الذين شهدوا عليه قصدوا بشهادتهم الزور صُراحاً ثم خرج عنه.

---

(١) ازف الحكم : دنا وقت تنفيذه وقرب

(٢) يعني انه يطلق زوجته ويعتق عبيـده ويمشي راجـلا الى مكة ، ويتصدق بكل مايملك

ووقع في قلب القاضي ان الرجل صادق ، فلما جلس من الغد في مجلس القضآء في الجامع اتاه الطالب يستنجزه التنفيذ ، فقال له القاضي: – اذهب آتني بالشهدآء الذين شهدوا لـك عندي في اصل الحـق حتى يحضروا تنفيذ الحكم لك ، – فذهب الرجل فاتى بهم ، فلما نظر القاضي اليهم اعرض عنهم وتشاغل بغيرهم طويلا ، ثم قال لغلامه :

– يا بشر ! اذهب الى صاحب سوق الجِمـال وقـل له : يبعث لي باربعة جمال حتى أطوّف عليها رجالاً شهدوا عندي بالزور ،

ثم اشتغل ، فلم يشك الشهود الاربعة انهم اصحاب المحنة ، فتسلّلوا من مجلس القضاء ، ثم تقدّم الطالب فقال له : – نفذ لي الحكم – فقال القاضي : بحضرة شهودك – فقال : قد احضرتهم ، فقال القاضي : – قرّبهم – فقال الطالب : هنا كانوا ، لكن ساذهب اليهم – فلما سار اليهم امتنعوا عليه من المسير الى القاضي ، فبقي الطالب متردّداً بين توقف القاضي عن الحكم الاَّ ان يحضر الشهود وبين امتناع الشهود من الحضور ، حتى مَلَّ الطالب وترك طلبه ،

قال الخشني عقب ذلك : « وهذا وان لم يكن وجه القضاء على مرّ الحقّ ، فهو من باب اللطف والسياسة . »

* * *

بعض حكم الامام سحنون

حمديس القطّان [1] سمعت سحنوناً يقول :

« مثل العلم القليل في الرجل الصالح ، مثل العين العذبة في الارض الطيّبة ، يزرع عليها صاحبها بَقْلاً وزَرعاً فينتفعُ به ، ومثل العلم الكثير في الرجل غير الصالح مثل العيْن الخرّارة في الارض السبخة ، تهدِر الليل والنهار ولا ينتفع بها . »

وكان يقول : « أجْرَأُ الناس على العلم أقلهم علماً ، يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن ان الحق كله فيه . »

ويقول : « من فِقْهِ الرجل : مطعمه،ومشربه،وملبسه، ومدخله، ومخرجه ، وصحبته لاهل الخير والفضل ، وليست العبادةُ بطأطأة الرأس » ومن وصاياه لابنه محمد : « يا بُني ، سلّم على الناس ، فان السلام عليهم يزرع المودة في قلوبهم ، وسلّم على عدوّك ، فان رأس الايمان بالله مداراة الناس ، وليست الامور تُصاحب من لم ينظر لها في العواقب »

(١) حمديس القطان ، أبوجعفر ، من ذرية ابي موسى الاشعري ، كان من اعيان اصحاب سحنون ، مشهور بالعلم الواسع والفضل ، وانتفع به خلق كثير توفي في القيروان سنة ٢٨٩ (٩٠٢)

وكتب مرة الى نائبه في القضاء بصفاقس : « اما بعد،فانه قد بلغني ان قِبَلك أقواماً ينكّرون المنكر بما هو أنكر منه، فازجرهم عن ذلك ، والسلام » .

وكان سحنون [1] - في مدة قضائه - يَكْتُبُ للناس اسماءهم في رقاع تجعل بين يديه ، ويدعوهم واحداً واحداً ، إلّا أن ياتي مضطر او ملهوف ، وكان لا يهاب سلطاناً في حق يقيم عليه ، وكان يؤدب الناس على الايمان التي لا تجوز ، مثل الحلف بالطلاق والعتق، حتى لا يحلفوا بغير الله ،وكان يؤدبهم على حال لباسهم ويأمرهم بحسن السيرة والقصد في المعاش. »

* * *

(١) ابو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، من صلبية العرب واصله من الشام وقدم ابوه سعيد مع الجند من اهل حمص، وولد سحنون سنة ١٦٠ (٧٧٧) بالقيروان ، وقرأ على علي بن زياد التونسي ، وروى عن اسد بن الفرات وغيره، وسافر في طلب العلم الى الحجاز واقام بمصر وروى عن عبد الرحمن بن القاسم وعليه اعتماده وبه تفقه. ثم عاد الى بلده وتصدر للتدريس والاشتغال بزياتينه بالساحل ، والزم على القضاء سنة ٢٣٤ (٨٤٨) وأقام عليه إلى آخر عمره ولم يأخذ عليه أجراً،وتوفي في شهر رجب سنة ٢٤٠ (دسنبر ٨٥٤) . وقد اجتمعت فيه خصال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا ، وعلى كل فإنه يعد بلا ريب المؤسس للمدرسة الفقهية المالكية بالقيروان تشهد بذلك « مدونته » المشهورة الجامعة للمذهب — وقد تقدم شيء من ترجمة حياته في فصل « سوسة الاغلبية » بهذا الجزء .

مضرة الهدايا

عياض (في المدارك):

لما حجَّ عبد الله بن غافق [١] أهدى اليه رجل من أهل المدينة هدية في سُفرة ، فكافاه عليها في حينه ، ثم أهدى اليه ثانية ، فكافاه ، فجعل المدني يكثر من الهدايا وابن غافق من المكافاة ، فلما اكثر عليه لقيه عبد الله في الطريق وقال له : « إن كان يسرّك ان ارجع الى بلدي وعليّ الديْن فتمادى في فعلك » فكفَّ الرجل المدني عنه .

* * *

من ذم ومدح كذب مرتين

كان لعبد الله بن غافق عدو من أهل بلده ، فسافر عدوه هذا مرة الى القيروان ، وبدا يثلبه وينتقصه في مجالس اهل العلم ، وبلغ ذلك الى ابن غافق ، فاخذ يرسل التُّحف والهدايا الى من خلفه

(١) عبد الله بن غافق ، من علماء مدينة تونس ، قرأ على سحنون واخذ بمصر عن نخبة من اصحاب مالك ، وكان موصوفا بالورع الكامل والكرم ، ثقة مأمونا – مولده سنة ٢٠٤ (٨١٩) ووفاته بتونس سنة ٢٧٥ (٨٨٨ م) .

ذلك الرجل في داره من أهله بتونس فاغرقهم بها ، فكتبوا بخبرها الى ذلك العدو بالقيروان يعلمونه ان ابن غافق أغدق علينا بالنِّعم، فاستحيا الرجل الذي يثلبه وقلب لسانه بحمد ابن غافق وشكره ، وجعل يعتذر الى كل من حفظ عنه مقالاً سيئاً .

* * *

إفشاء السر

الخشني :

كان معتب بن ابي الازهر [١] صاحباً لسحنون ومعدوداً من وجوه رجاله، حكى عن نفسه ، قال : « قال لي سحنون يوماً : اني أحبّ أن أسرّ لك سرًّا فايّاك ان تفشيه - فقلت له : - يا أبا سعيد ، اذا كانت منزلتي عندك منزلة من يخاف منه ، فلا تفش اليَّ سرّك - فقال لي : ليس الامر كما تظنّ ، ولكن لكل انسان صديق يكون موضع ثقته وراحته ، ولذلك الصديق صديق ، ومن مثل هذا تخرج الاسرار . »

* * *

(١) معتب بن ابي الازهر الازدي، من نبلاء علماء القيروان، كان رحل إلى المشرق وسمع من كثير من العلماء الاعيان .

لست صاحب مرمة

المالكي (رياض النفوس)

روى المالكي ان رجلا من اصحاب عبد الله بن ابي حسان [1] أتاه يوماً على اثر مطر عظيم نزل بالقيروان ، فهدّم كثيراً من دورها، فالفاه جالسا في مسجده، فسلم عليه ثم اعلمه بما انهدم من داره وشاوره في بنيانه ، ومن يرى ان يبني له، فأمر سليمان بعض غلمانه فاتاه بخمسين ديناراً فدفعها اليه وقال : « استعن بهذه على بنآئك » فلما مضى الرجل قال له بعض ولده : أتاك يشاورك في بنآئه فدفعت له خمسين ديناراً ؟» فاجابه سليمان : « يا بُني ، لستُ ببنآء ولا صاحب مَرَمَّة ، وانما تعرض الرجل بمشورته لنا الى معروفنا » .

* * *

(١) أبو محمد عبد الله بن ابي حسان اليحصبي من وجهاء ابناء القيروان ، رحل الى المشرق وروى عن مالك بن انس وغيره ، وينقل عنه انه سمع مالكا يقول : « إن اهل الذهن والذكاء والعقول من اهل الامصار ثلاثة : المدينة ، ثم الكوفة، ثم القيروان »وقال عبد الله بن وهب : « ما رايت مالكا اميل منه إلى احد كميله الى ابن ابي حسان » وكان مفوهاً حاضر الحجة ، شاعراً بليغاً ، وتوفي عام ٢٢٧ (٨٤٢)

ما شعرت بذلك

المالكي :

ذكر ان محمد بن سحنون [1] كانت له جارية يقال لها (أُمُّ مُدَام) فكان عندها يوماً من الايام ، فقال لها : « ما عندك الليلة ، يا امّ مدام؟» فقالت : ـ « لي زوج فراخ » فقال أصنعيها لنا الليلة ، ففعلت ذلك ، وقد أخذ هو فيما هو فيه من تصنيف كتاب يرد فيه على بعض المخالفين فاشتغل في تحرير ذلك الى الليل ، فلما حضر الطعام استاذنته ، فقال لها : « أنا مشغول الساعة » فلما طال انتظارها أقبلت تلقّمه الطعام الى ان اتى على الفرخين ، ثم تمادى فيما هو فيه من التاليف الى ان أذّن في الجامع لصلاة الصبح ، فقال لها : يا امّ مدام ، شغلنا عنكِ الليلة ، قرّبي ما عندك من الطعام » فقالت : ـ قد اطعمته لك ، والله ، ياسيدي ! »

(١) محمد بن الامام سحنون ، مولده سنة ٢٠٢ (٨١٧) وتوفي سنة ٢٥٦ (٨٧٠) ودفن بجنب قبر ابيه خارج باب نافع من ابواب القيروان ، كان عالما جليلا ، خلف والده الامام سحنون في رئاسة المدرسة الفقهية المالكية في افريقية ، له عدة تآليف في شتى العلوم لم يبلغنا منها عدا واحد هو « اداب المعلمين » كان لي الحظ في طبعه بتونس سنة ١٩٣٤

فقال : « ما شعرت بذلك » لشغله وتعلّق قلبه بما كان فيه من كتابة تحريره .

* * *

أحسن لمن أساء إليك

ابوبكر التجيبي :

روى أبو الحسن القابسي : ان رجلاً كان يشتم محمد بن سحنون وينال من عرضه ويؤذيه ، فصادف ان افتقر ذلك الرجل واشتدت عليه الحال، فقال في نفسه : - لا مضيَنّ الى محمد بن سحنون لما اسمع من حنانه و كرمه،فدخل عليه وسلم،فاقبل عليه محمد وقال له: ماحاجتك؟ - وكان ذلك الرجل ياتي اليه قبل فيقول له « أحب ان أسارّك - فيشتمه في اذنه - فيقول له محمد : - جزاك الله خيراً - ولا يعرف احد ما يقول له الى ذلك اليوم - فقال الرجل : - أصلحك الله - جئتك تائباً مما كنت أفعل - فقال ابن سحنون : دع هذا واذكر حاجتك - فقال : والله ما اتى بيَ اليك الا الحاجة - فاسترجع ابن سحنون واغتم لذلك، وكتب له رقعةً وأمره أن يمضي بها الى فلان الصيرفي ، فذهب اليه فاعطاه عشرين ديناراً ذهباً ، فاشترى منها ما يحتاج اليه ، وأتى بالحمالين الى

داره فقالت له زوجته : ما هذا ؟ فقال : هذا ما أعطاني الرجل الذي كنتُ أشتمه »

* * *

الكرم الحاتمي

الدباغ (في معالم الايمان) :

رُويَ ان القاضي عبد الله بن طالب أتى يوماً من القصر القديم - وهو العباسية - في يوم شتوي مَطير لينظر بين الناس في الجامع الكبير، فبينما هو بين القصر والقيروان راكباً على دابته إذا بشيخ كبير ضعيف معه دويبة عليها حطب وقد اخذته الاودية والشيخ وحده ، والشبكة تميل من ناحية و يردفها الشيخ من ناحية ؛ فعدل عليه القاضي ابن طالب وقال : - يا شيخ ، في مثل هذا اليوم ؟ - قال : - فما حيلتي ؟ - لي بنات وعيال ، أبيع هذه الشبكة فاشترى منها شعيراً قوتاً لنا وعلفاً للدابة ، ولو تركت هذا اليوم بقينا بغير أكل ، أو نحو ما قال .

فقال له ابن طالب : - اذا كان بالغداة فلا تعمل شيئاً وتاتي الى موضع كذا وكذا من القصر القديم عند البئر ، فتجلس ، فعسى ان يكون خيراً .

فلمـا كان من الغـد قال ابن طالب لاحد من اتباعه : ـ أمْضِ الى البئر فانظر شيخاً من صفته وصفته ، فآت به »

فلما دخل عليه دعى ابن طالب بوكيله وقال له :

ـ امْضِ فاشترِ لهذا كذا وكذا كيْلة من الطعام ، واشترِ له ولعياله جُبَّة وكساء لكل واحـد منهم ، واشتر له زوج بقر يحرث له ، وكذا وكذا من الزريعة .

فقال الشيـخ : الحمد لله رب العالمين !

قال ابن طالب : ـ واشترِ له غلاماً يعينه في حرثه

قال الشيـخ : ـ الحمد لله رب العالمين !

قال ابن طالب : واشترِ له مائة شاه من الغنم

قال الشيـخ : أغنيتني وأغنيت أهلي ، فعل الله بك وفعل ، واخذ يـدعو لمحسنه بكل لسان

فقـال ابن طالب : ـ يا شيـخ ، لو دمت فى الحمـد لربّك ، لا نفدتُ عليك جميع ما املك . »

★ ★ ★

ويوثرون على انفسهم

الدباغ (في معالم الايمان)

« كان رجـل كفيف البصر من الفقراء يمشي مع زوجته ، فـإذا بصقـلبي أتى الى طبّـاخ وقال له : ـ يقول لك القاضي ابن طالب : ـخذ لنا خروفاً من صفته كذا وكذا،واعمله فى التنّور،وخذ له من الزيتون والخبز وبقل المائدة ما يصلح ، وهيئه الى ان ارجـع من صلاة الجمعـة ـ وانصرف الغـلام ، ـ فقالت زوجـة الكفيف : ـ والله ما اشتهيت الا ان آكل منه ، وكانت حاملا ـ فقال الكفيف : ـ تتغذى منه ان شآء الله .

فلما فرغ من صلاة الجمعة سبق الكفيف القـاضي الى باب الدارحتى جآء ابن طالب ودخل بيتاً في سقيفة داره يجلس فيه مع رفـاقه فقالت الزوجة للكفيف : ـ مـا الذي يوصلك اليـه ؟ ـ فقـال : ـ أسكتي ! فلمـا سمعت الطست أخبرته ،

فرفع الكفيف صوته وقـــال : ـ يا قاضي ، قـال الله عزَّ وجلّ : (ويوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصَاصَة)وقالتعالى :(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً)

فصاح القاضي ابن طالب : « ـ يا غلام اخذ هذا الخِوَان وامْض ِمع الشيخ حتى توصله الى داره »

وأخبار عبد الله بن طالب في السّخا والجود يطول ذكرها لو اردنا استقصاها .

* * *

رب ضارة نافعة

الزبيدي (اخبار النحاة) :

كان بالقيروان أخوان : ابراهيم وعبد الملك المُهْرِيان[1] وكان اكبرهما سِنًّا ابراهيم قد تعلم قبل اخيه وبرع في العربية واشتهر حذقه فيها .

اما سبب طلب أخيه عبد الملك العلم هو ان ابراهيم رآه يوماً وقد مَدّ يده الى بعض كتبه يقلّبها وينظر فيها ، فجذبه ابراهيم من يده بشدّة وقال له : « مالك ولهذا ؟ واسمعه كلاماً غليظا ، فغضب عبد

(١) ابو الوليد عبد الملك بن قطن المهري ـ نسبة الى (مهرة) من قبائل اليمن ـ ولد بالقيروان في حدود ٢٦٥ هـ وقرأ في بلده وغيره وتفرد بعد برياسة اللغة ورواية الاشعار والمعرفة التامة بانساب العرب ووقائعها وايامها وعمر طويلا وتوفي سنة ٢٥٩ (٨٧٣) وله مصنفات كثيرة في اللغة والمغازي

الملك لما قابله به اخوه وانكبّ من وقتئذ بجد ووجد على الدراسة ليلاً نهاراً حتى علا على اخيه وعلى اهل زمانه كلهم ، واشتهر ذكره ، وسما قدره ، ، فليس احد في عصره من يجهل أمره .

★ ★ ★

الشهرة تورث الجاه

الزبيدي :

حكى أبو عثمان سعيد الحدّاد ، قال : « كنتُ يوماً أمشي مع ابي الوليد عبد الملك المهري الى ان مررنا بسوق الجزارين بالقيروان ، فقام اليه رجل منهم وقال : ـ « يا أبا الوليد ، أضررت بي لأنَّ بضاعتي كلها عندك ، ولا بدّ من أداء مالي قِبَلك ! » فاعتذر اليه وساله الصبر ،فابى عليه فمرّ بنا رجل وقال للجزار : ـ كم لك قِبَل الشيخ ؟ ـ فقال : ـ عشرة دنانير ـ فقال : هي لك عليّ ،أمضي معي حتى ادفعها لك ـ فمضى معه ودفعها اليه ـ

قال سعيد بن الحداد : ـ وظننت انا ان الرجل من اخوان المهري ، وظنّ المهري انه من اجلي فعل ذلك به ؛ فلما سرنا قال لي : ـ الرجل

الذي وَدّى عني الدنانير من هو ؟ ـ فقلت : لا أعرفه،ولكن اسال عنه ؛ فسالتُ فاذا هو رجل عطّار نصراني كان في القيروان . »

* * *

فطنة الامير وعدله

ابن الاثير (في كامل التاريخ) :

كان الامير ابراهيم الثاني من بني الاغلب نادرة في الذكاء والفطنة والتيقظ الى خفايا القضايا .

حكى ابن الاثير: ان تاجراً من اهل القيروان كانت له امراة جميلة صالحة عفيفة ، فاتصل خبرها بوزير الامير ابراهيم ، فأرسل اليها فلم تُجبه ، فاشتدّ غرامه بها ،وشكى حاله الى عجوز كانت تغشاه ،وكانت تلك العجوز لها عند الامير ابراهيم حظوة وعند والدته منزلة كبيرة، وهي موصوفة في البلاد ، يتبرّك بها النسآء ويلتمسن منها الدعاء .

فقالت العجوز للوزير : انا اتلطف بها واجمعُ بينكما ، وراحت من الغد الى بيت المراة فقرعت الباب وقالت : ـ قد أصاب ثوبي نجاسة وانا مارّة بالطريق،اريد تطهيرها،فخرجت المراة لها و لَقِيَتها وفرحت بها وادخلتها وطهّرتْ ثوبها ، وقامت العجوز تصلي ، فعرضت المراة

عليها الطعام ، فقالت : اني صائمة ؛ ولا بد من التردد اليك ؛ ثم صارت تغشاها ، فقالت لها يوماً : « عندي بنتٌ يتيمة اريد ان اجملها الى زوجها ، فان خَفَّ عليك إعارة حليك فعلتِ ـ فاحضرت امراة التاجر جميع حليها وسلمته اليها ، فاخذته العجوز وانصرفت ؛ وغابت اياماً وجآءت اليها ،

فقالت لها امراة التاجر: ـ اين الحلي ؟ ـ فقالت : ـ هو عند الوزير، عَبرت عليه والحلي معي فاخذه مني وقال:ـ لا يسلمه إلاَّ اليكِ ـ فتنازعتا ساعة ،وخرجت العجوز وجآء التاجر زوج المرأة فاخبرته الخبر ، فقصد قصر الامير ابراهيم برقادة واعلمه بالقصة ، فدخل الامير الى والدته[1] وسالها عن العجوز،فقالت ـ هي تدعو اليك ـ فأمر باحضارها ليتبرك بها فاحضرتها والدته ، فلما رآها اكرمها واقبل عليها وانبسط معها ساعة ، ثم اخذ خاتماً من اصبُعها وجعل يقلّبه ويعبث به ، ثم انه أحضر احد فتيانه وقال له: ـ انطلق الى بيت العجوز وقُل لابنتها تسلّم الحُقّ الذي فيه الحلي وصفته كذا وكذا ، وهذا الخاتم علامةٌ منها ـ فمضى الخادم واحضر الحقّ وسلمه للامير ـ فقال ابراهيم

---

(١) ام الامير ابراهيم بن احمد هي « اتراب » – راجع شيئا من اخبارها في كتابنا : شهيرات التونسيات – ط. تونس ١٩٦٦ ص ٥٠

للعجوز ما هذا ؟ فلما رأت الحقّ سقط في يدها ، فامر بقتلها ودفنها في بستان القصر ، ثم انه اعطى الحقّ لصاحبه التاجر واضاف اليه شيئاً آخر هدية منه لمجازاة عفاف الزوجة ، وقال ابراهيم للتاجر : « اما الوزير فان انتقمت منه الآن ينكشف الامر ،ولا فائدة في ذلك، ولكن ساجعل له ذنباً آخر آخذه به » وفعلاً قد تركه مدة يسيرة وجعل له جُرْماً أخذه به وقتله . »

* * *

الجرتان للجارتين

المالكي :

اختصمت امرأتان الى القاضي حِمَاس [1] في جرّتيْن مملوتيْن ماء سقطت احداهما على الاخرى على يد صاحبتها ، فانكسرتا ولم يدر ايتهما سقطت على صاحبتها .

(١) حماس بن مروان بن سماك العدواني ، من تلاميذ سحنون ، كان من الفقهاء الورعين الاجلاء ، تولى القضاء العام بالقيروان وتوفى سنة ٣٠٣ (٩١٥ م) وله مناقب كثيرة .

فقال لهما القاضي : ترجعا الي غداً - فرجعتا اليه ، فقال لهما : تعودا الي ثانية - ففعلتا ، - فقال لهما : «والله ما أدري كيف احكم بينكما» ثم ادخل يده في كُمّه واخرج دراهم دفعها الى احد اعوانه وقال له : امض فاشتري لهما جرتين مملؤتين ماء مكان جرتيهما - ففعل التابع ذلك، واخذت كل واحدة منهما جرّة - وقال حماس : - لو علمت الجرّة الساقطة بعينها لغرّمتُ صاحبتها قيمة الجرّة الاخرى »

* * *

اختر بمن تتزوج

المالكي :

كان محمد الرعيني حكيّاً [1] ذُكر عنه ان رجلا استشاره في امرأة يتزوجها ، فقال له : - « لا تتزوّج امراة فيها هذه الخِلال الثمانية ، لا تتزوجها منّانة، ولا بنّانة ، ولا كنّانة ، ولا حنّانة ، ولا حدّاقة ، ولا خفّاقة ، ولا اتّانة ، ولا ذات دايات .

فاما (المنّانة) فهي التي تمنّ بشيء كان منها اليك - واما (البنّانة)

(١) محمد بن علي الرعيني ، من محدثي القيروان ، قرا بالحجاز وعاد إلى القيروان فنشر العلم وبها توفي في آخر الثاني للهجرة .

فهي التي تتبنّى ولد غيرك عندك ـ واما (الكنّانة) فهي التي تقول : « كنتُ ... وكنتُ قبل ان اجيء اليك » ـ واما (الحنّانة) فهي التي تحنُّ لزوج كان لها قبلك ـ وأما (الحدّاقة) فهي التي تنظر بعينها ثم تقول « فلانة كساها زوجها، وفلانة حلّاها زوجها، وصنع بها كذا وكذا »... فهي تجبره على مجاراة غيره ـ واما (الخفّاقة) التي تصبح غدوة جائعة فتقول : « ابغي رؤوساً ، ابغي فتوتا [1] أبغي حبيساً ـ وأما (الانّانة) التي تصبح تئن فتقول : « جنبي ! فخذي ! راسي ! » لتنظر هل يحبها زوجها ام لا ـ واما (ذات دايات) [2] فهي التي كل يوم عندها امراة عجوز فتقول : « هذه دايتي ، هذه خالتي ، هذه عمتي »

* * *

الشهرة بالابن

ابن ناجي : (معالم الايمان)

« كان عبد الله بن التبّان [3] في مدة دراسة العلم فقير الحال ، من بيت متواضع ، حكى عن نفسه قال :

(١) الفتوت : خبز مفتوت على مرق اللحم كالسويق ،

(٢) الداية : هي في الاصل : الحاضنة غير الام ، ثم اطلقت فيما بعد على المربية والمعلمة والناظرة في شؤون البيت ،

(٣) ابو محمد عبد الله بن اسحاق المعروف بابن التبان ، من جلة العلماء الراسخين في تحقيق المعاني الدينية وكان بعيدا عن الرياء والتصنع ، ولد بالقيروان وتوفي بها سنة ٣٧١ هـ. (٩٨١)وضريحه مشهور بها

قال لي أبي ذات يوم : ـ يا بُنيَ ، ما عسى ان يكون منك، لا تعرف صناعة ولا حرفة ، واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك .

فلمّا كانت ليلة من الليالي سمعتُ أبي يقول لوالدتي :

« علمت اليوم اني عُرِفتُ بابني واشتهرت بين الناس ، وذلك اني حضرتُ إملاكاً في المسجد الفلاني فوجدته مملوءاً بالناس ولم اجد مجلساً فقام لي رجل من مكانه واجلسني فيه ، فساله انسان عني فقال له : ـ اسكت ، هذ والد الشيخ ابي محمد التبّان »

* * *

الرفق بالقوارير

القاضي عياض (المدارك) :

حكى ابو عبد الله محمد بن التمّار : « خرجت مرة مع الشيخ عبدالله التبّان الى سوسة ومعه جارية راكبة على زاملة ، وهو على سرج ، فاذا مشى قليلاً مضى اليها وقال : ـ تحبّين ان تركب السرج ؟ ـ فتقول : ـ نعم ! ـ فينزل لها ويرجع هو على الزاملة ، ثم يمشي قليلا فيقول لها : ـ ترجعي على الزاملة ؟ فتقول : نعم، فيردّها عليها ، فعل ذلك نحو أربع مرات ، فلما وصلنا سوسة، دخلتُ عليه فقلت له : ـ غلبتْ على عقلك

وساعدتها تنزل من دابة الى دابة ، والناس يرونك ؟ - فغضب ورفع بصره الى السمآء وقال : اللهم ابتليه بما ابتليتني به

قال الراوي : وبعد مدة ابتلى ابو عبد الله محمد التمّار بجارية كان باعها وندم على فعله وقد تبعتها نفسه ، وبلغ منه ذلك امراً عظيما،فكان يقول : « اصابتني دعوة الشيخ التبّان »

ومن الحكم المروية على الشيخ التبّان انه قال لبعض الطلبة ممن يدرس عليه :

« خُذْ من النحو ودعْ ، وخذ من الشعر واقلل ، وخذ من العلم واكثر ، فما اكثَرَ احد من النحو الاّ حمّقه ، ولا من الشعر الاّ أرذله، ولا من العلم الاّ وشرفه .

* * *

حمار بعشرين مثله

المالكي :

حكى لي بعض المشائخ ، قال : كان شيخ له ادب وعلم وعقل ياتي الى (زقاق الفرّانين) بالقرب من السِمَاط الكبير بالقيروان ، فيجلس مع قوم اكثرهم من اهل العلم والادب ، فابطا عليهم اياماً فمضوا اليه

يتعرّفون احواله،فسالوه عمّا اخّره عن المجيء اليهم،فاعلمهم ان حماره الذي كان يذهب عليه مات فاصيب به ، فاصبح كل واحد منهم - من غير ان يعلم صاحبه - قد اشترى حماراً بسرجه ولجامه - وكانوا جماعةً - فاصبح على بابه نحو عشرين حماراً . »

واضاف المالكي عقب هذه الحكاية قوله :

« وكان الناس فيما سلف من تعظيم اهل العلم خلافَ ماهم عليه اليوم »

* * *

ألقت عصاها

ابو جعفر المروذي (١) :

خرجت مع مولانا اسماعيل المنصور صاحب افريقية يوم هزم ابا يزيد صاحب الحمار (٢) فسايرت الامير وكان بيده رمحان ، فسقط

(١) ابو جعفر احمد بن محمد المروذي من ادباء القيروان في القرن الرابع ، وكان في خدمة الملوك العبيديين الفاطميين

(٢) ابو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني حشد جموعا كثيرة من البربر وثار على الدولة الفاطمية في سنة ٣٣٢ وكاد يقضي عليها ، فحاربه اسماعيل المنصور ، رابع الملوك الفاطميين مدة طويلة الى ان ظفر به وبجنوده ٣٣٦ (٩٤٧)

احدهما مراراً،فكنت امسحه في كل مرة واناوله اياه ، وانشدته متفائلا :

فألقت عَصَاهَا واستقرّ بها النَّوَى   كما قــرّ عيْنـاً بالإياب المُسَافِـرُ

فالتفت اليَّ وقال : هلا قلت ما هو ابلغ من هذا واصدق ؟

فقلت له : وما هو ؟

قال : قول الله عزّ وجلّ : (واوحينا الى موسى أن الْقِ عصاك فاذا هي تلقف ما يافكون ، فَوَقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغِرين)

فقلت : يا مولانا ، انت ابن رسول الله قلت ما عندك من العلم ، وانا قلتُ ما عندي »

* * *

بماذا يخلد الذكر

ابن جلجل (طبقات الاطباء) :

اسحاق الاسرائلي [١] من مشاهير اطباء القيروان في عصر فيض

(١) ابو يعقوب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي ، اصله من مصر ، وجلبه زيادة الله الثالث ، آخر بني الاغلب الى « رقادة » ، والتحق بعده بالخلفاء الفاطميين من المهدي الى المعز لدين الله ، وكانت وفاته بالمهدية في حدود سنة ٣٤٠ هـ. (٩٥١م.) - وتقدم التعريف به في القسم الاول من هـذا الكتاب ص ٢٣٧ فليراجع هناك .

الحضارة العربية، خدم بطبّه الملوك والامرآء، وبقلمه العلوم والفنون، وكان طبيباً ماهراً وعالماً لَسِناً ، وله تآليف لم يسبقه احد الى مثلها ، عاش مائة سنة او نحوها ولم يتزوج مدة حياته .

قال له بعض اصحابه مرّة :

ـ لو تزوجتَ يصير لك ولد يخلّد ذكرك بعدك ؟

فقال : اما وقد صار لي « كتاب الحُمّيات » من تاليفي، فلا أرغب في الزواج » .يعني ان بقاء ذكره بهذا الكتاب يكون اكثر من بقائه بالولد

* * *

تلقيح الفكرة

ابن رشيق (في العمدة)

« حدثني بعض اصحابنا من اهل المهدية،وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو اشرفها ارضاً وهواء، قال : « جئتُ هذا الموضع مرةً فاذا عبد الكريم النهشلي [١] على سطح بُرْجٍ هنالك قد كشف الدنيا،فقلت:

(١) ابو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ،شاعر بليغ ولغوي مقدم، خدم بقلمه وادبه الدولة الصنهاجية بالقيروان ، وتوفي بالمهدية سنة ٤٠٥ هـ. (١٠١٤)

- ابا محمد - قال : - نعم قلت : - ما تصنع ها هنا ؟ - قال : - القّح خاطري وأجلو ناظري ! - قلت فهل نتج لك شيء ؟ قال : - ما تقرّ به عيني وعينك ان شآء الله » وانشدني شعراً يدخل مسام القلوب رقةً .

* * *

كل ميسر لما خلق له

ابن رشيق : (العمدة)

« كان ابو محمد عبد الكريم النهشلي من بلغآء الشعرآء ، وكانت فيه غفلة شديدة فيما عدا الشعر ، قال له بعض اخوانه يوماً :

- الناس يقولون انك ابله - فقال : - هم البُلْه ، هل أنا ابلَه في صناعتي ؟ - قال : - لا - قال : « فما على الصائغ ان يكون نساجاً ! »

* * *

الحفظ الغريب

ابن رشيق :

كانت لابراهيم المارديني [1] سُرعة حفظ ما ليس لاحد ، شهدته

(١) ابراهيم بن سوس المارديني ، من اعيان شعراء افريقية في اوائل القرن الخامس هـ . وكان في حاشية الدولة الصنهاجية بالقيروان ، وصفه معاصره ابن رشيق بالادب الرفيع ، والحفظ البديع ، والخط العجيب .

يوماً وقد صنعت أبياتاً اربعة في شكر سيدنا المعز بن باديس اول تقريبه إيّايَ ، وصنع محمد بن شرف ستة في مثل ذلك ، وصنع مَعَدّ بن جبارة اثني عشر بيتا ، وانشد كل واحد مِنّا شعره .

فقال ابراهيم لمعدّ : - ان شعرك هذا قديم وانا احفظة ، فضحك معدّ مستهزياً ، وقال له : - هات - فانشده ابياته الى آخرها ، ثم التفت الينا وقال : - كذلك انتما - فقلنا : - اسمعنا ، فاسمعنا إيّاها - فحار معدّ فيه حتى عرفته حاله .

* * *

لا يحب أن يكون عالما

الخشني :

أتى بعض طلاب الحديث الى مالك بن عيسى [1] وهو في مجلس إقرائه في القيروان ، وقال له :

- حدثني ، ولا تحدثني الّا بما يوافق مذهبي .

(١) مالك بن نصر بن عيسى، من ابناء مدينة قفصة وبرع في علم الحديث وكان به بصيرا واخذ عنه جماعة من افريقية ، وتوفي في خلال القرن الثالث للهجرة .

فعطف مالِك الى الحاضرين ، وقال لهم :

ـ هذا رجل لا يحبُّ ان يكون عالماً

* * *

لـذة العـلم

دخل بعضهم على احمد بن نصر [١] في مرضه الذي مات فيه، فوجده مُلقى بالفراش وكتاب على صدره ، فسأله عن حاله ، فقال :

ـ ما أغفل الملوك عن لذّة العلم ، وما آسف على موت ولا على شيء فى الدنيا كأسفي على كِتاب لم أبلغ أمنيتي منه »

* * *

إن من البيان لسحرا

من حكم جعفر بن شرف [٢]

---

(١) احمد بن نصر بن زياد الهواري ، من علماء القيروان ، مات سنة ٣٣٥هـ . (٩٤٦)

(٢) ابو الفضل جعفر ابن الشاعر الطائر الصيت محمد بن شرف القيرواني ، مولده سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) وقرا ببلاده ثم سافر مع ابيه بعد الزحفة الهلالية الى الاندلس واتصل بملوك الطوائف ، وكان من جلة الادباء الشعراء ، وتولى الوزارة هناك وتوفي سنة ٥٣٤ (١١٤٠)

« التعليم فِلاحة الاذهان ، وليست كل أرض منبتة

« العالِمُ مع العلم كالناظر للبحر ، يستعظم منه ما يرى ، وما غاب عنه أكثر .

« الفاضل في الزمان السوء كالمصباح في البَرَاح ، قد كاد يضيء لو تركته الرياح .

« المتلبّس بمال السلطان كالسفينة في البحر ، ان أدخلت بعضه في جوفها أدخل جميعها في جوفه

« يا ابن آدم تذمّ أهل زمانك وانت منهم ، كأنكَ وحدك البري وجميعهم الجري ، كلّا بل جنيتَ وجنى عليك ، فذكرتَ ما لديهم ونسيتَ ما لديك »

* * *

عازب وغريب الدار

الدباغ (فى المعالم) :

« حدثني ابوبكر محمد بن سيد الناس اليَعْمُري بتونس بسنده ان بعض طلبة العلم وصل من الاندلس وقصد الى الشيخ أبي محمد عبدالله

ابن أبي زيد للقرآءة عليه بالقيروان، فاكرمه الشيخ وانزله في بيت أمام مسجده وأجرى عليه من النفقة ما يحتاج اليه، فبينما الشيخ ذات يوم خارج من داره الى الصلاة اذ رأى الطالب الاندلسي ينظر الى امرأة خارجة من الحمّام وقد كشفت وجهها لِمَا نالها من الحرّ ، ولم تظن ان احداً ينظر اليها ، فلما رأت الشاب سترت وجهها وانصرفت ، وقد تمكّنت من مجامع قلبه وأخذت من نفسه كل مأخذ ، فتبعها الى ان دخلت دار الشيخ ابن ابي زيد الذي كان ينظر اليها ، فلما رآه الشاب سقط ما في يده وداخله من الحيآء والخجل ما لا يزيد عليه ، ورجع حزيناً كئيباً الى منزله ، فلما تأخر عن الصلَاة أتاه المؤذن واعلمه ان الشيخ بعث اليه ، فأتى فصلى بالناس ، ثم اخذ الشيخ معه في المذاكرة والمؤانسة الى ان صلّى العشآء الآخرة ، فقال له ابو محمد : « ـ انصرف الى دارك حتى أصل اليك » ـ فلم يشك الطالب انه سيذاكره فيما حصل وظن سوءاً وعاد اليه حزنه وكآبته ؛ فلما وصل الى منزله لم يجلس طويلا حتى قدم الشيخ في أثره وقال له : ـ لقد قصّرتُ في حقّك اذ لم اتذكر انك عازب وغريب الديار ، اما الصبية التي رأيتها خارجة من الحمّام فاني ربيتها في بيتي كاحدى بناتي وقد زوجتك بها على بركة الله وهي لك ؛ وما تاخرت لهذا الوقت الّا لانهم في الدار من ذلك الحين يصلحون من شانها . »

ولم يبرح الشيخ حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج اليه من ثياب وحلي وفرش فتركها في منزل الطالب وانصرف .

* * *

أنا وذكرك في تناجي

عقب زحفة بني هلال على افريقية وتخريبهم القيروان، عزم الشاعر الكبير الحسن بن رشيق على مفارقة البلاد، فركب البحر في سفينة من مرسى سوسة يريد جزيرة صقلية التي كان معظمها بيد الافرنج ، فلما قرب من سواحلها أنشد :

ولقد ذكرتكِ في السفينة والرَّدَى ... متلاطمٌ متوقع الامواج
والجوّ يَهْطِلُ والرياح عَوَاصِفٌ ... واللّيلُ مسوّدُ الذوائبِ داجي
وعلى السواحل للأعادي عسكرٌ ... يتوَقّعون لغارةٍ وهياج
وعَلَتْ لاصحاب السفينة ضَجَّةٌ ... وأنا وذكركِ في ألَذِّ تَنَاجي

* * *

لو رآه ما سمحت به نفسه

ابن الاثير (في الكامل) :

وهب المعزّ بن باديس مرة مائة الف دينار ذهباً الى المستنصر الزناتي، وكان عنده وقد جاءه هذا المال ، فاستكثر المستنصر العطية،فامر المعزّ بالمال فافرغ بين يديه ثم وهبه له ، فقال له بعضُ من حضر :

ــ لماذا أمرت باخراجه من أوعيّته وبرده فيها ؟

فاجابه المعز : ــ لئلا يقال لو رآه ما سمحت به نفسه .

* * *

الفقه أم الادب

ابن حيّان : (في المسلك السهل)

حدثني بعض أدبآء تونس ، والعُهدة عليه : ان المحدث أبا القاسم بن البرآء قاضي تونس كان يحرّض الاديب الكاتب (حازم القرطاجني) على ان يشتغل بالفقه ويكفّ عن الادب ، فحضر حازم وجماعة عند المستنصر بالله الحفصي ملك افريقية وذكروا قرآءة ابن كثير (وكائن) واستغربوها ، وقالوا لم يحكَ منها في كلام العرب إلّا قول الشاعر :

وكائن بالأباطح من صديق

فقال لهم حازم : قد ورد منها ما لا يحصى كثرة ، فطالبوه بذلك فانشدهم في هذه اللغة الف بيت ، فجازاه المستنصر عن ذلك بالف دينار ذهباً ، فجآء حازم بها الى ابن البرآء وقال له :

ــ هذه مسالة من الادب أخذتُ فيها الف دينار ، فارني أنتَ مسالة من الفقه حصل بها المخبر الف دينار ؟ »

* * *

لا يألف الشكل إلا شكله

سليمان بن عمران القاضي [1] :

ينبغي للحاكم إذا شهد عنده الشاهد الغريب الذي لا يجد أحداً يعرّفه بعدالة او بجرحة ان يتعرّف حاله بحال جلسائه ومن يسكن اليه من طبقات الناس ، لانه لايألف الشكل إلّا شكله »

* * *

---

(١) سليمان بن عمران ، من تلاميذ اسد بن الفرات ، تولى قضاء القيروان بعد سحنون وتوفي سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣م) وقبره معروف مشهور

اللون الحبري

من كرم خُلُق أبي الفضل بن النحوي [١] ان شاباً من طلبة العلم بادر يوماً للسلام عليه والشيخ فى مجلسه ، فأراق الشاب دواة الحبر على ثوبه وكان أبيض ، فخجل الطالب خجلاً شديداً ، فتداركه الشيخ بقوله :

– كنتُ أقول أيّ لون أصبغ ثوبي هذا ؟ فالآن أصبغه حِبْرِياً »
وبعث بالثوب الى الصبّاغ .

* * *

التقشف حلية الرؤساء

ابن ابي دينار (في المؤنس) :

استدعى السلطان أبوزكرياء يحي الاول [٢] بعضَ وزرائه من (باب

(١) ابو الفضل يوسف بن محمد عرف بابن النحوي ، عالم كبير وصالح شهير من ابناء توزر ، توفي سنة ٥١٣ (١١١٩) بقلعة بني حماد بولاية قسنطينة

(٢) ابو زكرياء يحي بن عبد الواحد اول بني حفص ملوك تونس العالمين الصالحين ، له اعمال كبيرة بالبلاد ، وتوفي سنة ٦٤٧ (١٢٤٩) ودفن بالقصبة

الصّرف) في القصبة بعد انفصال مجلسه في الصباح ، والعادة عنده ان من استدعاه من ذلك الباب انما يستدعيه للعقوبة

قال الوزير : ـ فلما استدعيتُ أُدخِلَ بي من باب الى باب الى ان انتهيتُ الى باب قبّة السلطان ، فوجدته جالساً على كرسي من خشب وبيده إبرة وهو يرقّع ثوباً ، فسلمت عليه فامرني بالجلوس ، واذا بِخادم قد أتى بمائدة مُغطاة ، فلما رُفِع عن المائدة فاذا بها طعام واحد ورغيف غير نقي ، فاكل وأكلت معه ، فلما فرغ قال لي : ـ انصرف بسلام » فخرجت ووقعت في نفسي حيرة فاخبرت بذلك بعض اصدقائي فقال لي : ـ وما صنعت ، ؟ ـ قلت : ـ لا شيء ، الّا اني لما دخلت عليه نظر لي شزراً . فقال لي صاحبي : ـ دخلتَ عليه في ثيابك هذه ؟ ـ قلت : نعم ! ـ فقال لي : ـ من ها هنا أُتِيَ عليك ، تراه أخبرك ان كسوته المرقعة ، وأكله الخَشن من الطعام ، من باب التقشف ، فان أنت انتهيت عن فعلك ولباسك الثياب الرفيعة ، والا فلا تلومنّ الا نفسك » .

طرائف الملح والفكاهة

اختلاف العلمآء رحمة

ابن العذاري (في البيان) :

كان أبو العباس بن الاغلب [1] أمير افريقية ـ قليل البصر بالعلم، غير عارف بالنحو والرسم على خلاف من آل بيته ، لكنّه كان منصوراً مؤيداً في حروبه وغزواته .

ذُكِرَ ان رجآء الكاتب كان يوماً بين يديه،فكتب الامير لحم ضَبي، مسقوطة ، فلما خلا المجلس قال له كاتبه :

ـ أيّد الله الامير ، الظبي يكتب بظاء مرفوعة

فقال الامير : ـ قد علمنا فيه اختلافاً ، فأبو حنيفة يجعله بالظاء ومالك يجعله بالضاد .

فعجب رجآء من جسارته

(١) ابو العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم ، خامس الامراء الاغالبة تولى الامر سنة ٢٢٦هـ، ومات سنة ٢٤٢ (٨٥٦)

لا يعرف الله

المـــالكي :

كان أبو محرز قاضي القيروان يوماً عند ابي العباس بن ابراهيم بن الاغلب وعلى رأس الامير عبدٌ له أسود،طويل القامة، عريض الاكتاف فقال الامير : ـ يا ابا مُحرز ، لو رأيت هذا وما يصنع في الغارات لرأيتَ عظيما . فقال أبو محرز : « انه لا يعرف الله » فقـال الامير : « وكيف ذلك ؟ » فالتفت أبو محرز للعبد وقال له : « محمد النبيء من الملائكة هو أم من الإنس؟ » فقال العبد : « هو ربيّ وربك ! » فقال ابو محرز: ربي وربك الله ! » ثم التفت الى الامير وقال له : « قد اخبرتك انه لا يعرف الله تعالى »

★ ★ ★

ابن من أنت ؟

حدّث محمد بن يحيي بن سلّام قال ، قلت لأبي :

ـ من أحسن من رأيتَ فيمن لقيتَ من الرجال خَلْقاً

فقال لي ـ ابن جارود الكوفي ، وكان عظيم الرأس ، أتاه اعرابيّ

فرآه يُفتي في العربية ، والفقه ، والشعر ، ونحن نسمع منه فقال ، ابن جارود للاعرابي :

ـ ألك حاجة ، يا هذا ؟

قال : ـ نعـــم !

قال : ـ سل عما بدالك

فقال له الاعرابي : ـ إبن من أنتَ ؟

قال ابن الجارود : أنا ابن من سجدتْ له الملائكة !

فاتكأ الاعرابي على يديه وجعل يرجع الى خلفه ويقـول : ـ تالله ، انك لتقول يا ذا الرأس ـ قولاً عظيماً .

ولم يفهم الاعرابي مراده،وانه قصد بابيه آدم وقد سجدت لهالملائكة

* * *

ما طالت إلا حمقت

أبو العرب (في طبقاته) :

كان ابو الربيع اللحياني عظيم اللّحيَة جداً،وكان من أجل أصحاب

سحنون ؛ دخل يوماً على محمد بن الاغلب أمير افريقية ، فكلّمه ووعظه، فقال له ابن الاغلب : ـ ما طالت إلّا حمقت !

فأجابه ابو الربيع : لا تفعل،ايها الامير، فان الله عزّ وجلّ يقول: (والبلدالطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خَبُثَ لا يخرج إلّا نَكِدًا)

وكان محمد بن الاغلب وجهه كَوْسَج ليس فيه إلّا شعرات يسيرة ، فخجل الامير ولم يعد اليه .

* * *

من طباخ الى رواس

الخشني :

دخل رجل على القاضي سليمان بن عمران [1] وأعلمه ان الوزير علي حُمَيْد أندر فيه بنادر ، فقال سليمان : ـ وما هو ؟ ـ قال الرجل :

---

(١) سليمان بن عمران ، من تلاميذ اسد بن الفرات ، ومن اصحاب سحنون مولده سنة ١٨٣ (٧٩٩) كان من افضل علماء القيروان واذكاهم ، وشغل خطة القضاء اكثر من خمسين عاما ، وكان حنفي المذهب ، وكانت بينه وبين الوزراء من بني حميد منافسة ، وتوفي سنة ٢٧٠ (٨٨٣) واخباره في الذكاء والالمعية كثيرة .

ـ أمر اليومَ طبّـاخه فاتـاه في سُفرته بصورة رأسك بقلَنْسُوَتك ولبـاسك وجميع هيئتك ، فجعـل ياكله هو واصحـابه ويضحكون »

فارسل القاضي سليمان الى علي بن حميد الوزير يقول له :

« الناس ينتقلون من حَال الى أشرف منها وأنتَ ترتكس ، كنتَ عند الناس طبّاخاً فرضيت ان تُصبِحَ روّاساً ! »

وذلك انه بإحكام دار علي بن حُمَيْد الطبخَ كان يضربُ المثل في القيروان .

* * *

نصف صلاة اليهود

الخشني :

دخل أبو يحي بن قادم على ابراهيم الفزاري المعتزلي [١] فقـال له :

ـ ما الذي تنظر فيه اليوم ، يا فزاري ؟

فقال : ـ في كِتاب ابن عُلَيَّة

(١) ابراهيم الفزاري من مشاهير المعتزلة بالقيروان ، مات مقتـولا سنـة ٢٦٩ (٨٨٢).

فقال ابن قادم : ـ ذلك الذي يفتي بإجازة صلاة اليهود ؟

فقال الفزاري : ـ وكيف ذلك : ـ

فقال ابن قادم : ـ لانه يدعى ان الصلاة بغير قرآءة جائزة، وصلاة اليهود بغير قراءة

فقال الفزاري : ـ فما تقول أنتَ ان قرأ في ركعتين وترك القرآءة في ركعتين ؟

قال ابن قادم : الصلاة جائزة

فقال الفزاري: ما أراك الّا وقد تقلّدتَ بعض ما انكرت،أجزت نصف صلاة اليهود وأبطلت النصف

فقال ابن قادم : ـ ما أراك تموت موتتك ، يا فزاري »

* * *

فــأر في الماء

عياض (في المدارك) :

ابو القاسم الطُّرُزّي محتسب [١] القيروان ، مرّ يوماً ببعض أزقّتها

(١) ابو القـاسم محمد بن محمد القيسي المحتسب ويعرف بالطرزي ، نسبة الى جبل (طرزة) في وسط البلاد التونسية ، ويظهر ان اوائله من العرب القادمين واستوطنوا هناك قديما ، وتفقه هو بالامام سحنون ، وتولى مظالم القيروان واحكام اسواقها مدة طويلة ، وتوفي سنة ٣١٧ هـ. (٩٢٩) — والمحتسب هو متولى الحسبة وهي وظيفة شرعية كان يقوم صاحبها بحفظ النظام العام في المدائن الكبيرة بمثابة المجالس البلدية الآن ، ولنظره امناء واعوان ،

فوجد قناةً يخرج منها ماء عطّل الطريق على السابلة ، فبحث عنه فوجده خارجاً من دار محمد بن زرقون إمام الجامع ، فساله عنه :

فقال : ـ فَأْرٌ وقع لنا في البئر

فاجابه المحتسب : ـ وماء فار أيضا

وأمر بسجن ابن زرقون، فلما حضرت صلاة الظهر مضى المحتسب الى السجن وصاح به وأخرجه ، وقال :

« والله لَوْلا انك إمام والناس لا يستغنون عنك ما اخرجتك ! »

* * *

امتهان الوشاة

المـــالكي :

حكى ابو عبد الله بن الخرّاط : ان الامير ابراهيم بن احمد الاغلبي أولى محمد بن الفرج بن البنـاء [1] قضاء ولاية قسطيلية . بـلاد الجريد

(١) عبد الله بن محمد بن الفرج المعروف بابن البناء ، مولده سنة ٢٣٥ بالقيروان ، وكان من اهـل العلم والدراية والفقه والرواية حتى قيل انه لم يكن في عصره اعلم منه باصول الاحكام والقضايا ، تولى عدة خطط شرعية قام باعبائها بنزاهة وبراعه ودين وتوفي سـنة ٣٠٣ (٩١٥ م .)

الآن ـ فسعى بعض الاوباش ورفعوا عليه البغي ظلماً حتى عزله الامير، بعد ان كان للقاضي مع جماعة منهم قِصَّة عجيبة ؛ وذلك ان البريد قدم من رقادة الى عامل قسطيلية بسِجِلٍّ عزل ابن البنّاء ورفعه الى حبس الامير ، فلما بلـغ البريد الى توزر وجد العامل غائبـاً في مهمّة وكاتبه جالساً في مكانه ـ فسال الكاتبُ صاحبَ البريد : « ما الذي جئتَ به في هذا الكتاب ؟ ـ قال: بعزل القاضي ابن البناء ورفعه الى رقادة، فارسل كاتب العامل البُشرَى الى القوم الذين كانوا سعوْا به ولاغوه وبسببهم نزلت به النازلة ، فاتى الواشون سراعاً الى دار العـامل فاختبروا ذلك فصحّ عندهم ما أتى به البريد من عزله وارساله مقيّداً ، فاستخفّهم الطيش الى ان قالوا : نسير الى القاضي في مجلسه فنشتمه ونشفي صدورنا منه »

فاتوه في مجلس قضائه ولا علم عنده بما أتى من عند الامير ، فصبّوا عليه من أنواع السبّ ما أحبّوا، فلم يشكّ ابن البناء انهم لم يجسروا عليه بذلك إلّا وقد أيقنوا بعزله ، ونظر الى نفسه في مجلس قضائه لم يصل اليه خبر العزل لغياب العامل ، فصاح : « من هَا هُنـا من الاعوان ؟ » فابتدروه ، فامرهم بامساك الوَشّاة ، وعصّبهم الى أعمدة المجلس رجلاً رجلا ، وأمر بضرب كل واحد منهم ضرباً وجيعاً ،ونكّلَ بهم جميعاً، وأمر بتقييدهم في الحديد وأودعهم السجن ، وساعده القـدر فيهم قبل ان يقدم العامل حتى نفّذ فيهم ما أحبّ .

ثم أتى العامل من مغيبه إثر ذلك ، فارسل الى القاضي وأوثقه وأرسله الى رقّادة ؛ فلما قدمها تولّى مناظرته القاضي عبد الله ابن عبدون بين يدي الامير ابراهيم،فابان ابن البنّاء عن نفسه ، وكشف عن الشُبَه المرفوعة عليه ، فرفع الامير رأسه الى فتاه (بَلّاغ) وقال له بالصقلبية[1] : « اني أرى هذا الرجل - يريد ابن البناء - يستحقّ ان تُنزَعَ قلنسوة القاضي - يعني ابن عبدون - وتجعل على رأسه ! » ثم ان الامير أرضى ابن البناء بعد ذلك وضمّه الى كتابة قاضيه برقادة عيسى ابن مسكين . »

* * *

لكل امرىء من دهره ما تعودا

ابن رشيق (في الانموذج) :

كان محمد بن مُغيث شاعراً ، مطبوعاً ، مُرسل الكلام ، يقع على النُكَت ويصيب الاغراض ، وكان مفتوناً بالخمرة مبتذلاً فيها ، مُدمناً عليها .

---

(١) قوله : بالصقلبية اي بلغة الصقالبة ، وهم اقوام من الافرنج كانوا قاطنين أواسط القارة الاروبية وشرقيها ويوتى منهم بالخدم والمماليك البيض الى بلدان المشرق .

ساله بعض اخوانه في مرضه الذي مات منه :

- هل تقدر على النهوض لو رُمْتَهُ ؟

فقال : لو شئتُ مشيتُ من هُنا الى حانوت ابي زكرياء النبّاذ .

قلت : - والى الجامع ؟

قال : - لا ، ثم قال : لكل إمرىء من دهره ما تعودا

ولم تجرِ العادة بذلك .

* * *

ابن غانم وأبو المضرج

عياض (في المدارك) :

اتصل بعبد الله بن غانم [1] في مدة قضائه بالقيروان ان الشاعر ابا

---

(١) عبد الله بن غانم قاضي افريقية على عهد ابراهيم الاول من بني الاغلب ، واخباره في الدين والعلم والورع والتواضع والفصاحة مشهورة معروفة ، وكان ابوه مذكورا في عرب افريقية في مدة بنى امية حتى اصبح بيت بني غانم الرعيني من اشهر بيوت القيروان وانبهها ، وقد تقدمت لهذا القاضي مواعظ ونوادر فيما سبق .

المُضرّج هجاه وهجا اهله بني غانم ، فضجر القاضي منه ، فقال بعض خواصه : ـ ليس لك الّا (أبا الوزن) فانه يبغض ابا المضرج ويلقاه بكل مكروه. ـ وكان ابو الوزن هذا مضحكاً ضعيف الشعر ،فاستدعاه ابن غانم الى بيته وقال له : ـ بلغني انك جهوري الصوت بَعيده، ونحن نُحِبُّ من يؤذّن في الجامع. ـ وقال القاضي لبعض فتيانه : ـ ادفع لابي الوزن خمسة اقفزة قمحاً ومثلها زيتاً ومائة درهم حتى ننظر في امره »

فلما قبض ابو الوزن ذلك قال للذي أتى به الى القاضي : ـ والله انها قِصّة ! فاني لا أصلح ان أكون مؤذّناً » ـ فاخبره الغلام بالامر،فقال ابو الوزن : ـ قد كفي إن شاء الله ـ وكان ذلك قبل احد الاعياد ؛ فدخل ابوالوزن يومَ عيدٍ على الامير ابراهيم بن الاغلب في جملة الشعراء وبعد أن حيَّ نظر الى الامير وانشده .

اني واني وانـــني وانَـــا   واهل بيتي معظمو الامرآء

ثم اشار الى ابي المضرّج ، وقال :

ان اباكم المُضَرّجيُ شاعركم   يضرط في الشِعر كلّما شَعُرَا

(قال القاضي عياض الناقل لهذه الحكاية : ـ وبعد هذا بيت قبيح تركناه لفحشه ورفثه وان كان بيت الابيات الثلاثة)

فضحك الامير ومن حضر ، وانكسر خاطر ابي المضرج وعَلِمَ من حيث أُتِيَ ، فجآء في المساء الى ابن غانم معتذراً ، مقسماً انه ما هجا احداً من أهل بيته،فاظهر ابن غانم ان لا علم عنده بشيء من القضية ، فساله ابو المضرج كفّ ابي الوزن عنه ، فامره ابن غانم بذلك ، فقال ابو الوزن : ـ لا والله، حتى أُعطى ما أُعطيتُ حين هجوته ، فامر ابن غانم له بمثل ذلك ، وكُفِيَ شرّ الهجّائين . »

* * *

الفقر والغناء سوآء

الخشني :

من سكان القيروان في القرن الثالث شخص يعرف بابن عُمَيْر كان مَلِيًّا بخيلاً بما في يده ، قال له ابن اخيه يوماً :

ـ يا عمّ ! إنك من الاملياء الكبار ، وانت لا تنتفع بمالك ، فما فضلك على الفقير ?

فاجابه ابن عمير : ـ إذا خاف الفقير أمنتُ انا ! »

★ ★ ★

كفارة اليمين

الخشني :

أتى ابن الاشج [1] الى ابراهيم بن ابي حفص في كِتاب يستعـيره ، فقال ابن ابي حفص : ـ عَلَيَّ فيه يمين ألا أعيره

فقال ابن الاشج : ـ تُكفّر عن يمينك

فقال له : ـ هي من الايمان التي لا تُكفّر

فقال : ـ وما اليمين ؟

فقال : المشيء الى مكّة راجلاً

فقال ابن الاشج : ـ فان عائشة تذهب في المشيء الى كفارة اليمين، وقد قال النبيء ﷺ : (خذوا نصف دينكم عن عائشة)

فقال له ابن ابي حفص : ـ فقولها في المشيء من النصف الذي لم نؤمر باخذه عنها »

* * *

(١) عبد الله بن محمد بن الاشـج ، من علماء القيروان ، كان حنفي المذهب ومن اهل الجدل والكلام ، رحل الى المشرق في طلب العلم ، وعاد الى بلـده ، وتوفي ٢٨٦ (٨٩٩)

سليمان وليلى

ابن رشيق :

كنتُ اميل الى قيْنَـة اسمها ليلى ، فعشقها بعض حراس الحصون يسمّى بسليمان ، وكان يحسب خدمتها وكنس بيتها منزلةً لا يُثْـلَم جاه متوليها ، فنهيتُه فلم ينته ، فقلت :

ظنّ ان الحصون ملك سليما ... ن وليلى بجهله بلْقيْسا

وله في العصا مئارب اخرى ... حاش لله ان تكون لموسى

* * *

التماس الدعآء من الصلحآء

ابن رشيق :

« دخل بكر الصابوني [1] على صاحب له فوجـد عنده جماعة من

(١) بكر بن علي الصابوني ، من ظرفاء شعراء القيروان ، مات سـنة ٤٠٩ (١٠١٨م.)

اخوانه يشربون ، منهم ابن ابي حفص الكاتب ، ورای برذونه قائما في السقيفة ، فقال لهم بكر :

ـ كم لكم هَا هُنَا ؟

فقالوا : ـ كذا وكذا يوماً

فشرب معهم نهاره اجمع وليله واراد الانصراف من الغد،فافتقد رداءه ودراهم كانت معه ، وسال القوم فما وقع على عيْن ولا اثر ، فقال لابن ابي حفص:

«سالتك بالله الَّا ما نزلتَ بنا الى هذا العبـد الصالح فاستوهبتَ لنا منه دعوة بان يفضح الله سارقنا او يجمـع علينا ما راح منا ، فانه صائم النهار قائم الليل»

فقال ابن ابى حفص : ـ وايّ عبد يكون هذا ؟

قال بكر : ـ برذونك ، يا سيدي

فضحك الجماعة وجبروا ما ضاع له .

* * *

الصلاة على الميت

المـــالكي :

محمد بن زُرْزُرْ من علمآء القيروان وادبائها المعروفين .

حضر مرة جنازة التقى فيها بابي المنهال الفقيه، وكان عظيم الجاه، رفيع القـدر ، فساله ابن زرزر عن مسالة من الفقه فاخطأ فيها، ثم مسالة ثانيـة اخـطأ فيهاايضاً ، فقـام ابن زرزر على قـدميه ثم كـبّر وصلّى عليـه كما يُصلّى على الميت ، وقال له :

ـ انت أولى ان يُصَلّى عليك من هذا الذي حضرنا جنازته ! »

* * *

أبو الزير

الخشني :

احمد بن وهب من ابنـآء القيروان ، تولى قضـاء طرابلس في مدة الامير ابراهيم الثاني من بني الاغلب ، وقيل انه كان قليل العـلم ، كتب مرة الى الامير من ضمن رسالة : حفضك الله ، ولم يرفـع الظاء ، فقـال الامير: خفضني ، خفضه الله ، ثم عزله

وقيل انه كان يُنعتُ بـابي الزير ـ والزير هو الخابية قـديما ـ وانما كُنِّيَ هذا الرجل بذلك لانه عمل نبيذاً جعـله في زير وأراد يوماً ان يذوقه ولم يجد آنية يدخلهـا ليغرف منه ، فادخـل راسه في الزير ثم لم يستطع ان يخرجه منه بعد محاولة طويلة حتى كسَّر الزير ، فلقِّب من وقتئذ بابي الزير

* * *

الحنين الى الوطن

غاب الرئيس ابو الحسن علي بن ابي الرجـال [١] مدة عن القيروان فاشتاق الى رؤية من كان له من الاهل والاحباب ، فانشد :

ولي كَبدٌ مكلومةٌ من فراقكم	أُطَامِنُها صبْرًا على ما أَجَنَّتِ
تمنّتكمُ شوقـاً اليكم وصَـبْوَةً	عسى اللهُ ان يدنِي لها ما تَمَنَّتِ
وعيْن جفاها النومُ واعتادها البُكا	إذا عَنَّ ذكرُ القـيروان استهلتِ

قال ابن رشيق معقباً : « لو ان أعرابيـاً تذكّر نجـداً فحنّ به الى

(١) ابو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني ، رئيس ديوان الانشاء في الدولة الصنهاجية بالقيروان ومربي المعز بن باديس ، كان في الدرجـة الرفيعة من معرفة الادب وفنون الشعر ، وتوفي سنة ٤٢٦ (١٠٣٤)

الوطن ، او تشوق فيه الى بعض السكن ، ما حسبتُه يزيـد على ما أتى به هذا المولّد الحضري المتاخر العصر . »

* * *

حلاَوة ، يا عبد !

عياض (في المدارك)

محمد بن بسطام الضبي من علماء سوسة المجيدين ، وكان كثير الكتب كثير العناية بها وبنسخها ، اشترى وصيفاً يصلح له القنديل إذا نسخ بالليل فكان يتخـذ له قصب السكر ويقطعه صِغَـاراً ، فاذا نعس الوصيف جعل في فيه قطعة ليزيل عنه النوم ويستمرّ هو في الكتابة .

* * *

التيس لا الكبش

الخشني :

كان بالقيروان رجل يُنعت بالكبش ، وكان له مشاركة في العـلم ، دخل يوماً على الامير ابراهيم الثاني من بني الاغلب .

فساله الامير : مِمَّن انت ؟

فقال : من قبيلة قيْس

فقال الامير : ممن في قيْس ؟

فقال : لا ادري

فقال الامير : ـ انت أولى ان يقال فيك التيس من ان يقال فيك الكبش ! فاستحى الرجل وولّى خارجاً ، واقبل بعد ذلك على معرفة الانساب .

* * *

عداوة الشعرآء

ابن رشيق :

عبد الله بن ابراهيم ويعرف بابن المؤدب [1] شاعر مهدوي ، خرج مرة من المهدية يريد صقلية فاسره الروم في البحر ، واقام عندهم مدة

---

(١) عرفه ابن رشيق بقوله : « كان شاعراً مشهوراً ، متصرفاً ، ذا حيلة ومكيدة ، مغريء بالسياحة والكيمياء والاحجار ، محروماً مقتراً عليه ، متلافاً ، اذا افاد شيئاً اتلفه ؛ وتوفي بالمهدية مسقط راسه سنة ٤١٤ (١٠٢٣)

طويلة الى ان هادن الامير ثقة الدولة الكلبي صاحب صقلية ملك الروم فبعث اليه بالأُسرى ، وكان ابن المؤدب من جملتهم ، فمدح ثقة الدولة بقصيدة يشكره فيها على صنعه ، ومن هذه القصيدة :

ابيتُ أراعي النجم في دار غُربة ... وفي القلب مني نار حُزن تضرمِ

ارى كل نجم في السمآء محله ... ونجمي اراه في نجوم المنجمِ

ساحمل نفسي في لظى الحرب حملة ... تبلغها من خطبها كلّ معظمِ

فان سلمتْ عاشت بعزّ وان تمت ... الى حيث ألقتْ رحلَها أُمّ قَشْعَمِ

ورجا ابن المؤدب صلته،فلم يصله الامير بشيء ارضاه فتكلّم فيه ، فبلغ ذلك ثقة الدولة، فطلبه فاختفى عند من يعرف من اهل صناعته وطالت مدة اختفائه ، فخرج بعض الليالي وهو سكران ليشتري بقلاً فما شَعُر إلّا وقد أُخِذ وحمله صاحب الشرطة حتى ادخله الى ثقة الدولة

فقال له : ما الذي بلغني عنك ؟

قال : ــ المحال ، يا سيدنا

قال له : ــ ومن هو الذي يقول : « والحرُّ ممتحن باولاد الزنا ؟

قال : ــ هو الذي يقول: وعداوة الشعرآء بئس المُقْتَنَى !

فتنمّر ثقة الدولة ساعة ثم أمر له بمائة دينار رُبَاعي واخرجه من

صقلية كراهيةَ ان يقوم عليه غضبه ويعاقبه بعد ان عفا عنه ، فخرج ولم يعد .

والمستشهد به عجز بيتين من شعر المتنبي في قصيدته النونية التي يمدح بها بدر بن عمار ، ومطلعها :

الحبّ ما منع الكلام الالسنا　　　وألذّ شكوى عاشق ما اعلنا

★ ★ ★

فدية الديك

ابن عبد البر :

وُلِيَ رجلٌ مُقِلّ قضاء المهدية فابطا عليه رزقه ، وحضر عيد الاضحى وليس عنده ما يضحي به ولا ما ينفق ، فشكا ذلك الى زوجته، فقالت له : ـ لا تغتم ، فان عندي ديكا جليلا قد سمنته لك .

فلما كان يوم عيد الاضحى وارادوا اخذ الديك للذبح طار على سطوح الجيران ، فطلبوه ، وفشى الخبر في الجيران ـ وكانوا مياسير ـ فرقّوا لحال القاضي ورثوا له قلّة ذات يده ، فاهدى اليه كل واحد منهم كبشاً ، فاجتمعت في داره اكْبُش كثيرة ، والقاضي في المصلّى لا يعلم شيئاً من ذلك فلما عاد الى منزله ورأى ما فيه من الاضاحي قال لامرأته :

ـ من اين هذا ؟ كلّه ؟

قالت : ـ اهدى الينا فلان وفلان ، وسَمَّت جماعة ، ثم قالت : ما ترى ؟

قال : ويحكِ احتفظي بديكنا هذا فما فُدِيَ أبونا اسماعيل بن ابراهيم الخليل الّا بكبش واحد ، وفدي ديكنا بهذا العدد .

* * *

رقة الدين

كتب ابن رشيق القيرواني الى بعض الرؤساء يستعطفه :

انّي لقيتُ مشقّة　　　فابعث اليّ بشُقّة
كمثل وجهك حُسناً　　　ومثل ديني رِقّة

فوقّع الرئيس على مقطوعه : ـ « اما مثل دينك رقّة فلا يوجد بوزن امثال رمال الرقّة : وأجازه .

* * *

آمر بما يستطاع

ابن خلّكان (وفيات)

« بعث المعتمد بن عبّاد صاحب اشبيلية بالاندلس الى أبي العرب

الزبيري خمسمائة دينار وأمره ان يتجهّز بها ويتوجه اليه من جزيرة صقلية ، وهو من أهلها . وبعث مثلها الى أبي الحسن علي الُحصْري ، وهو بالقيروان ، فكتب اليه أبو العرب :

لا تعجبنّ لرأسي كيف شاب أسىً ... واعجب لاسود عيني كيف لم يشب

البحرُ للروم لا تجري السُّفينُ به ... إلَّا على غَـرَرٍ والـبَرُّ للعـرب

وأجابه أبو الحسن الُحصْري بقوله :

أمرتني بركوب البحر أقطعه ... غيري لك الخير فاخصصه بذا الدآء

ما أنت نوح فتنجيني سفينته ... ولا المسيح أنا أمشي على المآء

ثم دخل الحصري الاندلس بعد ذلك ومدح المعتمد وغيره من ملوك الطوائف .

* * *

حيتان حبك

ابن رشيق :

« جلستُ يوماً في دُكّان (أبي لُقمان الصَّفار) مع جماعة من شعرآء القيروان ، وأبو لقمان (والدركادو) يلعبان بالشطرنج ونحن نضحك لما يجري بينهما من غريب المهاترة

فقال الدركادو : ـ أجز ، يا ابا لقمان :

حيتانُ حُبِّك في طنجير بلوائي

فقال ابو لقمان :

وفحم وجهك في كانون أحشائي

فقال احمد بن ابراهيم الكمُّوني : ـ قسيمك خير من قسيمه ـ فزها ابو لقمان وقال : ـ أدافع في بديع الشعر ، وهذا شعري في التَّهَاتِه [١] .

* * *

أكل الاواني

احمد بُرْنَاز (في الشُّهُب المُحرقة) :

بلغني ان بعض أجداد القلشانيين [٢] صنع مرة طعام وليمة ، استدعى اليه اعيان حضرة تونس من سائر الطبقات ، فالذي حضر اولاً أكل الطعام المنصوب على الموائد من حلويات وغيرها ، والذي

---

(١) التهاته : ـ الاباطيل والترهات

(٢) القلشانيون ـ من بيت علم ورئاسة تقلب افراده في المناصب العلية العالية كالقضاء والافتاء مدة طويلة على عهد الدولة الحفصية وبعدها

حضر آخراً أكل الاواني . وذلك انه اتخذ تلك الاواني من السكر وقدّر لكل آنية كم تصبر لكل صنف من الطعام .

★ ★ ★

فساد البر والبحر

الزركشي (في تاريخ الدولتين) :

كان يعقوب المنصور الموحّدي[1] موصوفاً بالعدل والعلم ، مشهوراً بحسن التوقيع .

طلب مرة من قاضيه أن يختار له مُعَلّماً او معلّمين لتهذيب ولده ، فارسل القاضي اليه برجليْن مع رقعة يصفهما له ، وكتب فيها : اما الاول فهو بَرٌّ في دينه ، واما الثاني فهو بَحْرٌ في علمه . »

فاختبرهما المنصور بنفسه فاكذبها الاختبار ، ووجدهما ليس كما قال القاضي ، فكتب المنصور على عيْن الرقعة ... « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : (ظهر الفساد في البر والبحر)

(١) السلطان ابو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور ، ثالث الامرآء من بني عبد المؤمن الموحدين ، تولى من سنة ٥٨٠ الى ٥٩٥ (١١٩٩) وكان ملكه يمتد من المغرب الاقصى الى افريقية التونسية الى الاندلس .

الشم بالنظر

ابن رشيق :

« اجتمعتُ بابن أبي حديدة الشاعر وأنا سكران ، فسألني عن حال المكان الذي كنت أنا فيه ، فوصفته وأفضتُ في صفته الى ذكر الساقي ، فقلت في عرض الكلام ولم أدْرِ الوزن :

فشربتها في راحتيه كأنها من وجنتيه

وكأنها في فعلها تحكى الذي في ناظريه

وقلت له : ـ أَجِزْ ، فقال :

وشَمَمْتُ وردةَ خدّه نظراً ونرجسَ مقلتيه

فقلت له احسنتَ في شمّك بالنظر كما سمع أبوالطيب المتنبيء بالبصر حيث يقول : كالخطّ يَمْلأُ مسمعي مَن أبْصَرَا .

* * *

كصباح ابن أكثم

القلقشندي (في صبح الاعشى)

طلب الامير ابو العباس الحفصي يوما كاتب انشائه يحي بن أجاد[١] وكان يحي ثَمِلا في ذلك اليوم ، فكتب يعتذر الى الامير :

أصبح العبد يحي	كصباح ابن أكثم[٢]
شغلته الحميا	وهو بالامر متهم
فخشى من رقيب	فرأى الدار أكتم

فلما قرأ الامير الرقعة وقّع عليها بخطّه :

قر عيْناً بعيش	صَفْوُهُ بك قد تمْ
أنْتَ أزكى عبيدي	هَا هُنَا أو ثَمّ

فكان ذلك سبباً في توبة يحي

(١) ابو زكريا يحي بن ابراهيم بن أجاد الكومي من مشاهير كتاب الدولة الحفصية في القرن الثامن ،

(٢) قوله : ابن اكثم – يشير الى يحي بن اكثم التميمي ، قاضي قضاة المأمون الخليفة العباسي ببغداد ، وكان على علو قدره وسعة علمه وجاهه يتهم بأمور شاعت عنه وتناقلها الناس وتداولها الشعراء ، منها حبه لشرب الخمر – وتوفي ابن اكثم سنة ٢٤٢ (٨٥٧)

خيلان خد العجوز

ابن سعيد الغرناطي :

سافر محمد بن أبي الحسيْن[١] من تونس فنزل في طريقه على من قدّم له مشروباً أسود اللون غليظاً ومعه خروب وزبيب أسود كثير الغضون جاءت به عجوز فى طبق ، فقال الرئيس :

ويوم نزلنا بعبد العزيز	فلا قدّس الله عبد العزيز
سقانا شراباً كلون الهفا	وأثقلنا بقرون العنوز
وجاءت عجوز فاهدت لنا	زبيباً كخيْلان خدّ العجوز

★ ★ ★

لا حق لغاصب

ابو الفضل علي بن الزيات[٢] كاتب أديب ، خرج يوماً مع بعض

(١) محمد بن أبي الحسين ، من بيت شرف وعلم وفضل تولى الحجابة ورئاسة الحكومة في اوائل الدوله الحفصية ، وتوفي بتونس سنة ٦٧١ (١٢٧٢)

(٢) ابو الفضل علي بن عبد الجبار بن الزيات السوسي ، احد كتاب الانشاء بالدولة الحفصية ، كان فاضلا مليح الترسل رقيق الشعر ، خرج من افريقية للحج فطاف الاقطار الشرقية الشام والعراق ، وادركته الوفاة بالموصل سنة ٦٢٣ (١٢٣٤)

أصحابه للنزهة في حـــديقة غناء في احدى قـرى الموْصل بالعـراق ، فانشدهم للتفسه :

يَغْرِسُ ورداً ناضراً ناظري ... في وجنة كالقمـر الطّالعِ
فَـلِمَ منعـتم شفتي قَطفَـه ... والحكم ان الـزرعَ للزارع

فاجابه بعض أدبآء تونس :

قُلْ لابي الفضل و مَن فضله ... أعيـا به مغربنـا المشرقُ
غَرسْتَ غصباً وطلبت الَجنى ... ليس لعـرف ظـالم حـقُّ

إجـــابة رغبة

طلب مني بعض الابنآء الروحيين أن آتي بشيء من ترجمة ثلاثة أدباء ، تونسيين من مشاهـير الكـتّاب الذين زانوا محافـل العلم والادب والفن في عصرهم ، وتركوا من المآثر ما يخلّد ذكرهم ، وهم :

ـ الاول : ابراهيم المشهور (بالكاتب الرقيق) أبو التاريخ الافريقي وصاحب المصنّفات الممتعة التي يرجع اليها كلّ باحث عن أخبار البلاد التونسية و نُظمها ومجتمعها فيما قبل الزحفة الهلالية .

ـ الثاني احمد : التيفاشي القفصي ، واضـع أول موسوعة عربية جمعت أهم المعلومات عن الفنون الطبيعية والادبية في القرون الوسطى الاسلامية .

ـ الثالث : (عليّ الورداني) الكاتب والشاعر المـاهر الذي عاش أوائل القرن الحاضر ، وكان في مقدّمة خرّيجي (المدرسة الصادقية)، وعُـرِف بخبرته باحوال جانب من بـلاد المشرق والمغرب ، وسافر الى الاندلس وتجـوّل في أرجائها ، وسبر اخبارها ورسم مشاهداته في تقييد رحلته .

* * *

ـ ١ ـ الكاتب الـرقيق

ابراهيم بن القاسم ، ابو اسحاق المعروف بالرقيق ـ والرقيق لَقَب له وليس هو اسمه كما ظن بعض الكتّاب ـ منهم ابن خلدون ـ انه لقب ابيه فوسمه بابن الرقيق وهو وَهْمٌ .

مؤرخ قيرواني جليل وأديب بليغ ،في مقدمة كتّاب افريقية المجيدين في عصر حضارتها الزاهرة ، ونضارتها الباهرة ، وقد يعتبر بحقّ إماماً للتاريخ التونسي ،

ومما يوجب الاسف الشديد انه لم يكن لدينا من اخباره الا نبذ يسيرة ، مبعثرة هنا وهناك جمعناها إذ لم نجد من بين الاخباريين من وفّاه حقه وعرف بحياته كما نود ونشتهي .

وغاية ما توصلنا الى معرفته من انبائه انه ولد بالقيروان في منتصف الرابع للهجرة في حوالي الوقت الذي انتقل فيه الفاطميون من افريقية الى مصر عَقب تاسيس القاهرة المعزية،وانه بعد ما قرأ واتقن الفنون الادبية باشر خطة الكتابة الخاصة ـ ولذلك سمي بكاتب الحضرة في في الدولة الصّنهاجية ـ وحافظ على هذه الخطة ما يقرب من نصف قرن أي في أيام المنصور بن يوسف بن زيري وابنه باديس وابنه المعز .

وفي خلال تلك المدة صاحب أولئك الامراء في اسفارهم وحروبهم لقبائل المغرب الاوسط ، وتوجّه مرتين او ثلاثا سفيراً عن مُخدوميه الصنهاجيين الى مصر بقصد تاكيد علائق الولآء التي تربط امارة افريقية بالدولة الفاطمية

فسافر في سنة ٣٨٦ ﻫ (٩٩٦) من طرف المنصور ، ثم فى سنة ٣٨٨ لتهنئة الحاكم بامر الله بالولاية ، وقد حمّله الامير باديس بن المنصور بهدايا ثمينة مع سجل التهنئة فلما مثّل الرقيق لدى الحاكم انشد قصيدة عصماء.

وقد ذكر فيها المسيرة من القيروان الى مصر ، فمن ضمنها :

إذا ما ابن شهر قد لَبسْنَا شبابه   بَدَا آخر من جانب الافق يطلعُ
الى ان أقرت جيزة النّيل أعيناً   كما قرّ عينا ظاعن حين يرجع

ومنها في إخلاص مخدومه باديس :

هدية مامون السريرة ناصح   أمين إذا خان الامينُ المُضَيَّعُ
وما مثل باديس ظَهيرَ خلافة   اذا اختير يوماً للظهيرة موضع
نصير لها من دولة حاتمية   إذا ناب خطب او تفاقم مقطع
حُسام أمير المؤمنين وسهمه   وَسَمّ ذُعاف في أعاديه منقع

وهي طويلة كلها عيون .

وبعد ما ادى رسالته على احسن حال وحمـــدت سفارته عاد الى الوطن ، وكثيراً مـا حنّ كاتبُنا الرقيق الى ربوع النيل الفيحاء ومعالم القاهرة الشامخة البعيدة ، فيجيش خاطره بالشعر الوجداني الشائق فمن ذلك ما كتب به الى بعض خلّانه بمصر .

هَل الريحُ إن سَارت مشرقةً ... تُؤدي تحيّاتي الى ساكني مصرِ
فما خطرت إلّا بكيتُ صبابة ... وحمّلتها ما ضاق عن حمله صدري
تراني اذا هَبّتْ قبولا بنشرهم ... شممتُ نسيمَ المسكِ في ذلك النشر
ليـال انسناها على غُرّة الصِبا ... فطابت لنا اذ وافقت غُرّةَ الدهر
لعمري لئن كانت قِصاراً اعدّها ... فلستُ بمعتـد سواها من العمر
فكم بين بستان الامير وقصره ... الى البركة الزهرآء من زهر نضر
تراها كمرآة بدتْ في رفارف ... من السُّنْدُس المُوَشّى يُنْشَرُ للتّجر
الى الجِيزة الدنيا وما قد تضمّنت ... جزيرتُها ذات المواخير والجسر
وبالمقسّ فالبستان للعين منظر ... أنيق الى شاطىء الخليج الى القصر

والقصيدة طويلة فيها ذكرى منتزهات القاهرة ووصف جمالها الخلاب ، فلتراجع في محلها .

وللرقيق شعر كثير عليه طلاوة وحـــلاوة ورونق أثبتنا منه

(١) الخطط للمقريزي ١ : ٣٧٠ ـ ومعجم الادباء ١ : ٢٩٠

نموذجاً في غير هذا [١] . وها اليك ما قال ابن رشيق في حق نظمه لما عرف به في « الانموذج » وقد نظر اليه من الناحية الادبية فحسب : « هو شاعر سَهْل الكلام مُحْكمه ، لطيف الطبع قويه ، تلوح الكتابة على الفاظه ، قليل صنعة الشعر ، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتاليف الاخبار وهو بذلك أحذق الناس ، وكاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة الى الآن . »

اما من الناحية التاريخية فإنا نجد رُوَاة الاخبار الذين بحثوا عن حوادث افريقية في القرون الاسلامية الاولى عِيَالاً على ما دوّن الرقيق وجمع حتى قال ابن خلدون [٢] : « ابن الرقيق مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان ، ولم يأتِ من بعده الا مقلد.» نكتفي بهذه الشهادة الجسيمة للدلالة على مكانته من بين الاخباريين الافريقيين .

ومما يؤسف له ايضا اغفال المؤرخين ذكر اخباره ووفاته حتى لا نعلم على التحقيق متى مات وسنحاول هنا تدارك ذلك .

وتقدم لنا انه سافر الى مصر بهدية من الامير باديس في سنة ٣٨٨

(١) المنتخب من الادب التونسي ، ط الاميرية بالقاهرة ١٩٤٤ ص ٦٢

(٢) المقدمة : ص ٤

حسب ما روى ياقوت ،وقد توهم بعض المتاخرين انها سنة وفاته فاثبتها امـام اسمه [١] حينما نجد ابن خلدون ينقل عنه فى حوادث سنة ٤١٧ ويقول عقب نقله : « هذا آخر ما حدّث به الرقيق من اخبارهم [٢] » اي اخبار امرآء صنهاجة » ، فلا شك ان وفـاته كانت بعد ذلك التاريخ ويؤيده ما ذكر ابن رشيق فيما قدّمنا من ترجمته من انه «كاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنـة الى الآن » يعني حـدود عـام ٤٢٥ وهو الوقت الذي الف فيه ابن رشيق كتابه « الانموذج »

ومما سبق يتضح ان وفاة الرقيق كانت حوالي سنة ٤٢٥ او بعدها بقليل وهذا غاية ما يمكننا ترجيحه .

اما تآليف الرقيق على كثرة ما صنف فـلم يصلنا منها الا النـادر ، وما موضوعه غير التاريخ،وبالرغم من سعينا المتواصل وبحثنا الشديد للوقوف على ماثرته الكبيرة وهو تاريخ افريقية . فلم يقدّر لنـا معرفـة وجوده لا في الخزائن العمومية ولا الخصوصية مع علمنا انه كان في حيز الوجود في آخر القرن التاسع ،وقد استمـد منه كبار المؤلفين المغاربة كالقاضي عياض في مداركه، والتيجـــاني في رحلته ، وابن العِذاري

(١) بروكلمان ١ : ١٥٥

(٢) تاريخ ابن خلدون ط الجزائر ٢ : ٥٩

المراكشي في « بيانه » وابن خلدون في تاريخـه ، بل استعمله من هـو اقرب عهداً منه الينا كالسخاوي [١] وبعض جغرافي الافرنج في القرن العاشر كالحسن الوزّاني الفـاسي المشهور باسم ليـون الافريقي (Léon l'Africain) والكاتب الاسباني مَرْمُول (Marmol) ويسميانه (Ebni Rachich) ولا ندري ان كان مـا يعزوه اليه المتـاخرون مثـل ابن ابي دينار القيرواني من الاخبار هو منقول عن الاصل مباشرة او بواسطة غيرهم من المؤرخين وهو الارجح .

ومهما يكن من الامر فان ضيـاع مثل هذا المرجع الاساسي أو على الاقل احتجابه عنا . مما يترك دائما فراغاً كبيراً في معلوماتنا التاريخية عن ماضي افريقية العربية .

لابراهيم الرقيق من المؤلفات :

١ ـ « تاريخ افريقية والمغرب » في عشر مجـــلدات وهو أثره الخالد،ابتدأ فيه اخبار الفتح العربي الى نهاية سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) كما اسلفنا ومنـه قسم مهمّ شَهِدَ المـؤلف حوادثه بنفسه كما يظهر ذلك من الانتقال عنه الواصلة الينـا ، وفي هـذا القسم يعتمد غالبـا عن الوثـائق

(١) الاعلان بالتوبيخ ص ١٢٢

التاريخية وربما اثبت المراسلات الدائرة بين الامراء بنصها، ولا غرابة في ذلك فانه باشر ديوان الانشاء مدة تزيـــد عن رُبع قرن كانت فيها الوثائق تحت تصرّفه إذا لم تكن من تحريره . وتقـدّم ان هذا التـاريـخ الجليل لا عين له اليوم ولا اثر ، وقد وضع عليه الاديب الكبير محمد بن شرف القيرواني ذيلاً أوصل به احداث البلاد الى حدود سنة ٤٤٥ ه ، ثم جآء ابنه جعفر بن محمد بن شرف واكمل ذيـل ابيه الى مـا يقرب من سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م) واخيراً ،قام الكاتب (الشاعرابو الصلت اميـة بن عبد العزيز الداني) واستـدرك على ذيل ابني شرف المتقـدمين ملحقـاً لكتاب الرقيق في اخبار افريقية الى ايام حياته، وتوفي ابو الصلت بالمهدية سنة ٥٣٦ (١١٤١ م)

وهذه الملحقات الثلاثة لتاريخ الرقيق لا يعرف لها وجود اليوم .

٢ ــ اخبار بني زيري الصنهاجيين ـ يشمل اخبار الامراء الثلاثة الاول منهم وهم : زيري بن منّاد وابنـه ابو الفتـــوح يوسف ، وابنـه المنصور ، وقد اشار اليه الرقيق عند كلامه على دولة المنصور (من سنة ٣٧٤ الى ٣٨٦) حيث قال : « وقد ذكرت سيرته وحروبه وعطـاياه في كتاب مفرد لاخبار جده وابيه واخباره [٢] » وهو مفقود ايضا

(١) رحلة التجاني ١٢٥ ، والحلل السندسية ص ١٧٠

(٢) البيان المغرب ١ : ٢٤٨

٣ ــ « نظم السلوك في مسامرة الملوك » يظهر من تسميتـه انه في المحاضرة والاداب في ٤ مجلدات لم يصل الينا ولم اعثر على النقل عنه .

٤ ــ « قطب السرور في وصف الانبذة والخمور »في جزئين ،وهو الكتاب الوحيد الموجود له الآن قال في مقدمته : وأودعته من امثال الحكمآء،ومنثور البلغاء،ومنظوم الشعراء واخبار الادباءوالظرفاء ، ما لا يستغنى عنه شريف ولا يجوز ان يخلو منه ظريف» ثم قال : وجمعت لك في الخمرة راي العرب وشعرائها وشيئا من علم الفلاسفة وحكمائها ، والى الله عز وجل الرغبة في الهداية الى صالح الاعمـال ، وبه المعاذ من الزلل في مقال وفعال ، ونستغفره من فعـل لا يرضيـه وقول يحث على معاصيه » قال الصفدي : ـ فضح ـ العالمين فيه » ـ منه نسخة كاملة في مكتبة برلين ، والجزء الاول في باريس والثاني في الاسكـوريال وفي غوطاوفياناوفي غيرها من المكاتب ــ واختصر في جزء واحد

٤ مكرر ــ « الصبوح والغبوق » في الخمريات ايضا يخرج في نحو ٧٠ ورقة ، رأيت منه نسخة عند بعض الكتبيين بالقاهرة تاريخها سنة ٦٨٨ ه ، وقد ذكر بروكلمان ٢ : ٥٦ ان الاديب محمد بن حسن المعروف بالنواجى القاهري المتوفىسنة ٨٢٠ له ك « الصبوح »في الموضوع نفسه ، ومنه نسخة في مكتبة برلين مقيدة تحت رقم ٨٣٩٦ والظـاهر ان هـذه

النسخة انما هي كـ « الصبوح والغبوق » للرقيق وانما قيد عليها اسم النواجي غلطا ووهما .

٥ ــ « معاقرة الشراب » نقل عنه ــ او بالواسطة ــ احمد المقري في نفح الطيب (٢ : ١١٤) وموضوعه فيما يلوح كقطب السرور المتقدم .

٦ ــ « الراح والارتياح » في الادب ، مفقود .

٧ ــ « الاغاني » نحافيه نحو ابي الفرج الاصفهاني ــ مجلد ضخم .

٨ ــ « النساء » في اخبار الشواعر وغيرهن من المشهورات .

٩ ــ كتاب « المتيمين » ذكره صاحب الخبر في معرفة عجائب البشر ــ خط ونقل عنه حكايات .

١٠ ــ « الاختصار البارع ، للتاريخ الجامع » عدة مجلدات (كذا ذكر الصفدي في الوافي بالوفيات)

ولاندري ان كان اختصاراً لتاريخه الكبير لحوادث افريقية والمغرب المتقدم أم هو موجز لغيره من التواريخ الاسلامية الجامعة كتاريخ الطبري وغيره .

ولا ريب ان للرقيق مصنفات غير ما ذكرنا ولم تبلغ الينا اسماؤها بدليل قول الصفدي عقب تسمية مصنفاته : وله غير ذلك »

مصادر : الوافي بالوفيـــات للصفدي ج ه (خـط) ــ معجم الآدباء ١ : ٢٨٧ ــ بروكلمان ١ : ١٥٥ . ــ كتاب العمر (خط)

* * *

ويسرّني جداً أن اختـم هـذه الترجمة ببشرى أزفها الى كل من له عناية بتاريخ افريقية التونسية والمغرب باسره ، وذلك انه وقع العثور أخيراً على جزء مفـرد من تاريخ الرقيق « في الخـزانة الملكية بالرباط عاصمة المغرب الاقصى .

وهذا الجزء ــ فيما علمت ــ يشمل أحداث افريقية من الفتح العربي الى الدولة الاغلبية ، وهذه الفـترة من التاريخ ــ وان لم يشاهدها الرقيق شخصيا وانما اعتمد في انقاله على كتب المغازي التي حررها ابنآء افريقية انفسهم في آخر القرنين الثاني و الثالث للهجرة ، وقد سبقت الإشـارة الى شيء من ذلك في الجزء الاول من هذه الورقات (ص ٩٩) .

ويعلم الله اني بحثت مدة خمسين عاما مضت عن « تاريخ الرقيق » أو شيء منه في مكتبات الشرق والغرب ولم أصل الى نتيجة حتى ظهر الان وجود ما ذكرت ، وهذا ما يحمل على عدم الجزم بضياع أي مخطوط كان مـا دام كثير من الخزائن لا فهـارس لمحتوياتهـا ، فعسى الظروف المقبلة تسمح بالعثور على غيره من المؤلفات ذات القيمة التاريخية التي تعتبر الان في حيز العدم ، باذن الله تعالى .

ـ ٢ ـ التيفاشي

أحمد بن يوسف بن أحمد بن ابي بكر بن حمدون بن حجاج القيْسي شرف الدين ، وينتسب اوائله الى بلدة (تيفاش) الكائنة الآن بشمال عمالة قسنطينة من القطر الجزائري ، ومولده بقفصة من مدائن البلاد التونسية سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وقرأ بمسقط رأسه حيث استقر أجداده وآباؤه من زمان بعيد ، وما منهم الا عـرف بالعلم والادب ، لا سيما منهم محمد عمّ أبيه الذي مدح أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي حين فتح افريقية سنة ٥٥٥ (١١٦٠) بقصيدة طالعها :

ما هزّ عَطفيْه بَيْنَ البيضِ والأَسَلِ
مثلَ الخليفةِ عبد المؤمن بنِ عَليِ

وقد أورد صاحبنا لاقاربه التيفاشيين كثيراً من قصائدهم ومقاطيعهم الشعرية ضمن مصنّفاته ،وكان والده يوسف قاضياً بمسكانه ، وانتقل احمد في صغره الى عاصمة تونس وقرا بجامع الزيتونة ، واشتغل بالادب والعلوم الرياضية وبرع في ذلك كله ، ثم سافر الى الديار المصرية ودرس

بها ، وتفنّن على موفّق الدين عبد اللطيف البغدادي الطبيب الطائر الصيت ، وتحوّل الى دمشق وقرأ على تاج الدين الكندي ، ثم رجع الى بلاده مملوء الوطاب فولّاه ابوزكرياء الاكبر ـ اول ملوك بني حفص ـ خطة القضاء ببلده قفصة ، وبعد حين ترك الوظيفة وقصد المشرق ، وأصابته في هذه السفرة كارثة مفجعة أورد خبرها في احدى تصانيفه المخطوطة ، قال :

« وجرى لي في المنام أمر عجيب في السّرَاج ، وذلك اني رأيت كاني جالس وبين يديّ ثلاثة سُرُج موقودة ، والى جنبي زوجتي وهي تنفخ على أحد السُّرُج لتطفِئَه ، فادركني عليها غيظ شديد ونهيتها عن ذلك ، فالّحت في النفخ عليه ، فاضطربتُ وقلت لها : « إن اطفاته فانتِ طالق ، فقَامت ونفختْ في السرج الثلاثة وأطفاتها ، ولم اكن قبل ذلك جرى على لساني للطلاق ذكر البتة ، ولا حدّثتُ نفسي بطلاقها قط ، وكان لى منها ثلاثة بنين ، واتّفق بعد هذه الرؤيا بايام ان مرضت فماتت، وركبتُ أنا وأولادي الثلاثة البحر، ومعي مال طائل ، فعطبتِ السفينة في البحر وغرق البنون الثلاثة والمال جميعه، ونجوت على لَوْح مسلوباً ، من الاهل والمال . »

وتجوّل التيفاشي في انحاء المشرق ، فدخل العراق وبلاد فارس ،

ثم عاد الى مصر واستقر نهائياً بالقاهرة ـ حدود سنة ٦٣٠ ـ واختلط بالطبقة العالية من الرؤساء وأعيان العلماء والادباء من بينهم الصاحب محي الدين محمد بن ندي القرشي ، واليه قدّم بعض كتبه كما نذكره بعد، ومنهم ابو الحسن علي بن سعيد الغرناطي المؤرخ الاديب الاندلسي المشهور ، قال المَقَّري . . « وُجِدَ بخط ابن سعيد في آخر جزء من كتاب (المغرب) ما نصه : « أجزت الشيخ القاضي الاجل أبا الفضل احمد بن الشيخ القاضي ابي يعقوب يوسف التيفاشي ان يروي عني مصنّفي هذا وهو (المُغْرب في محاسن المَغْرب) ويرويه من يشاء ثقةً بفهمه ، واستناداً لعلمه، كَتَبَهُ مصنّفه علي بن موسى بن سعيد في تاريخ الفراغ من نسخ هذا السِفْر » ومن اصدقائه في مصر جلال الدين مكرم ابن منظور الافريقي ، والد مصنف (لسان العرب) ، وقد عرّف هذا الاخير بالتيفاشي فقال : « ... وقد كنت في ايام الوالد رحمه الله .. أرى تردُّدَ الفضلاء اليه ... ورأيتُ الشيخ شرف الدين احمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم ، وانا في سن الطفولة لا ادري ما يقولونه ' .. غير اني اسمعه يذكر للوالد كتاباً صنّفه افنى فيه عمره ، واستغرق دهره ، وانه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب ... وتوفى الوالد ـ رحمه الله ـ في سنة ٦٥٤ ـ .. وتوفى شرف الدين التيفاشي بعده بمدة ... »

واشتهر التيفاشي بسعة العلم والرواية ووفرة الادب والاطلاع

الكبير على الكتب قديمها وحديثها، وكان يقرض الشعر بسرعة غريبة، وجلّ نظمه على الطريقة التي كان لها رواج في عصره من الاستغراق في التشبيه ، واستخدام التورية والجناس حسبما هو متعارف في القرون الوسطى الاسلامية ' وفي غضون مصنّفاته يذكر التيفاشي قِطعاً كثيرة من شعره ، نورد منها هنا بعض المقطوعات على سبيل المثال ، من ذلك قوله :

ويومٍ سرقناه من الدهر خلسةً
بل الدهر اهداه لنا متفضّلاً
أشبّهه بين الظلامين غرّةً
لحسناء لاحت بين فرعين أرْسِلاً

ومنه قوله في ظهور الفجر وزوال الليل :

نبّه نديمَك ان الديك قد صخَبا
والليل قوّض من تخييمه الطُنُبا
والفجر في كبد اللّيل السقيم حَكَى
سرّ المتيّم عن اجفانه غلبا
كانه بظلام الليل ممتزجاً
سمراء تفتر ابدت منسماً شنبا

كانما الفجر زند قـــادح شرراً
في فحمة الليل لاَقَى الفحم والتهبا
كانّ أول فجر فـارس حملت
راياته البيض في اثر الدجى فكَبَا
كانّ ثـاني فجر غرّة وضحت
تسيل في وجه طرْفِ ادهم وَثَبَـا

ومن قطعة له في وصف الزلزال :

أَمَا ترى الارض في زلزالها عجبًـا
تدعو الى طاعة الرحمن كلّ تقي ؟
أضحت كوالدة خرقــآء مرضعة
اولادها درّ ثــدْي حافل غَـدَقِ
قد مهَّـدتهم مـهـاداً غير مضطرب
وافرشتهم فراشاً غير مـا قَلِــق
حتى اذا أبصرت بعض الذي كـرِهتْ
ممـــا يشقُّ من الاولاد من خُـلُق
هزَّت بهم مهـــدَهم تَشَا تُنَهْنِهُهُمْ
ثم استشاطت وآل الطبـعُ للخَرَق

فصكّت المهد غَضْبَى فهي لافظةٌ
بعضا على بعضهم من شدّة البَرَق

وله في بقية نـــار :

كانما نـارنا وقد خمدت　　وجرهـا بالرمـاد مستورُ
دَمٌ جَرَى من فواخت ذُبِحَتْ　　من فوقه ريشهُنّ منثـور

وفي هذا المقدار كفاية .

ومنه يتضح ان في شعره ابداع واختراع يروق في آذان سامعيه .

ومن المناسب ان نورد هنا نموذجاً من نثره ، فمن فصل له عقده عن تطور الموسيقى في الاندلس وانتقال ألحانها من عصر الفتح العربي الى زمانه ، قال في الجزء الذي خصّصه للالحان :

. . « كان غناء أهـل الاندلس في القديم اما بطريقة النصارى ، وأما بطريقة حـداة العرب ، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه الى ان قامت الدولة الاموية ، وكانت مدة الحكم الرَبَضِي فوَفَـد عليه من المشرق ومن افريقية التونسية من يحسن صنعة التلاحين المدنية ، وأخذ الناس عنهم ، الى ان وَفَـدَ الامام المقدّم في هـذا الشـان (علي بن نافـع الملقب بزرياب) غلام اسحاق الموصلي على الامير عبد الرحمن الاوسط ،

فجآء بما لم تعهده الاسماع ، واتخذ السلطان طريقته ونُسِيَ غيرها الى ان جآء (ابن باجة Avenpace) الامام الاعظم ، فاعتكف مدة سنين مع جَوارٍ محسّنات ، فهذب « الاستهلال ، والعمل » ومزج غناء النصارى بغناء المشرق ، واخترع طريقة « الاجدالا » (؟) بالاندلس ، وقد مال اليها طبع اهلها ورفضوا ما سواها ، ثم جآء بعده (ابن جُودي) و (ابن الحمّارة) وغيرهما فزادوا الحانه تهذيباً واخترعوا ما قدروا عليه من الالحان المطربة ، وكان خاتمة هذه الصناعة (ابو الحسن ابن الحَاسِر) المرسي ، فانه ادرك فيها علماً وعملاً ما لم يدركه أحد ، وله في الموسيقى كتاب كبير في جملة اسفار ، وكل تلحين سمع بالاندلس والمغرب في شعر متاخر فهو من صنعته .. » الخ

وهذا النص في تاريخ الالحان الاندلسية التونسية خطير ومن الأهمية بمكان عظيم ، وتقدم لنا في البحث المخصص لتاريخ الموسيقى العربية في تونس ان ذكرنا فقرات من وضع التيفاشي في هذا المعنى ، فلتراجع هنـــاك .

والّف التيفاشي مصنّفات عديدة لم يصل الينا منها الا النزر القليل بالرغم من غزارة مادتها وتنوّع موضوعاتها ، نذكر من بينها ما امكننا الوقوف عليه او على تسميته فحسب ، وفي مقدمتها :

— « فصل الخطاب ، في مدارك الحواس الخمس لاولي الالباب » وهو موسوعة كبيرة في مختلف العلوم والتاريخ والآداب ، قدّمها في القاهرة الى الصاحب محيّ الدين بن ندي الجزَري القُرَشي المتقدم الذكر ، وقد جزّأها المؤلف الى اكثر من اربعين كتاباً كل واحد منها يبحث عن علم خاص او فن مستقل بذاته ، وجعل لكل كتاب تسمية خاصة ومقدمة مناسبة للبحث ، ولا يقل حجم كل جزء عن المائتي صحيفة في القالب الربعي ،فالموسوعة تتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار ،والقمر والشمس ، والنور والظلمة ، والسماء والكواكب ، والنجوم والبروج ، والماء والنار الخ ، ثم العالم الحيواني بما فيه من اصناف المخلوقات ، وكذا عالم الاحجار والمعادن وما الى ذلك ، وفي كل صنف منها ياتي بما قاله العلماء والحكماء المتقدمون من يونان وفُرْس وعَجَم وعَرَب ، فينقل افكارهم ويبسط آراءهم مؤيدة بالانقال والحكايات والاشعار المناسبة معزوة الى اصحابها ، ويخصص للطب كتاباً عنونه « بالشفاء » وآخر للموسيقى والرقص عند الشعوب المعروفة في وقته واسماه : « مُتْعَة الاسماع في علم السماع » ومن حسن الحظ ان وصل هذا الينا بخطه ، كما سنبيّنه ، ويعقد لتاريخ الامم كتابيْن لم نسمع بوجودها ، ومن أشهر اجزاء الموسوعة كتاب « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » يوجد مخطوطاً في كثير من المكتبات ، ومنه نسختان عندي ، وقد

ذكر فيه خمسة وعشرين نوعاً من الحجارة الكريمة تكلّم على كل حَجَر منها بانفراده وبخمسة اوجه: تكوّن معدنه، وجيده، ورديئه، وخواصه، وقيمته، وفي نظرنا انه أوسع ما كتب العرب في الموضوع، وقد حرّره في سنة ٦٤٠ (١٢٤٢) قال في مقدمته: « ومعظم الخواصّ المذكورة في هذا الكتاب مما جرّبته بنفسي أو وثقت بصحة النقل فيه عن غيري من المعتبرين فاحلت عليه، مسنداً ذلك اليه ».

وقد اعتنى المستشرقون الأوروبيون به من قديم فنشره الهولاندي (راو) S.F Rau مع ترجمة الى اللاطينية في مدينة أُتْرِخْتْ بهولاندة سنة ١٨١٨، وله ترجمة في مكتبة ليبسيخ بالمانيا

والتيفاشي - فيما علمنا - هو السابق بين علماء العربية في حلبته الى وضع موسوعة ضخمة يبلغ عدد اجزائها أكثر من اربعين كتاباً، فَسَبَق بذلك أصحاب المَعْلَمَات الكبيرة مثل علي بن سعيد الغرناطي (٦٢٣) والنوْيري (٧٣٢) وابن فضل الله العمري (٧٤٨) وصلاح الدين الصفدي (٧٦٤) والقلقشاندي (٨٢١) وغيرهم، وان كانت مراميهم تختلف عن بعضها بعضا.

وقد اغرت مجموعة « فصل الخطاب » معاصره جمال الدين محمد بن منظور صاحب (لِسَان العرب) على اختصارها، وتقدم ذكر كيف كان اتصاله به ومعرفته له، وقال ابن منظور بعد ذلك:

« ... فلما تذكرتُ هذا الكتاب بعد سنين، وقد جاوزت الستين فطلبته من كل جهة، فلم اجد من يدلّني عليه ... الى ان ظفرتُ به عند شخص من أصحابه ... فلم يسمح لي مع فقره ببيع ولا عارية ... الى ان قدر الله تَمَلُّكَه في سنة ٦٩٠ (١٢٩١) فرأيته مجرداً في مسوّدات وجزازات، وظهور وتخريجات، وقد جعله من تجزئة أربعين جزءاً، لم اجد منها سوى ستة وثلاثين ربطة، وهو في غاية الاختلال لسوء الحظ ... فضممتُ ما وجدتُ منه بعضه الى بعض... واستخرت الله في تعليق ما يختار منه، ورغبت في إبرازه الى الوجود... فانه روضة المطالع، ونزهة القلوب والمسامع، يسرّ به الخاطر، ويَقرّ به الناظر ... وسميت هذا الكتاب (أي الجزء الاول) « نثار الازهار، في الليل والنهار » ... الخ.

وقد اعتنى احمد فارس الشدياق بطبعه بمفرده في الجوائب ١٢٩٨ هـ وهو كل ما ظهر للخارج من هذه الموسوعة الخطيرة.

والحق ان ابن منظور أخلّ كثيراً بالكتاب في تغيير اسماء الاجزاء، وفي حذفه اقساما مهمّة جداً كانت تفيد الكتّاب والمؤرخين والادباء، وهم في حاجة أكيدة للوقوف عليها.

وبالاضافة الى هذه الموسوعة فان للتيفاشي مؤلفات أخرى مستقلة،

وبالبحث يظهر انها لم تكن داخلة في جملة الاربعين جزءاً المتقدمة ، واليك ما امكن العثور على تسميته منها :

٢ ـ الدرة الفائقة في محاسن الافارقة » والمقصود بالافارقة سكّان البلاد التونسية اليوم ، وكانت لا تُعرف قديما الّا باسم (افريقية) من لدن دولة الرومان الى عصر الاتراك . ولا يعرف لهذا الكتاب اليوم وجود .

٣ « سجع الهديل ، في اخبار النيل »

٤ ـ الديباج الُخسْرُوَاني ، في شعر ابن هاني » وهو شرح على ديوان محمد بن هاني التونسي الاندلسى .

٥ ـ « درّة الآلي في عيون الاخبار ، ومستحسن الاشعار »

٦ ـ نزهة الالباب ،فيما لا يوجد في كتاب » في المحاضرة والحكايات

٧ ـ « قادمة الجناح » في معاشرة النساء

وفي مكتبتي نسخة خطية للجزء الثاني من اختصار ابن منظور « لفصل الخطاب » اسماه التيفاشي : « طل الاسحار ، على الجلنار ، في الهوآء والنار ، وجميع ما يحدث بين السماء والارض من الاثار » تكلّم فيه عن الفصول الاربعة ، وعن دلائل المطر ، والبرد والصحو ، وعن

البرق والرعد والغيم والضباب ، وقوس قدح على مذهب العرب ، وعن السحاب والانواء ، وعن الارياح والاعصار والزلزال ، وعن الخسوف والكسوف، وعن النار ونار النفط، والصاعقة ، وعن اوصاف الشموع والفوانيس والقناديل والمسارج والمشاعل ، وغير ذلك .

وتوفي التيفاشي في القاهرة سنة ٦٥١ (١٢٥٣) ودفن بمقبرة باب النصر حيث قبور ابن هشام النحوي وابن خلدون وسواهم من العلماء الاعلام ، واجتهدت شخصياً في التنقيب في المقبرة المذكورة عن هذا الضريح وعن ضريح ابن خلدون فلم أظفر ـ وياللاسف ـ على واحد منهما.

وخلاصة القول ان التيفاشي كان من جلة علمآء القرن السابع الذين جمعوا شتات الاداب العربية والمعلومات المنبثّة في مصنفات من سبقهم،ودوّنوها في مجاميع ضخمة قامت مقام دائرات المعارف العصرية، فكانت المرجع الكبير لمن جآء بعدهم من الباحثين الى يوم الناس هذا ، فهي بلاشك مفخرة دائمة للعلوم والتاريخ والادب والفن .

مصـــادر :

له ترجمة وحيدة في « الديباج المذهب » لابن فرحون ، ط مصر ص ٢٧ ـ وشيء من اخباره في « الاعلان بالتوبيخ » للسخاوي ص ١٦٢

و « حلبة الكميت » للنواجي ، نقل عنه فصلا في الشراب ص ٢٠ — وكشف الظنون لحاجي خليفة ، في اماكن كثيرة — وفهرس مكتبة باريس ج ٢ — والمجلة الاسيوية الفرنسية سنة ١٨٢٨ : ص ٥ وما بعدها وبروكلمان ١ : ٤٩٥ — ومعجم سركيس ص ٦٥١

أقول ان أهم الاخبار عن حياة التيفاشي تؤخذ من تآليفه المخطوطة والمطبوعة ، مثل الجزء الحادي والاربعين من موسوعته المسمي « متعة الاسماع » الموجود بالمكتبة العاشورية العامرة ، وهو بخط التيفاشي نفسه ، وفيما يظهر انه لم يصل الى مصر ولم يختصره ابن منظور فيما اختصر .

— ٣ — علي الورداني

علي بن سالم الوَرْدَانِي ، نسبة الى الوردانين من كبار قرى الساحل في دائرة سوسة ، وقد زارها الرّحال التونسي عبد الله التجاني في اوائل القرن الثامن للهجرة وذكرها في رحلته [1] ، وبها وُلد علي في سنة ١٢٧٨ (١٨٦١ م) ثم قدم في صباه الى حضرة تونس ودخل المدرسة الصادقية لاول افتتاحها ، وزاول العلوم بها وبرع في العربية واتقن اللسانَيْن التركي والفرنساوي ، وتميّز بين اقرانه ، فلحظه الوزير الكبير خير الدين باشا واتخذه كاتبا في حاشيته ، ولما استقال هذا الوزير من منصبه بتونس وسافر الى اسطنبول — عاصمة الخلافة العثمانية — استصحب معه الورداني — سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨) ، وقد استفاد علي كثيراً من اقامته بالاستانة حيث زاد في اتقانه للسان التركي ، وقوي زاده في العلوم علاوة على تعرّفه لكثير من ذوي الاقدار بها .

ولما خطر بفكر السلطان عبد الحميد الثاني ارسال بعثة علمية الى اسبانيا وفرانسا وانكلترا للبحث عن المخطوطات العربية المحفوظة

---

(١) رحلة التجاني طبع تونس ص ٤٠

بخزائنها والتعريف باهميتها ، عرض الصدر الاعظم السابق خير الدين باشا على السلطان هـذا الشاب التونسي لمرافقة البعثة يكون مترجما لما تحت رياسة العالم الطائر الصيت محمود التركزي الشنقيطي .

وبارحت البعثـــة اسطنبول يوم الاربعـاء ١٩ ذي الحجة ١٢٩٦ (٨ سبتنبر ١٨٧٨) على متن باخرة قاصدة مرسيليا ، ومنها ركبت الرتل الى مدينة بوردو ، ثم دخلت الى اسبانيا وحلّت بمدريد قاعدة البـلاد ، ومنها توجهت الى الاسكوريال حيث توجد مجموعة المخطوطات العربية ، فاطلعت اللجنة عليها وقيّدت ما اختارت منها في مدة أيام ، ثم انتقلت الى طليطلة فاشبيلية فغرناطة ، فقرطبة ، فبلنسية ، فبرشلونة ، ومنها عادت الى باريس بعد ان قضت ثلاثة اشهر كاملة في اسبانيا .

ولما عادت البعثة الى الاستانة - أقام الورداني مدة هنـــاك قدّم في اثنائها تقريراً في اعمال البعثة ونتيجة ابحاثهـا ، ثم انه حنّ الى مسقط راسه وقد ترك به والدته المسنّة ، فرجـع الى تونس وانخـرط في سلك المترجمين بالوزارة الكبرى ، ثم ترقى الى رتبة منشيء اول ،ومن ناحية اخرى استمرّ على الاشتغال بالادب ونشر المقالات والقصائد من نظمه في الجرائد المحلية ، لاسيما في جريدة « الحاضرة » لما كان له مع صاحبها ومؤسسها المرحوم علي بوشوشة من المودة المتينة والصحبة منذ الصبا وعهد

الدراسة ، كما كانت له علاقة ودّية بغالب الذوات التونسية المعـاصرة ، وعاش علي الورداني أعـزب الى آخر حياتـه ، وكان خفيف الروح ، له مداعبات ومزح لطيف حبّبه الى عارفيـه ، زيادة على ما كان عليه من كرم الاخلاق وحسن المعاشرة مع شي من الغفلة بامور الدنيا وشؤونهـا المادية ، مما زاد في محبّـة اخوانه له وعطفهم عليـه . وكان ينظـم الشعر بالمناسبات فيجيد ، ويحبّر المقالات الرائعة في شتى المواضيع بقلم سلس وعبارة صحيحة فيصيب ، في عصر كانت الثقافة العربيـة محصورة في التعليم الزيتوني البعيد عن معرفة التمدن الغـربي المتسيطر حينئذ على العالم بمخترعاته واكتشافاته

وكانت وفاة علي الورداني في خلال سنة ١٣٣٣هـ (١٩٠٥م) رحمه الله تعالى .

ولقـد عرفته شخصياً في زمان الشبـاب الباكر - أوائـل القرن الافرنجي الحالي - فكنت أرغب منه - مع جلة الاحباب - ان يذكر لنا معالم الاندلس العربية الفاخرة التي زارهـــا مثل قصر الحمراء في غرناطـة وعجائب صنائعه، وقصر بني عبّاد في اشبيلية، والمسجد الجامع الاموي بقرطبة وغابة أعمدته المرمرية وغير ذلك ، فكان - رحمه الله - يقصّ علينا ما عاينه من تلك الذخائر النفيسة بلهجته الهادئة الوديعة مع مـا يتخلّل ذلك من الاستشهـاد بمقطوعـات من شعره وشعر غيره ، فكنّا نستفيد من أحاديثه الشيّقة ، ونتمتع بها ، في عصر لم تكن المطبوعات

الفنية ولا كتب السياحة المصورة عن بلاد العـــالم منتشرة انتشارها اليوم الحاضر .

وبقي في ذاكرتي من أحاديثه الطريفة : انـ البعثة العلميـة التي صاحبها لمـا وصلت الى قرطبة اتجه افرادهـا الى زيارة المسجد الجـامع ـ تلك الاعجوبة الفنيـة التي لا نظير لهـا في العـالم الاسلامي ـ وكان من المصاحبين للوفد سفير الدولة العثمانية لدى حكومة اسبانيـا ، وقد أبى إلاّ ان يرافـق البعثة في زيارتها للمعالم الاسلامية في الانـدلس ، قـال الورداني برّد الله ثراه :

« فلما دخلنا الجامع وتوسطنا مساكبه أخذتني وحشة شديـدة لدرجة اني انعزلت ناحية بعيدة ، وقـد اغرورقت عيناي بالدموع لما أصابني من التأثر ، فجلست في مكان منحرف عن صحبي ، وبينما أنا في تفكيري وتاثيري إذ بيدٍ من ورائي وضعت على كتفي من غير ان أشعر ، فاذا هو سعادة سفير تركيا يضحك في وجهي ويخاطبني بقوله :

ـ يظهر انك انزعجت من رؤية جامع اسلامي حوّل الى كنيسة؟ فاعـلم ان مثل هذا يقع لكل الدول التي امتدت فتوحهـا الى الشرق والغرب ، لكن لا تنسى اننا اذا خسرنا مسجداً تقام فيـه الآن طقوس المسيحية ، فانا نملك ما هو أعز وأثمن من ذلك في نظر هؤلاء المغتصبين :

ألا وهي كنيسة القَمَامَة بمدينة القـدس ، تلك التي يعتقدون انها تضمّ رُفات الآههم كما يزعمون، فاذكر هذا يهوّن عليك ما أصابك » فشكرت فضله لتنبيهي لما كنتُ عنه غافلا ، والتحقت برفاقي مغتبطاً مما سمعت »

ومن آثـــار علي الورداني ـ علاوة عن أشعاره ومقالاته المتنوعة والموزعة هنا وهناك ـ ذلك التقييد المفيد الذي عَنْوَنَه (بالرحلة الاندلسية) وقد جمع فيها خبر الزيارة الى بلاد اسبانيا وما شاهده من المعالم والآثار، ووصف اخلاق السكان وعوائدهم وملاهيهم ولباسهم وأكلهم وكلامهم مع ما يخطر له من الانتقاد في نظامات الهيئة الاجتماعية والادارة ، وما تثير مشاهداته في نفسه من المقارنة بين ما هو موجود بالانـدلس اذ ذاك وبين بلاده القطر التونسي .

وبالجملة فان رحلته هذه تعدّ أول رحلة الى اسبانيا من شاب تونسي معاصر ، محيط بالثقافتين العربية القـديمة والافرنجية الحديثة اذ كان يحسن جيداً اللسان الفرنسي وشيئاً من الطلياني .

ونشرت رحلته تباعاً في جريدة «الحاضرة» الاسبوعية في سنوات ثلاث متوالية من ١٣٠٥ الى ١٣٠٧ في ٢٨ عدد .

مصادر : جريدة الحاضرة من عدد ٣ الى ١٠٣ ـ وكذا :

H - Pérès - L'Espagne vue par les voyageurs musulmans (1610 à 1930) Paris, 1937 p. 62 et suivantes .

اقـــتراح :

وكم يروق لتونسنا العزيزة المتشوّقة الى بلوغ الكمال بجمع الشتات وتدارك ما فات ، لو توفّق أحد بنيها الغيورين ، واعتنى بنشر تلك (الرحلة الاندلسية) على حدة ، مع التعريف بمؤلفها ، والتعليق عليها بما تستحق وبما يناسب .

ولا إخال هذه الامنية المرجوّة الا متحققة ، ان شآء الله تعالى .

انتهى القسم الثاني من كتاب « الورقات » ويليه القسم الثالث ـ بحول الله وطوله

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

نخبة من رجال سوسة الاغلبية

صفحة

البَرْدي والرَّق والكاغِد

الموسيق والأت الطرب

صفحة

صفحة

قصة جزيرة : قَوْصرة العربية

مواعظ ونوادر وملح تونسية

باب المواعظ

صفحة

صفحة

لطائف النوادر

صفحة

طرائف المُلَح والفكاهة

صفحة

إجابة رغبة



أنجزت مطبعة المنار في تونس
طبع هذا الكتاب
سنة ١٩٦٦

IMP. AL - MANAR
1966

H. H. ABDUL - WAHAB

WARAKAT

(Feuillets)

Etudes sur certains aspects
de
la civilisation arabe en Ifrikia

(Tunisie)

2ème Partie

Editeur

Librairie AL - MANAR - Tunis

1966



WARAKAT

« Feuil ets »

ETUDES SUR CERTAINS ASPECTS

DE

LA CIVILISATION ARABE

EN IFRIKIA

(TUNISIE)

2EME PARTIE

H. H. ABDUL - WAHAB

WARAKAT

(Feuillets)

Etudes sur certains aspects
de
la civilisation arabe en Ifrikia
(Tunisie)

2ème Partie

Editeur

Librairie AL - MANAR - Tunis

1966

IMPRIMERIE AL-MANAR - TUNIS

الثمن : ٢ د. ت. او ما يعادلها